مجلد ٨ — عدد ٣٢

مايو ١٩٤٨



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

كتاب

البخلاء

للجاحظ

حقق نصه وعلق عليه

طه الحاجرى
مدرس الأدب العربى بجامعة فاروق الأول

٥١ + ٤٦٨ صفحة ، الثمن ١٠٠ قرشاً



تاريخ قضاة الأندلس

ألّفه

الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن
النُّباهى المالقى الأندلسى

وسمّاه

كتاب المرقبة العليا
فيمن يستحق القضاء والفتيا

نشر

إ. ليفى پروفنسال
أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون
مدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس

٢٤ + ٢٤٨ صفحة ، الثمن ٧٥ قرشاً



عبد العزيز البشرى



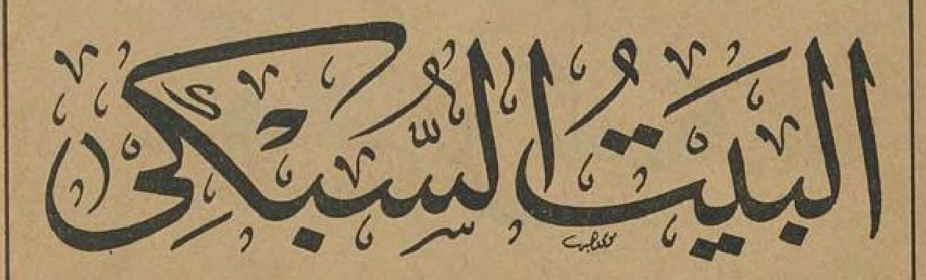
مقدمة طه حسين

هى الأدب كل الأدب ، وهى الفن كل الفن ،
وهى الكلام الذى يجمع إلى رصانة الأدب
القديم وجزالته خصب الأدب الحديث وثروته

طبعة فى جزأين ، ثمن الجزء ٢٠ قرشاً



محمد الصّادق حسين



بيت علم فى دولتى المماليك

« وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الاطلاق
لا يقدر أحد يرد على هذه الكلمة . »
« الفلاح حر لا يد لآدمى عليه . »
تاج الدين السبكى

٩٦ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشاً



سلامة موسى

تربية سلامة موسى

العالم طيب . . . إنى أبارك على الحياة .

رامبو

تاريخ حياة المؤلف باعتبار أن الحياة تربية
وتاريخ مصر فى تطورها وانتقالها من
القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين

٢٩٢ صفحة ، الثمن **٢٥** قرشاً



حسن عثمان

سافونارولا

الراهب الثائر

SAVONAROLA



٢٦٠ صفحة ، الثمن **٢٥** قرشاً



الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصري

جمادى الثانية ١٣٦٧ — مـايو ١٩٤٨

السـنة الثـالثـة — مجلد ٨ – عدد ٣٢

حول رسائل سيسرون

لست فى حاجة إلى أن أعرف إليك سيسرون ، كما ينطق به الفرنسيون ، أو تشتشيرون ، كما ينطق به الايطاليون ، أو كيكيرون ، كما ينطق به اللاتينيون فيما يقال . فهو زعيم الخطابة اللاتينية غير منازع ، وهو الزعيم الثانى للخطابة العالمية غير منازع أيضاً بعد ديموستين الخطيب اليونانى العظيم . والعلم بمكانته فى الخطابة ، وبمكانته فى السياسة ، وبمكانته فى الفلسفة ، وبمركزه الممتاز فى حياة الجمهورية الرومانية ، وجهاده فى الاحتفاظ بهذه الجمهورية ، وموته فى هذا الجهاد ، من أوليات الثقافة التى تلقى إلى الشباب فى مدارسهم الثانوية . ولكنى مع ذلك سأحدثك عن سيسرون لأعرض عليك منه صورة أقل ما توصف به أنها مخالفة كل المخالفة لما توارثت الأجيال من أمره منذ عشرين قرنا .

ولست أنا الذى أستكشف هذه الصورة أو أبتكرها ، فلست من هذا كله فى شئ ، وإنما الذى استكشف هذه الصورة وعرضها على الناس ، عالم فرنسى عظيم ، هو الأستاذ جيروم كاركوبينو عضو المجمع العلمى الفرنسى ومدير مدرسة المعلمين العليا فى باريس سابقاً ، والذى امتحن امتحاناً قاسيا أثناء الحرب الأخيرة ؛ لأنه تولى وزارة التربية الوطنية فى حكومة الماريشال بيتان ، فخرج من هذا الامتحان نقيًّا رضيًّا . وهو يعرض علينا هذه الصورة فى كتاب ضخم يأتلف من مجلدين ، وتنيف صفحاته على تسعمائة صفحة .

وقد ظهر هذا الكتاب فى أوائل هذا العام ، فتلقاه النقاد أحسن لقاء ، وقدموه إلى القراء تقديماً مختلفا : فمنهم من قدمه تقديما فيه شيء من دعابة وعبث ، ومنهم من قدمه تقديما فيه شيء من غضب وغيظ . ولكن الكتاب أرفع مكانة من عبث العابثين ، وغضب الغاضبين ، لأنه آية من آيات البحث العلمى الرفيع بأدق معانى هذه الكلمة وأعمقها وأوسعها فى وقت واحد .

فأما الذين قدموا الكتاب فى شيء من دعابة ، فهم النقاد الأدباء الذين ورثوا عن الأجيال هذه الصورة التقليدية لسيسرون ، وأقاموا حياتهم الثقافية عليها ، وشقوا أثناء التعلم والطلب بما كان الأساتذة يفرضون عليهم من ترجمة النصوص التى تركها هذا الكاتب العظيم . فهؤلاء قد نشأوا على أن سيسرون هو الصورة الصادقة للجد الذى ليس بعده جد ، والحزم الذى ليس بعده حزم ، والارتفاع عن صغائر الأمور ، والتنزه عما يشين رجل الصدق . وهو الذى تولى منصب القضاء الأعلى فى الجمهورية ، فكان أنزه القضاة وأعفهم وأكرمهم وأحرصهم على العدل وأشدهم توخياً للانصاف . وتولى رياسة الجمهورية ، فكان حازما صارما ، بعيد النظر نافذ البصيرة ، سديد الرأى ، منقذاً للوطن من شر عظيم . وتولى الحكم فى أحدَ الأقاليم ، فكان مثالا ممتازاً للنزاهة والعدالة والصرامة ، والضرب على أيدى الذين يستغلون أهل الأقاليم ويستذلونهم ويتخذون أموالهم معونة بينهم ، كما كان عمر بن الخطاب رحمه الله يقول . واشتغل بين ذلك كله بالمحاماة ، فكان أفصح المحامين لساناً ، وأرفعهم بياناً ، وأمضاهم حجة ، وأبعدهم عما يجانب كرامة المحاماة ، وأرحمهم للضعيف ، وأرأفهم بالمظلوم . وكان إلى هذا كله أستاذاً ممتازاً من أساتذة البيان ، وفيلسوفاً موفقاً ، وحكيما مهذباً ، معتدل الرأى ، معتدل السيرة ، معتدل المزاج . وقد امتحنت الجمهورية الرومانية بدكتاتورية قيصر ، وطغيان أنطوان ، واستبداد أوكتاف . فقاوم الدكتاتورية والطغيان والاستبداد بيده ولسانه وقلبه ، ولقى حتفه فى هذه المقاومة حين ائتلف الطاغيتان أنطوان وأوكتاف ، وأهدرت بهذا الائتلاف دماء كثير من أعلام الجمهورية وأنصار النظام الموروث .

هذه هى الصورة التى توارثتها الأجيال عن سيسرون منذ ألفى عام ، والتى نشأ عليها الأدباء والمعلمون والمتعلمون والمؤرخون . فلما ظهر هذا الكتاب ،

وعرض على الناس صورة مخالفة لهذه الصورة كل المخالفة ، لم يملك بعض النقاد نفسه ، فتلقى الكتاب وقدمه إلى الناس فى دعابة شامتة أو شماتة مداعبة . وكتب الأستاذ إميل هنريو عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، فى جريدة «الموند» يظهر شماتته هذه المتفكهة المداعبة ، بهذا الكاتب العظيم الذى أشقى الشباب وما زال يشقيهم بنصوصه العسيرة ، وأشقى الناس وما زال يشقيهم بسيرته القاسية الصارمة وجده المروع البشع . ثم هو يظهر الآن بفضل هذا الكتاب رجلا من الناس ، فيه ما فى الناس من ضعف ، وفيه ما فيهم من عيوب . وأما العلماء والمؤرخون منهم خاصة ، فقد ضاقوا بهذه الصورة التى تغض من هذا الرجل الذى توارثت الأجيال رفعته وامتيازه . وكتب الأستاذ مارو فى جريدة «الموند» الأسبوعية يقول : «إن سيسرون رجل مكذوب عليه» . والشئ الذى لا أشك فيه ، هو أن الشامتين بسيسرون والغاضبين له ، إنما أظهروا ما أظهروا من الشماتة والغضب ، لأنهم لم ينظروا فى الكتاب إلا أيسر النظر وأقله تعمقاً واستقصاء . فالكتاب ، كما رأيت آنفاً ، ضخم توشك صفحاته أن تبلغ الألف ، وهو على ذلك كتاب علم ، قد التزم صاحبه دقائق المنهج التاريخى فى عرض ما أراد عرضه من الحقائق ، وحل ما أراد حله من المشكلات . وقراءته ليست يسيرة ولا هينة ، وهى تحتاج إلى كثير من الأناة والصبر وحسن التأنى . والحكم له أو عليه لا ينبغى أن يصدر إلا بعد هذه القراءة المستأنية المستقصية الصابرة ، التى لا تحتاج إلى الأيام وإنما تحتاج إلى الأسابيع ، والتى لاتكتفى بنفسها وإنما تكلف القارئ كثيراً من مراجعة النصوص وامتحان الأحكام التى يصدرها المؤلف بالرجوع إلى ما يستشهد به من المصادر . وهذه المصادر كثيرة مختلفة ، منها القديم والحديث ، ومنها ما كتب باللاتينية وما كتب باليونانية ، ومنها ما كتب فى اللغات الحية على اختلافها . ولست أزعم أنى قد نهضت بهذه القراءة المستأنية المستبصرة ، ولكنى لست أزعم كذلك أنى سأحكم لهذا الكتاب أو أحكم عليه . فلست أحسن هذا العلم ، ولست أبيح لنفسى أن أحكم بين المختصمين فيه ، وإنما أنا رجل متواضع ، معتدل المذهب والرأى والغاية ، لا أريد إلا إلى شئ يسير جدا ، هو أن أعرض على قراء العربية لوناً من ألوان البحث الذى يفرغ له بعض الناس فى أوربا وأمريكا ، وينفقون فيه حياتهم ، وينعمون إن أتيح لهم

أن ينفقوا حياتهم فيه ، ويجدون بعد ذلك جماعة من أكفائهم يتلقون ما يكتبون بالنقد والبحث فينكرون ويعرفون ، وجماعات أخرى من عامة المثقفين يتلقون ما يكتبون على أنه غذاء للعقول والقلوب ، ومتاع يستريحون إليه مما يملأ حياتهم من الهموم والخطوب . وأنا أرجو أن يكون فى إظهار قرائنا على هذا اللون من ألوان البحث ما يغرى شبابنا بالدرس الهادئ المستأنى الذى تخلص النية فيه للعلم وحده ، والذى لا تلتمس به منفعة قريبة أو بعيدة ، ولا تبتغى به شهرة واسعة أو ضيقة ، وإنما يقصد به إلى هذه المتعة العليا ، متعة المعرفة الخالصة التى تكشف الحق وتصحح التاريخ .

وينبغى أن أعرض هذا الكتاب مبتدئا من آخره لا من أوله ، ذلك أجدر أن يجعل فهمه يسيرا ، والعلم به محببا إلى النفوس .

فنحن فى أواسط القرن الأول قبل المسيح حين لم يبق من هذا القرن إلا ثلثه ، وقد تم الائتلاف بين أوكتاف وانطوان على الاستئثار بأمر الجمهورية الرومانية وأقاليمها ، وذهب فى سبيل هذا الائتلاف كثير من أنصار الجمهورية ، مات بعضهم فى الحرب ومات بعضهم بأمر المؤتلفين ، الذى صدر إما عن رغبة فى الانتقام ، وإما عن رغبة فى تثبيت النظام الجديد . وكان سيسرون من الذين قاوموا النظام الجديد ، بل كان على رأس المدبرين لهذه المقاومة فى مجلس الشيوخ ، عن أمره كانت جيوش الجمهورية تصدر فى مقاومتها للطغاة والمستأثرين فى البر والبحر وفى الشرق والغرب . فلما تم الائتلاف وأتيح الانتصار للمؤتلفين ، أهدر دم سيسرون فيما أهدر من الدماء ، فقتل سنة ثلاث وأربعين قبل المسيح . وكان لسيسرون صديق حميم ، أحبه منذ عهد الصبا ، ودرس العلم معه أثناء الشباب ، ثم تفرقت بهما طرق الحياة ، فمضى سيسرون فى طريق السياسة ، ومضى صديقه أتيكوس فى طريق المال . وامتاز كل من الرجلين فيما اختار لنفسه من طريق ، فامتاز سيسرون فى السياسة حتى أصبح فى بعض أوقاته رئيسا للجمهورية ، وظل فى أكثر حياته زعيما للديمقراطية المعتدلة . وامتاز أتيكوس فى المال حتى أصبح أضخم أهل روما ثراء وأوسعهم غنى ، وأعظمهم من أجل ذلك سلطاناً على الأغنياء والفقراء جميعاً . ولكن الرجلين على هذا التفرق احتفظا بالمودة الخالصة والصداقة الصافية ، واشتركا بحكم هذه المودة ، فى حب العلم والأدب والفن ، وهذا

الترف الرفيع الذى يتصل بحياة العقول والقلوب . وقد ورث أتيكوس عن أسرته ثروة ضخمة ، فلم يكد يجاوز طور الطلب حتى فرغ لهذه الثروة يدبرها ويثمرها وينميها ، وأقام بينه وبين السياسة سوراً كثيفاً حرم على نفسه أن يعبره أو ينفذ منه ، وحرم على السياسة أن تنفذ إليه مهما تحدث الأحداث ومهما تكن الخطوب . وهو من أجل ذلك يهجر مدينة روما حين تعصف بها الثورة السياسية فى أيام سولا ، ويعبر البحر إلى بلاد اليونان ، فيقيم فى أتينا وفى غيرها من المدن اليونانية ما شاء الله أن يقيم . حتى إذا هدأت الثورة واستقرت الأمور ، عاد إلى روما وقد أضاف إلى ثرائه ثراء ، وإلى علمه علما ، وقد استقر فى نفوس الساسة أنه ليس من السياسة فى شىء ، وأنه لا يريد أن يكون منها فى شىء ، وإنما هو رجل مال وعلم ، لا يريد أن يزيد على المال والعلم شيئاً . وهو من أجل ذلك صديق للساسة جميعاً مهما تكن أحزابهم ، ومهما يحسنوا أو يسيئوا ، ومهما تختلف بهم الظروف . قد زهد فى مناصب الحكم فتركها لهم ، وزهد فى مجلس الشيوخ فتركه لهم ، وزهد فى الطبقة الارستقراطية الممتازة فتركها للذين يسعون إليها من أصحاب الطمع والطموح ، وقنع بأن يثمّر ثروته ، وينشئ فى روما وفى الأقاليم مصرفاً هو أعظم المصارف وأكثرها تشعباً وأكثرها عملاء . فهو يقرض المحتاجين إلى أن يقترضوا ، ويدبر لأصحاب الثراء ثراءهم ، ويحفظ على أصحاب الأصول أموالهم . يعتدل فيما يأخذ على القروض من فائدة ، ويسخو فيما يرد على أصحاب الأموال من ربح ، ويكفل بذلك لنفسه حب الموسرين والمعسرين جميعاً .

وقد شغف أتيكوس بالفلسفة والأدب والفن ، فلم يلبث أن شغف بالكتب وجعل يجمعها وينشىء لنفسه خزانة كتب ممتازة ، ويسرت له ذلك إقامته فى بلاد اليونان وثروته الضخمة ، فجعل يجمع المخطوطات القديمة ونفائس الآثار ما وجد إلى ذلك سبيلا . وانتقل بهذا كله إلى روما ، ودعا الناس إلى داره ، فرأوا وقرأوا وأعجبوا ، وأحبوا أن يكون لهم مثل ما رأوا من آيات الأدب والفن والفلسفة . وما هى إلا أن يصبح أتيكوس خبيراً يشير على المثقفين والمترفين ، ثم وسيطاً يشترى لهم من الكتب والآثار وطرائف الفن ما يريدون . وعنده كتب كثيرة نادرة ليس من اليسير أن تقتنى ، وهو لا يعير شيئاً من كتبه ، فالناس مخيرون بين أن يسعوا إلى داره لينظروا فى هذه الكتب ، وبين

أن يستنسخوا هذه الكتب إن أرادوا أن يملكوها . وإذا أتيكوس يؤلف جماعة من الرقيق المثقفين ، منهم من أتقن تنظيم خزانات الكتب والقيام عليها ، ومنهم من أتقن النسخ والمراجعة والمعارضة ، وإذا هو قد أنشأ داراً للنشر عظيمة الخطر فى روما ، يعمل فيها النساخ والمراجعون ينسخون للأدباء مايحتاجون إلى استنساخه من الكتب ، ويسبقون إلى نسخ طائفة من الكتب اليونانية واللاتينية تشتد إليها حاجة القراء . وما هى إلا أن تتسع دار النشر هذه ، فلا تكتفى بنسخ القديم وإذاعته ، وإنما تضيف إلى ذلك نشر الآثار التى ينشئها المحدثون . وإذا هذه الدار قد أصبحت أشبه شئ بدور النشر الحديثة التى نعرفها الآن ، لا يكاد الشاعر ينشىء ديواناً ولا يكاد الكاتب يؤلف كتاباً حتى يدفعه إلى أتيكوس ، فاذا هو ينسخ وينشر ، لا فى روما وحدها ، بل فى إيطاليا، ثم فى الأقاليم الرومانية فى الشرق والغرب. وكذلك أصبح أتيكوس أكبر رجال المال فى روما ، ويسر له ذلك الاتصال برجال السياسة على اختلاف أحزابهم ويأكبر رجال النشر للقديم والحديث ، ويسر له ذلك الاتصال برجال الثقافة على اختلاف أحزابهم أيضاً . وإذ كان سيسرون من الممتازين فى السياسة والثقافة جميعاً —وسنرى أنه كان من الممتازين فى المال أيضاً— فقد اتصلت الأسباب الوثيقة اليومية بينه وبين أتيكوس . وقد أشرت آنفاً إلى أنهما كانا صديقين منذ أيام الطلب فى عهد الصبا والشباب ، فقد زادت صداقتهما قوة وتوثقاً على مر الأيام وتعاقب الأحداث . ومن المحقق أن أتيكوس كان أشد الناس بسيسرون صلة ، وأدناهم منه مكانة ، وأعرفهم بدخائل أمره كلها ، سواء منها ما يتصل بالحياة العامة وما يتصل بالحياة الخاصة فى أدق خفاياها . وكان أتيكوس قد أحب مذهب أبيقور واتخذه لنفسه دينا ، وتأثرت به حياته العقلية ، كما تأثرت به سيرته اليومية أشد التأثر وأقواه . والقراء يعلمون أن أخص مايمتاز به مذهب أبيقور من الناحية الخلقية ، هو أنه يجعل اللذة غاية الغايات للانسان ، ويرى أن هذه اللذة لا تخلص ولا تستقيم لطلابها إلا إذا برئت من الألم ، فلم تعقبه ولم تورط فيه . فالرجل الحكيم فى هذا المذهب خليق قبل كل شئ أن يتجنب الألم ما وجد إلى ذلك سبيلا ، وأن يبتغى اللذة ما وجد إليها سبيلا أيضاً . وإذ كانت اللذات فى أكثر الأحيان مصادر للألم ودوافع إليه ، فالرجل الحكيم خليق أن

يتجنب اللذات نفسها ليتجنب ما تعقب من الألم . وخير للرجل الحكيم أن يفرض على نفسه حياة غليظة ساذجة فيها شئ من شظف وقسوة ، من أن يقبل على الحياة الهنية اللينة ويستجيب للمغريات ، فيستمتع بلذات كثيرة تدفعه إلى آلام كثيرة . ومذهب أبيقور يمتاز كذلك بأنه حرر الانسان من خوف الموت وما يمكن أن يكون بعد الموت . فالآلهة لا يحفلون بالانسان ولا يسألونه عن عمله ، ولا يجزونه بالخير خيراً ولا بالشر شرا ، وإنما الانسان مسئول عن نفسه أمام نفسه أثناء الحياة ، فاذا أدركه الموت فقد عاد إلى العدم الذى خرج منه حين دخل الحياة . وإذن فليس للانسان أن يفكر إلا فى حياته هذه التى يحياها ، يلتمس فيها لنفسه الخير والمنفعة ، ويصرف فيها عن نفسه الشر والمضرة ما استطاع إلى ذلك سبيلا . والصداقة نفسها عرض من أعراض هذه الحياة ، لا تلتمس لنفسها ، وإنما تلتمس لما تتيح للانسان من لذة ومنفعة . فالانسان خليق أن يلتمسها ويستمسك بها ما أتاحت له لذة ومنفعة . وهو خليق أن يجتنبها ويتخلص منها إن عرضته لشر أو ضر . وهو خليق ألا يحفل بها ولا يلتفت إليها إن لم تغن عنه شيئاً .

كذلك كانت الصداقة التى ادخرها أتيكوس لخليله الوفى الحميم سيسرون ، صداقة قوية متينة ما جلبت له نفعاً ولذة . وكان سيسرون مصدراً للذة والنفع جميعا : مصدراً للنفع لمكانه من السياسة والسلطان ، ومصدراً للذة لمكانه من الثقافة العليا ، وما امتاز به من رقة الشمائل وعذوبة الحديث ، وجمال المحضر والمغيب . ومن أجل ذلك كان الرجلان يلتقيان فى كل يوم إن أتيح لهما اللقاء ، فان حيل بينهما وبينه عمدا إلى الرسائل تغنيهما عن هذا اللقاء . ولم يقف الأمر بين الرجلين عند هذه الصداقة ، وإنما نشأت بينهما صلات المصاهرة ، فتزوج كنتوس سيسرون أخو أديبنا العظيم من بونبونيا أخت أتيكوس مالينا العظيم أيضاً . فليس من الغريب أن يلجأ سيسرون إلى صديقه وصاحب صهره فى كل ما ينوبه من الأمر . فهو مدبر ثروته ومستشاره فى السياسة ، وناشر كتبه ومنظم مكتبته ، والداخل فى الجليل واليسير من أمره كله ، حتى يقتل سيسرون فى أواخر سنة ثلاث وأربعين قبل المسيح .

وقد يسأل القارئ ما حاجتنا إلى هذا التفصيل الطويل ؟ فلينتظر قليلا ، فستظهر الحاجة إلى هذا التفصيل واضحة كل الوضوح ، بعد أن نضيف لها

تفصيلا آخر يتصل بحياة أتيكوس نفسه. فقد أشرت إلى تأثره بمذهب أبيقور، واضطراره بحكم هذا المذهب إلى أن يتجنب الانغماس فى الترف واللذة، وقد دفعه ذلك إلى أن يعيش أعزب دهراً من حياته، ثم اختار لنفسه زوجاً ليست ممتازة الطبقة، وإنما هى من أسرة ضئيلة فقيرة ليست بذات خطر. ورزق من هذا الزواج طفلة لم يمنحها من عنايته إلا مقدارا معتدلا. ولكن ثراءه وحياده وثقافته وامتياز مكانته فى روما، كل ذلك قرب منه أوكتاف، حين استقامت له الأمور وأصبح مستأثراً مع أنطوان بالسلطان الرومانى، وإذا هو صديق لأتيكوس، وإذا هو يتجاوز الصداقة إلى الصهر، فيصبح حفيده ختنا لأتيكوس. وحفيده هذا هو الذى سيخلف أوغسطس على عرش الامبراطورية الرومانية، بعد موته، وسيسمى تيبيريوس.

هذه الصلات التى توثقت بين أوكتاف عظيم السياسة الرومانية، وأتيكوس عظيم المال الرومانى، هى التى دفعت أتيكوس إلى نشر الرسائل الخاصة التى كتبها سيسرون، والتى اتخذها الأستاذ جيروم كاركوبينو موضوعا لكتابه، واستخرج منها الصورة الجديدة لسيسرون، فأثارت ما أثارت من الرضا والسخط ومن الوفاق والخلاف. والفكرة الأساسية لهذا الكتاب، وهى التى لم يلتفت اليها النقاد الأدباء لأنها تعنى العلم أكثر مما تعنى الأدب، هى أولاً أن رسائل سيسرون إنما نشرت فى عهد أوكتاف قبل أن ينفرد بالحكم، وأثناء التنافس الشديد بينه وبين أنطوان، وأنها نشرت بواسطة أتيكوس، وصدرت عن داره تلك التى أشرنا إليها منذ حين، ونشرت على دفعتين: إحداهما بين سنة خمس وثلاثين واثنتين وثلاثين قبل المسيح، وهى تشتمل على الرسائل الخاصة التى كتبها سيسرون لأتيكوس. والثانية سنة اثنتين وثلاثين قبل المسيح، وهى تشتمل على الرسائل الخاصة التى كتبها سيسرون إلى ابنه وأخيه وصديقه بروتوس ونفر آخرين من الأصدقاء.

فأما الجزء الأول من هذه الرسائل، فقد نشر دفاعاً عن أوكتاف وأنطوان اللذين قتلا سيسرون. وأما الجزء الثانى فقد نشر مبالغة فى إذاعة الدعوة لأوكتاف حين اشتدت الخصومة والمنافسة بينه وبين أنطوان. وكان سيسرون ضحية لنشر الجزأين جميعاً، فهو نشر قصد به إلى السياسة لا إلى الأدب، وإلى الغض من سيسرون لا إلى التنويه بذكره والاحسان إليه. قصد بالجزء

الأول إلى إظهار ما امتلأت به حياة سيسرون من الاضطراب الشديد الذى يتصل بالسياسة ، ويتصل بالمال ، ويتصل بالأخلاق ، ليتبين الناس أن الذين قتلوا سيسرون لم يقتلوا فيلسوفاً مصلحاً عظيماً ممتازاً فى خلقه وسيرته ورأيه ، وإنما قتلوا سياسياً متقلباً مسرفاً فى التقلب ، أنفق حياته كلها ملتمساً لمنفعته الخاصة القريبة الحقيرة ، مخادعاً للناس عن نفسه وعن آرائه وعن سيرته . فهو يزعم أنه أنقذ الجمهورية حين كان رئيساً لها من خطر الثورة ، مع أن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه كان صديقاً لكاتلينا زعيم الثورة ، ولم يهاجمه إلا حين عجز عن أن ينتفع به . وهو يزعم أنه كان نصيراً للنظام الجمهورى حين ظهر يوليوس قيصر ، ولكن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه تقرب إلى قيصر حتى ظفر منه بالعطف والعفو والأمن ، وظل يتملقه ما استقامت له الأمور ، فلما قتل شمت بقتله ، وابتهج لموته ، وظاهر قاتليه . وهو يزعم أنه نصير للنظام الجمهورى بعد مقتل قيصر ، ولكن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه تملق أنطوان ما وسعه التملق ، وتملق أوكتاف ما وجد إلى تملقه سبيلا . فاذا كان أوكتاف وأنطوان قد قتلاه لأنه تنكر لهما قبل ائتلافهما ، فهما لم يزيدا على أن قتلا خصما سياسيا كاد لهما وألب عليهما ، وجدّ فى حربهما بعد أن كان لهما صديقاً يبتغى إلى مودتهما الوسائل . فحبه للنظام الجمهورى كذب إذن ، لأنه لم يحب إلا نفسه ، ولم يبتغ إلا منفعته . وأخلاقه لم تكن ذات خطر ؛ فقد كان شرها إلى المال ، تعترف عليه كتبه بأنه ارتشى من قيصر أولا ومن غير قيصر ثانياً ، وبأنه ملك فى روما وخارج روما ثمانى عشرة داراً ، من تلك الدور الفخمة التى كان الأغنياء الرومانيون يملكونها ، وكانت قيمة تلك الدور نحو عشرين مليوناً من الدراخمات . وكان مسرفاً شديد الاسراف ، يدفعه الاسراف إلى الاعسار أحياناً ، ويدفعه الاعسار إلى التماس المال من غير وجهه . فهو يطلق امرأته التى عاشت معه خمسة وثلاثين عاماً وولدت له ابنه ماركوس وابنته توليا ، لسبب واحد وهى أن امرأته لم تمكنه من ثروتها حين احتاج إلى هذه الثروة ، فيطلقها . ويتزوج وقد قارب الستين فتاة فى العشرين من عمرها لا لشئ إلا لثروتها . وهو يدفع ابنته إلى الزواج والطلاق ثلاث مرات للمال وللمال وحده ، حتى تموت البائسة حزناً. ثم هو يزعم أنه محام نزيه ، حريص على كرامة المهنة ، ولكن نزاهته هذه

ظاهرة لا تثبت أمام البحث والتمحيص . فقد كان قانون المحاماة يحظر على المحامين أن يأخذوا من موكليهم أجوراً لما ينهضون به من أعباء الدفاع عنهم أمام القضاء . وكان سيسرون نفسه يخاصم بعض زملائه ، ويزعم أنهم يتقاضون هذه الأجور التى يحظرها القانون ، ولكنه هو نفسه كان يتقاضى أجره من موكليه بطرق ملتوية لا تلائم النزاهة ولا الشرف . فكتبه تشهد عليه بأنه كان يتفق مع موكليه مشافهة على أن يهدوا إليه الهدايا بعد أن يكسب لهم قضاياهم . وكانت هذه الهدايا تحمل إليه ، ولم تكن يسيرة ولا هينة ، وإنما كانت ضخمة عظيمة الخطر . فهو مثلا قد ترافع عن أهل صقلية حين اتهموا حاكمهم بالاسراف عليهم فى البغى والظلم ، فلما ربح لهم قضيتهم أهدوا إليه سفنا كثيرة قد شحنت قمحاً ، وكانت روما فى حاجة إلى القمح ، وكان سيسرون يرشح نفسه للانتخاب فى منصب من مناصب الدولة ، فما هى إلا أن يوزع القمح على أهل روما وينجح فى الانتخاب . وترافع مرة عن أحد موكليه فأهدى إليه بعد أن ربح القضية خزانة كتب كاملة كان يملكها فى بلاد اليونان ، واحتاج نقلها مما وراء البحر إلى جهد عظيم وعناء كثير . ثم هو كان يزعم أنه رجل شريف فى سيرته السياسية وفى كل ما يتصل بالانتخاب خاصة ، ولكن كتبه تشهد عليه بأن سياسته لم تكن إلا مداورة ومصانعة ، وأنه كان يصطنع من إفساد الانتخاب ، برشوة الناخبين وأخذ أصواتهم بالترغيب مرة وبالترهيب مرة أخرى ، ما كان يصطنعه غيره من المرشحين لمناصب الدولة .

وكان بعد هذا كله ، ينصح فى كتبه وخطبه بالقصد والاعتدال وإيثار الشظف والخشونة . ولكن رسائله الخاصة تشهد عليه بأنه كان مترفا مسرفا فى الترف ، يغلو فى حب المظاهر ، ولا يطمئن إلا إذا نال من مظاهر الثروة والرفعة ما يلائم غروره الذى لاحد له . وكان على هذا كله شجاعاً فى القول جباناً فى السيرة ، يخاف حتى من ظله ، ويتملق رغبة فى التملق وخوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته ، ثم يسخر من هذا كله فى رسائله الخاصة ، لأنه لم يكن يريد إلا أن يحيا ويستمتع بالحياة . وكان يخاصم الحكام المرتشين ويعرضهم للقضاء عليهم بالغرامات . ولكن كتبه تعترف عليه بأنه حين تولى الحكم فى بعض الأقاليم أظهر سيرة حسنة ورفقاً بالرعية ، ولكنه أضمر مكراً وقسوة ،

واستغل منصبه استغلالا منكراً . كل هذه الخصال والآثام تشهد بها الرسائل الخاصة التى أرسلها إلى صديقه أتيكوس ، وقد ارتفعت بينهما الكلفة وزال بينهما الحرج ، فأفضى كل منهما إلى صاحبه بذات نفسه فى غير تحفظ ولا احتياط.

وواضح جدا أن نشر هذه الرسائل بأمر أوكتاف إن قصد به إلى شئ فانما يقصد به إلى الكيد لسيسرون بعد موته ، و إلى الاذاعة التى تُظهر من ثنائه على قيصر وأوكتاف وأنطوان ما كان يخفى ، ليعلم الجمهوريون أنه لم يكن زعيما مخلصاً صادقاً ، و إنما كان طالب منفعة وصاحب رياء .

أما الجزء الثانى من رسائل سيسرون فقد اشترك فى نشره ماركوس بن سيسرون وتيرون مولاه ، وأشرف على عملهما أتيكوس نفسه . وهو يشتمل على رسائله إلى أعضاء أسرته ، وإلى بعض أصدقائه ، وإلى بروتوس منهم خاصة . وفى هذه الكتب ذم أى ذم لأنطوان وتحريض عليه ، وثناء على قيصر وأكتاف ، و إظهار لتلون سيسرون فى السياسة من جهة ، ولضعفه وغفلته من جهة أخرى . فواضح أن نشر هذه الرسائل يؤيد سياسة أو كتاف ويؤلب الناس على أنطوان . وقد نشرت هذه الرسائل بالضبط فى الوقت الذى كان الخصمان فيه يتهيآن للحرب التى انتصر فيها أوكتاف .

وهنا تثار مسألتان خطيرتان : إحداهما تتصل بالتاريخ قبل كل شئ ، وهى إلى أى حد يمكن الاطمئنان إلى هذه النظرية التى تجعل إذاعة هذه الرسائل مظهراً من مظاهر نشر الدعوة السياسية ؟ والجواب على هذا السؤال يسير ولكنه رائع حقا . فقد أظهر الأستاذ كاركويينو أن السياسة الدكتاتورية فى عهد قيصر وابنه أوكتاف ، لم تكن أقل مهارة ولا براعة ولا افتتاناً فى نشر الدعوة من سياسة الدكتاتورية فى العصر الحديث . فقد ابتكر قيصر لأول مرة فى التاريخ ، إنشاء الصحيفة اليومية التى تعلن فى روما وتذاع فى إيطاليا ، وترسل إلى الحكام فى الأقاليم ، ويقرأ الناس فيها الحوادث التى تجدّ فى كل يوم . وبهذه الطريقة ابتكر قيصر السيطرة على العقول من طريق القراءة . ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما ابتكر قيصر كذلك البلاغات الرسمية التى تعلن إلى الناس أنباء الحرب كما تحب الحكومة أن تعلنها . ثم ابتكر الرقابة على ما يقرأ الناس من الكتب فى المكاتب العامة ، فلم يكن يسمح لكتاب أن يعرض للقراءة إلا إذا أقره السطان وأذن بقراءته

ورضى عما فيه . وليس أدل على أن رسائل سيسرون إنما نشرت لاذاعة الدعوة من أن ردود أتيكوس عليها لم تنشر ، ومن أن أتيكوس قد ظفر بالحظوة كل الحظوة عند أوكتاف، حتى أصبح صهراً للأسرة الامبربطورية ، ومن أن ماركوس بن سيسرون قد ظفر بالأمن بعد أن كان طريداً أهدر دمه ، ثم ظفر بالحظوة عند أوكتاف ، حتى بلغ المناصب الرفيعة فى الدولة ، واستمتع بحياة لاهية مترفة كان يحب الفراغ لها أيام أبيه .

أما المسألة الثانية ، فهى إلى أى حد يمكن الاطمئنان إلى أن أتيكوس قد خان صديقه بعد موته على هذا النحو البشع ، وإلى أن ماركوس قد خان أباه بعد موته على هذا النحو البشع أيضاً ؟ فأما أتيكوس فقد رأيت أن مذهبه فى الأخلاق كان يعفيه من إثم هذه الخيانة . فقد كان سيسرون صديقه حين كان حيًّا يرتجى نفعه ويتقى شره ، فأما بعد أن مات ، فقد دخل فى العدم المطلق الذى لا يرتجى من أهله خير ، ولا يتقى منهم شر . وليس على أتيكوس بأس أمام مذهبه الخلقى من أن يخون ميتا ليخدم حيًّا ، هو المستأثر بالسلطان الذى يملك النفع كل النفع والضر كل الضر ، ويتحكم فى حياة الأحياء . وأما ماركوس فقد كان منذ شبابه الأول صاحب مجون ولهو وفراغ ، فهو ضعيف الطبع قصير الهمة ، وهو بعد مدين بحياته لأوكتاف، فكيف إذا أضاف أوكتاف إلى حياته شيئاً غير قليل من الشرف والترف والجاه ! والناس بعد ذلك هم الناس ، فى أكثرهم الضعف والخور والتهالك والأثرة ، وغير هذا كله من الخصال التى تغرى بالمكر والغدر ، وتدفع إلى الخيانة والاثم ، وتورط فى أشياء كثيرة تأباها الأخلاق المكتوبة التى يقررها الفلاسفة ويدعو إليها المصلحون ، وتجيزها السيرة العاملة ، تجاهر بها أحياناً ، وتخافت بها أحياناً أخرى ، وتلتمس لها دائماً ما يقبل وما لا يقبل من التعلات والمعاذير .

أما أنا فقد أنفقت فى قراءة هذا الكتاب أسابيع ، ووجدت فى هذه القراءة فنوناً من الأدب والسياسة والتاريخ وفلسفة الأخلاق . ولم تثر هذه القراءة فى نفسى شماتة بسيسرون ولا رحمة له ولا إشفاقاً عليه . فما يضر الموتى أن يشمت بهم الشامتون ، ولا ينفعهم أن يشفق عليهم المشفقون . وقد كان سيسرون رجلا من معاصريه ، فيه ما فى معاصريه من خصال الخير والشر ، ولكنه

امتاز من معاصريه بتفوق عقله وقلبه ولسانه ، وفرض من أجل ذلك نفسه على الانسانية كلها إلى آخر الدهر .

والمثقفون يقرءون أطرافاً من حياة قيصر وابنه أوكتاف ، ثم لا يلبثون أن ينسوا ما قرءوا . ولكن المدارس والجامعات ستكوّن عقول الصبية والشباب بأدب سيسرون . وليس المهم أن يكون سيسرون رجلا خيراً أو شريراً ، وإنما المهم أن يكون سيسرون قد ترك من الآثار ما ينفع الناس . ثم إن قراءتى لهذا الكتاب لم تثر فى نفسى شيئاً من السخط قليلا أو كثيراً ، على الذين خاصموا سيسرون فى حياته ، أو خانوه بعد موته . فالناس دائما هم الناس ، فيهم شر كثير وخير قليل ، ولم يصلوا بعد ذلك إلى العصر الذهبى الذى يصبحون فيه أخياراً أطهاراً لا يجد الشر إليهم سبيلا . وإنما الذى أرضانى كل الرضا ، وأمتعنى كل الامتاع ، وعزّى نفسى عما تمتلىء به الحياة الواقعة اليومية ، هو التفكير فى هذا الأستاذ الشيخ الذى لم تصرفه الأحداث الخطيرة التى يمتحن بها العالم منذ سنين ، والتى امتحن بها وطنه أعسر الامتحان وأقساه ، والتى امتحن بها هو فى ذات نفسه امتحانا أليماً — لم تصرفه هذه الأحداث عن أن يفرغ لرسائل سيسرون ، فيدرسها هذا الدرس ، ويخرج لنا هذا الكتاب الذى إن صور شيئاً فانما يصور الشجاعة والصبر والجلد والتجرد للعلم الخالص ، والفراغ لاستكشاف الحق من حيث هو حق ، مهما تكن الأحداث والخطوب والظروف . فأما دقة البحث وحسن الاستقصاء وجودة الاستنباط ، فانما هى خصال العلماء . وصاحب هذا الكتاب عالم ممتاز بين العلماء .

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

مشكلة تريستا والبحر الأدرياتى

إذا وقفت عند أترنتو آخر موانى إيطاليا فى أقصى الشرق من الجنوب وسرحت الطرف فى عرض المضيق المعروف باسم هذا الميناء والذى يفصل إيطاليا عن البلقان ، استبانت لك من وراء الأفق البعيد ظلال الجبال المرتفعة الواقعة على الساحل البلقانى بألوانها الجذابة التى تختلط بالسحب فتجعل منها لوحة فنية رائعة الجمال .

ومع أن المسافة التى تفصل جانبى المضيق لاتقل عن ٤٧ كيلو متراً فان السيطرة على هذا المضيق خير منها فى جبل طارق . ذلك لأن مياه البحر فى منطقة البحر الأدرياتى أقل عمقاً ؛ فبينما تستطيع الغواصات اختراق مضيق جبل طارق بسهولة كما أثبتت تجارب الحربين العالميتين ، فان الغواصات المعادية لا تستطيع الافلات من الشباك التى توضع عند مدخل أترنتو .

وليس لمضيق أترنتو أو للبحر الأدرياتى أهمية سياسية تذكر بالقياس إلى أهمية بوابتى البحر المتوسط الشرقية والغربية عند قناة السويس وجبل طارق . ولكن تاريخ العصور الوسطى قد جعل للبحر الأدرياتى شأناً فاق به أهمية البحر المتوسط نفسه . فقد ظهرت مدينة البندقية المشرفة على البحر الأدرياتى من عل واتسع نفوذها وتوثقت الروابط التجارية بينها وبين بلاد المشرق منذ بعيد ؛ فكانت سفنها أول شئ حمل إلى أوربا كنوز الشرق من حرير وجواهر وأبسطة وجلود وعطور وتوابل ، وكانت هذه النفائس تنقل من البندقية إلى فينا وأجزبرج وباريس ومنها إلى بلدان أوربا المختلفة . ومن البندقية قامت جماعات كثيرة من الصليبيين مزودة ببركات البابا ودعواته لانتزاع البقاع المقدسة من أيدى المسلمين ، فكانت سفن البندقية تحملهم فى البحر الأدرياتى وتخترق بهم مضيق أترنتو ثم تتجه بهم شرقاً إلى البلاد المقدسة التى طالما أريقت فى سبيلها الدماء رخيصة من أهل الشرق والغرب جميعاً . وكانت سفن البندقية

أيضاً هى التى تحمل من نجا منهم من الموت لتعود بهم إلى أوطانهم مخذولين فقراء إلا من رضا الله أو من رضا البابا ، وإلا من الذكريات والأحاديث عن الشرق وروائعه .

ولقد أفادت جمهورية البندقية من هذه الرحلات الصليبية وما جرت إليه من مغانم تجارية وفوائد كبيرة ، فجعلت تمد نفوذها على ساحل دلماسيا وجزر الأيونيان وقبرص وبحر إيجة ، حتى صارت لها الزعامة فى الملاحة والتجارة فى البحر المتوسط .' وكانت البندقية تقيم فى كل عام مهرجاناً بحريا مقدساً تحتفل فيه بتفوقها على البحر ؛ فيقدم البابا «للدوق» رئيس حكومة البندقية خاتماً يباركه فيقذفه الدوق أثناء الحفل فى البحر ليكون رمزاً لتوثيق الصلة بين المدينة والبحر ، كما يكون خاتم الخطبة بين الزوجين ، كأنما خطبت البندقية البحر لنفسها وارتبطت إليه برباط الزواج المقدس !

وفى مستهل العصور الحديثة زحف الأتراك غرباً وجعلوا يناهضون نفوذ البندقية . ثم جاءت الاستكشافات الحديثة فى العالم الجديد ، وكان برتلميو دياز البرتغالى قد ساح حول رأس الرجاء الصالح ، وجاء فاسكو دا جاما بعده ووصل عن الطريق نفسه إلى الهند فى نهاية القرن الخامس عشر . فتحول الاهتمام من ذلك الوقت عن البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطى والمحيط الهندى ، وتضاءلت تبعاً لذلك أهمية جمهوريات الموانى الايطالية . وأخذ نفوذ الأتراك يقوى و يمتد فى البلقان وفى البحر المتوسط ، حتى وقفت جيوشهم أمام أسوار فينا ، وأصبح ساحل دلماسيا خاضعاً للنفوذ النمسوى والتركى .

ثم قامت الثورة الفرنسية وظهر نابليون بونابرت ؛ فقاد جيوشه لغزو إيطاليا فانهارت جمهورية البندقية ، وعقد نابليون مع النمسا صلح كامبو فورميو سنة ١٧٩٧ ومن شروط هذا الصلح اتضحت نيات بونابرت وسياسته نحو الشرق ؛ فقد ترك البندقية للنمسا مقابل نزول النمسا لفرنسا عن الأراضى المنخفضة ، والاحتفاظ لفرنسا بجزر الأيونيان عند مدخل البحر الأدرياتى لتتخذ منها فرنسا قواعد تزحف منها نحو الشرق . ولم يكد نابليون يفرغ فعلا من صلح كامبو فورميو حتى سارع باعداد مشروعه العظيم لغزو مصر .

غير أن سلطان فرنسا لم يدم طويلا لا فى مصر ولا فى جزر الأيونيان التى احتلها الانجليز وفقا لقرارات مؤتمر فينا ، ثم نزلت عنها لجورج الأول ملك

اليونان سنة ١٨٦٣ . وبقى التفوق فى البحر الأدرياتى للنمسا التى حلت محل جمهورية البندقية القديمة . وظلت الحال كذلك حتى قامت حركة الوحدة الايطالية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، واحتدم النزاع بين بيدمنت وإيطاليا الحديثة والنمسا . ولم تدخل البندقية فى نطاق الوحدة إلا بعد هزيمة النمسا أمام بروسيا فى سنة ١٨٦٦ فكان ضم البندقية إلى إيطاليا ثمناً لحيدتها فى الحرب . ومنذ ذلك الوقت أصبح التفوق فى البحر الأدرياتى مشتركاً بين النمسا وإيطاليا . وقد كانت إمبراطورية النمسا بالاتحاد مع المجر تملك ساحل دلماسيا وشبه جزيرة أستريا بما فى ذلك موانى تريستا وبولا وفيومى وجزر البحر الأدرياتى . أما إيطاليا فكان لها الساحل الغربى للبحر الأدرياتى ، ولها فى الشمال الغربى ميناء البندقية .

ونشبت الحرب العالمية الأولى ، فأعلنت إيطاليا حيدتها فى أول الأمر رغم ارتباطها بدولتى الوسط بالمحالفة الثلاثية ثم تحولت تدريجيا من الحيدة إلى مؤازرة الحلفاء الذين استمالوها إلى جانبهم بما قدموا لها من مزايا إقليمية مغرية طالما تطلعت إيطاليا إلى تحقيقها . فقد أذن لها الحلفاء بمعاهدة لندن السرية فى سنة ١٩١٥ فى أن تضم إليها بعد كسب الحرب تريستا وشبه جزيرة أستريا ودلماسيا بما فى ذلك جزر البحر الأدرياتى ، كما قرروا حيدة ألبانيا بعد الحرب على أن تمثلها إيطاليا أمام الدول الأجنبية ؛ وبذلك يصبح البحر الأدرياتى بحيرة إيطالية .

ولما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء باتت إيطاليا تترقب تنفيذ المعاهدة بحذافيرها ، ولكن عاملا هامًّا جديداً كان قد ظهر فى الأفق بدخول الولايات المتحدة الحرب فى سنة ١٩١٧ وإعلان الرئيس ولسن مبادئه الأربعة عشر وحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، إذ قال : «إن الأقاليم والشعوب لاتنتقل من يد إلى أخرى أو مملكة إلى أخرى كما لو كانت سلعاً تتساوم بشأنها الدول ، بل تقوم التسويات الاقليمية بين الدول على أساس خير السكان أنفسهم ووفق رغباتهم . » فلما انعقد مؤتمر الصلح فى فرساى أقاموا على أنقاض إمبراطورية النمسا دولا جديدة، منها يوغسلافيا التى جمعت بين الصرب وكرواتيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك والشعب السلوفينى جنوبى المجر ؛ وبذلك أصبح للمملكة الجديدة ساحل دلماسيا شرقى البحر الأدرياتى . وعبثا طالبت إيطاليا

بتنفيذ شروط معاهدة لندن بضم دلماسيا إليها . واحتدم النزاع بين إيطاليا والحلفاء حتى غادر أرلندو المندوب الايطالى مؤتمر الصلح غاضباً وعاد إلى بلاده . غير أن الحلفاء سرعان ما استرضوا إيطاليا بضم إقليم فينزيا جوليا إليها ؛ فأصبحت تريستا إيطالية بعد أن ظلت أكثر من خمسة قرون تابعة لأسرة هابسبرج ، وقد كانت للنمسا كالرئة للجسم ، فجعلت تهتم بشؤونها وتجارتها حتى غطت أهميتها على البندقية وأصبحت سيدة البحر الأدرياتى غير منازعة .

ثم نشأ بين إيطاليا ويوغسلافيا خلاف شديد بشأن ميناء فيومى الذى كان تابعاً للمجر ؛ فقد قرر المؤتمر ضمه إلى يوغسلافيا ، ولكن دننزيو الشاعر الايطالى تطوع على رأس حملة أهلية لاحتلال فيومى وأقام فيها حكومة مؤقتة سنة ١٩١٩ مستنداً إلى كثرة الطليان فى الميناء . وظل النزاع قائماً بين الدولتين بشأنها إلى أن تولى الفاشيون الحكم؛ فعقد مسولينى مع يوغسلافيا اتفاق روما سنة ١٩٢٤ وبمقتضاه أصبحت فيومى وزارا تابعتين لايطاليا ، وأخذت يوغسلافيا ضاحية سوسال القريبة من فيومى . وقد احتفظت إيطاليا بجزر البحر الأدرياتى واتخذتها قواعد ترقب منها أسطول يوغسلافيا وحركاته ، كما كانت فرنسا ترقب من جزيرة قورسقة حركات الأسطول الايطالى . وعلى ذلك أصبحت السيادة فى البحر الأدرياتى بعد الحرب العالمية الأولى موزعة توزيعاً غير عادل بين إيطاليا ويوغسلافيا ؛ إذ كانت القوات اليوغسلافية أمام تفوق إيطاليا محصورة فى البحر الأدرياتى ، كما كان الأسطول الايطالى نفسه كالمحصور فى البحر المتوسط أمام تفوق بريطانيا وفرنسا فيه .

ولقد حاولت إيطاليا فى أول الأمر أن تتقرب من دول البلقان لتسيطر على أسواقها وتتزعم شعوبها ، وعقد مسولينى لهذه الغاية معاهدات صداقة مع حكومات البلقان المختلفة ؛ غير أن السياسة التى سارت عليها تركيا واليونان والتى أفضت إلى تكوين ميثاق البلقان سنة ١٩٣٤ بين دوله الأربع تركيا واليونان ويوغسلافيا ورومانيا، هذه السياسة قد أفسدت على إيطاليا خطتها كما أفسدها أيضاً انحياز يوغسلافيا إلى جانب فرنسا واطراد العلاقات الاقتصادية بين ألمانيا ودول البلقان . لذلك تراجعت إيطاليا وعدلت سياستها نحو البلقان ، واكتفت بأن وثّقت علاقاتها بألبانيا حتى كادت تبتلعها ؛ ثم لم تلبث أن ابتلعتها فعلا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية .

وكان مسولينى عظيم الاهتمام بسواحل البحر الأدرياتى ، ولم يكتف بتحصين ميناء دراج وجزيرة سانيز عند مدخل خليج قولونا بألبانيا ، بل اهتم كذلك بالساحل الغربى وهو بطبيعته ساحل قحل قليل الموانى ، فحصن ميناء برنديزى وأنشأ فى بارى جامعة خصصها لاستقبال الطلاب القاصدين إليها من البلقان ومن بلاد الشرق ، وأقام فيها محطة للاذاعة جعلها مصدراً للدعاية الايطالية ضد بريطانيا فى الشرق العربى . وكانت هذه الدعاية من العواسل التى أوغرت صدر بريطانيا على إيطاليا بعد الحرب العالمية الأخيرة . وقد بلغ من اهتمام مسولينى بهذه المنطقة أنه كان يعقد فيها كل عام مهرجاناً يعرض فيه كل ما يتصل بشؤون الشرق ، وكان يخطب الناس فى هذه المهرجانات ، وقال فى أحدها مرة : إن بارى هى الخاتم الذى يربط بين الشرق والغرب برباط الزواج المقدس . فكأنه بذلك كان يجدد ذكرى الحفل الدينى الذى كانت تقيمه البندقية فى أوج مجدها ويقذف فيه دوقها بالخاتم إلى البحر .

ولما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية كانت إيطاليا تتحكم فى البحر الأدرياتى وكانت قد سطت قبل ذلك على ألبانيا فى صبيحة الجمعة الحزينة من عام ١٩٣٩ فشردت مليكها وحكومتها وضمت البلاد إلى تاج إيطاليا ، فاتخذت منها قنطرة تعبر عليها جيوشها إلى بلاد اليونان . ولكن ذلك الشعب الأبى الصغير لم يلبث أن استرعى إعجاب العالم ببسالته واستماتته فى رد قوات الطاغية ودحرها ، حتى اضطر هتلر إلى المبادرة لنجدة حليفه وإرسال قواته لاختراق البلقان واحتلال اليونان وكريت وبحر إيجة .

ولما كانت قوات المحور فى أول سنى الحرب متفوقة فى الجو بحيث كانت تستطيع من قواعدها فى سردانية وصقلية وليبيا وكريت أن تتحكم فى مياه البحر المتوسط وملاحته ، فقد اعتبر البحر المتوسط مغلقا دون الملاحة ، واضطر الحلفاء إلى تسيير سفنهم إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندى أو البحر الأحمر. وقد استمر مغلقاً إلى قرب نهاية الحرب . على أن الأسطول البريطانى لم يقف عاجزاً أمام الأسطول الايطالى، ولكن الأسطول الأخير لم يكن ليجرؤ على الظهور خارج قواعده ؛ فكان الانجليز يستعينون بالسلاح الجوى فى الانقضاض على السفن الايطالية الحربية فى مخابئها فيحطمونها تحطيماً ؛ وبذلك استطاع الانجليز أن يحملوا الايطاليين خسائر فادحة فى موقعتى ترنتو (نوفمبر سنة ١٩٤٠) جنوبى إيطاليا

وماتبان غربى اليونان (مارس ١٩٤١) على أن هذه الانتصارات لم تؤد إلى فتح البحر المتوسط وتوابعه للملاحة مادامت قوات المحور محتفظة بقواعدها الجوية فى إيطاليا وجزر بحر إيجة .

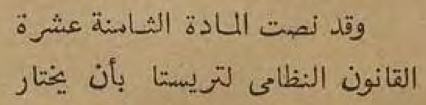
ولما انتهت الحرب تغيرت الأوضاع على سواحل البحر الأدرياتى ، فقامت يوغسلافيا وفى ألبانيا حكومتان سرعان ما قضتا على نظام الملكية فيهما واستندتا فى حكمهما على العناصر التى كانت تقاوم ضد المحور والتى كانت تعتنق المبادئ الشيوعية بمساعدة حكومة اتحاد السوفييت . وقد سارعت القوات اليوغسلافية بزعامة الجنرال تيتو إلى احتلال إقليم فنيزيا جوليا الذى كانت إيطاليا قد ضمته فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وفى مايو سنة ١٩٤٥ دخلت القوات البريطانية الأمريكية ميناء تريستا ، وعلى أثرهم دخل اليوغسلافيون وقد أثاروا بدخولهم ضجة هائلة . وتوترت على أثرها العلاقات بين الحلفاء واليوغسلافيين حتى خيف أن ينشب القتال بينهما فتعيد تريستا سيرة فيومى بعد الحرب العالمية الأولى ؛ ولكن الأزمة لم تلبث طويلا وخضع الميناء لأوامر الحلفاء .

ومن أهم العوامل التى تؤثر اليوم فى ميناء تريستا أن سكانها وسكان المدن والموانى فى إقليم فنيزيا جوليا معظمهم من الطليان والقلة فيها من السلوفين على عكس الحال بين سكان القرى والريف . والطليان فى هذه المنطقة هم أصحاب الأعمال والصناعات الكبرى ، ويشتركون مع أهل البلاد من السلوفين والكروات فى المذهب الكاثوليكى ، ولكنهم على رغم كثرتهم ومكانتهم الاقتصادية ليست لهم فى المنطقة تقاليد أو أصول راسخة ؛ فان معظمهم من النازحين إليها فى طلب الرزق . لذلك كان أكثرهم ممن يعتنقون المبادئ العمالية الاشتراكية ويمقتون النظم الفاشية .

من ذلك يتضح أنه من حيث عدد السكان تعتبر تريستا إيطالية ؛ إذ أن مجموع سكان المنطقة ٣٢٠,٠٠٠ منهم ٢٦٦,٠٠٠ من الايطاليين . غير أنه يبدو أن حاجة يوغسلافيا الاقتصادية إليها أشد من حاجة الطليان الذين يملكون ميناء البندقية على البحر الأدرياتى فضلا عن موانى أخرى كبيرة على البحر المتوسط مثل جنوة ونابولى . ولكن الخلاف الايديولوجى كان فى حقيقة الأمر هو سبب اشتداد الأزمة ؛ فمن وراء يوغسلافيا روسيا وأتباعها ، ومن

وراء إيطاليا بريطانيا وأمريكا . من أجل ذلك لما اجتمع مؤتمر وزراء الخارجية فى العام الماضى وأعيتهم الحيل فى حل هذا المشكل ، رحبوا جميعاً باقتراح فرنسا وهو أن تصبح المنطقة دولية ، وقد حددوا مساحة المنطقة بثلاثين ميلا طولا فى ١٨ ميلا عرضا .

وقد قررت معاهدة الصلح التى أبرمت فى العام الماضى مع إيطاليا النظام الأساسى لمنطقة تريستا الحرة ونص هذا النظام على أن ينتخب مجلس الأمن حاكم المنطقة الذى يستمد سلطته من مجلس الأمن رأساً ، فيكون مسئولا أمامه ، وأن يترك للحاكم أن يدعو الأهالى للانتخاب بعد مضى أربعة أشهر على قيامه بالعمل ، على أن يكون الانتخاب للبرلمان نسبيا ، حتى يستطاع تمثيل جميع الطوائف فيه . وحددت قوات الحلفاء بخمسة آلاف جندى لكل من بريطانيا والولايات المتحدة . وللحاكم أن يقرر بعد تسعين يوما من تسلمه العمل الاستغناء عن قوات الحلفاء إذا أراد ، وله أن يعين أعضاء حكومته المؤقتة من بين أهالى المنطقة بعد التشاور بين الحكومتين الايطالية واليوغسلافية .



منطقة تريستا

وقد نصت المادة الثامنة عشرة القانون النظامى لتريستا بأن يختار للميناء مدير أجنبى لا ينتسب إلى إيطاليا أو يوغسلافيا ، وأن يفضل أهل المنطقة الحرة فى التعيين للوظائف الأخرى . وأن تؤلف لجنة دولية تشرف على المصالح العليا للميناء وتمثل فيها عدا الدول الأربع الكبرى إيطاليا ويوغسلافيا ومنطقة تريستا والدول التى ترتبط مصالحها بالميناء وهى تشكوسلوفاكيا وبولندة والنمسا والمجر وسويسرا ، وتكون رياسة اللجنة لمندوب تريستا وأعضاؤها

يتمتعون بمزايا التمثيل الأجنبى فلا تطبق عليهم قوانين البلاد . وقد أراد الحلفاء بذلك أن تصبح تريستا ميناء دوليا محايداً تفيد منه جميع الدول التى تلامس سواحلها البحر الأدرياتى . أما يوغسلافيا فيكفيها ما ضمته إليها فى نهاية الحرب الأخيرة بالقوة من إيطاليا ، ومن ذلك شبه جزيرة أستريا وميناءى فيومى وبولا وجزر البحر الأدرياتى ، وقد كانت جميعاً تابعة لايطاليا.

وقد انقضى إلى الآن نحو عام والحكومتان الايطالية واليوغسلافية تتفاوضان بتكليف من مجلس الامن بشأن انتخاب حاكم عام للمنطقة ، فلم توفقا إلى شخص ترضاه إيطاليا من جهة ويحوز رضا الاتحاد السوفيتى من جهة أخرى ، ولما أخطر المجلس باخفاق هذه المساعى اقترحت الدول الغربية الثلاث بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا على روسيا أن ترد منطقة تريستا الحرة إلى إيطاليا . وكان ذلك فى نهاية شهر مارس الماضى . ومع أن يوغسلافيا لن تسكت على هذا الاقتراح فان روسيا ستحاول التوفيق بين مطامع صاحبتها يوغسلافيا وآمال الشيوعيين فى إيطاليا وهم على أبواب المعركة الانتخابية التى ستنشب يوم ١٨ أبريل الجارى . وقد تحولت الانتخابات فى إيطاليا أخيراً من ظاهرة وطنية محلية إلى ظاهرة عالمية مذهبية يقف فيها حزب الديمقراطيين المسيحيين ومعه أحزاب اليمين أمام جبهة الاشتراكيين والشيوعيين ، وكأنما المعركة قائمة فى حقيقة الأمر بين الدول الديمقراطية الغربية والدول الشرقية الشيوعية .

وليس فى تطور الأمور على هذه الصورة شيئاً غريباً بعد ما ظهر من نشاط الأحزاب الشيوعية أخيراً فى المجر ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وبعد ماوضح من نيات الولايات المتحدة بشأن تنفيذ مشروع إنهاض أوربا اقتصاديا وهو المعروف بمشروع مارشال الذى أقره الرئيس ترومان فى أوائل شهر أبريل الحالى وأصبح قانوناً تفيد منه دول أوربا الست عشرة اقتصاديا وسياسيا بل وحربيا أيضاً. وكان من حسن طالع إيطاليا أو قل من سوء طالعها أن تقف إيطاليا بحكم موقعها الجغرافى على حافة الجسر بين الكتلتين السلافية والغربية ، وأن تكون تريستا واسطة هذا الاتصال بين الشرق والغرب . ولذلك كان النضال بشأنها عظيما بين اتحاد السوفييت من جهة وبين الدول الغربية الكبرى من جهة أخرى . وكلما اقترب موعد الانتخابات الايطالية العامة حمى التنافس بين الفريقين فى سبيل كسب إيطاليا . فلا عجب أن تتيه إيطاليا اليوم بدلالها على المحبين

من الكتلتين ، وأن يأتيها المدد سريعاً من المعسكرين . فها هى ذى روسيا التى كانت تمنى نفسها عقب الحرب الأخيرة بالوصاية على إحدى مستعمرات إيطاليا القديمة فى جزر الدوديكانيز أو فى طرابلس أو فى إفريقية تعود اليوم وتؤيد إيطاليا فى استرداد بعض مستعمراتها ، بل إنها لا تضن عليها بتريستا نفسها مقابل شروط معينة لمصلحة يوغسلافيا أهمها النزول لها عن جورتزا وهى من النقط الاستراتيجية فى شمال إيطاليا الشرقى. وها هى ذى الدول الغربية الثلاث تقترح على روسيا إعادة منطقة تريستا إلى إيطاليا دون شرط أو قيد مع أنه لم يمض على توقيع معاهدة الصلح سوى عام واحد . وها هو ذا وزير خارجية فرنسا يسارع إلى تورين لمقابلة وزير الخارجية الايطالية ويوقعان معا على اتفاق جمركى وسياسى سيكون أثره حتما أن يوثق الروابط بين البلدين اللاتينيين . ولن يمضى وقت طويل حتى نرى الدول الغربية تقترح قبول إيطاليا فى هيئة الأمم المتحدة . وإذا عارضت روسيا فى قبولها واستخدمت حقها للمرة الثالثة فى نقض القرار أمام مجلس الامن على الرغم مما ظهر من حدبها وعطفها أخيراً على مطالب إيطاليا ، فان المجلس سيضطر إلى إحالة الموضوع على الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة فى اجتماعها المقبل .

فاذا تحققت لايطاليا هذه الغايات جميعاً ودخلت تريستا فى حوزتها ثانياً ، واستطاعت إيطاليا الجديدة أن تكسب صداقة الدول الغربية من جهة ورضا اتحاد السوفييت وصاحباته من جهة أخرى ، فان إيطاليا ستمسك بميزان القوى بين الكتلتين ، وستقف عند تريستا كالديدبان تحرس البوابة الكبرى بين الشرق والغرب ، وهى التى إن فتحت وجدت الشيوعية طريقها إلى الغرب والبحر المتوسط سرباً . فهل تثبت إيطاليا أم يغرقها الطوفان [1] !

محمد رفعت

---

(١) بين كتابة هذا المقال ونشره ظهرت نتيجة الانتخابات الايطالية وهى تدل على فوز كبير للديمقراطيين المسيحيين الذين يناصرون قضية الدول الغربية . أما احتمالات الموقف فلا تزال قائمة .

مرحلتان فى تاريخ مصر العام

لمصر تاريخ طويل يختلف المؤرخون فى تحديد بداءته ، فيجعلها بعضهم فى الألف الخامسة قبل الميلاد ويجعلها بعضهم الآخر فى الألف الرابعة وفى القرن الثالث والثلاثين بالذات ؛ وتميل كثرتهم الآن إلى أن تعتمد التاريخ الأخير . ومع ذلك فمن المسلم به من الجميع أن قيام الأسرة الأولى وظهور الكتابة وبداءة التاريخ المكتوب لا تمثل أول التاريخ فى مصر ، وإنما هى نهاية لعهد طويل من التطور أرسيت خلاله أسس الحياة المادية والاجتماعية فى مصر ، واتخذت تلك الحياة مقوماتها ومظاهرها التى حفظت عليها طابعها المصرى خلال الأعصر اللاحقة . وقد يكون من الحق علينا الآن أن نتحدث عن فجر المدنية المستقرة فى مصر بدلا من أن نتحدث عن أول التاريخ المكتوب . فالكتابة التى يصطلح الناس على أن يبدأ التاريخ بظهورها لم تكن إلا عرضاً أضاف الى الحياة ولكنه لم يغير من أسسها ولم يحوّر من مقوماتها . بل إن الحياة المادية فى العهد الفرعونى الذى عرف المصريون فيه كيف يسجلون تاريخهم لم تكن فى أصولها وأسبابها وطرائقها وغاياتها إلا استمراراً لحياة شعب مصر الذى استقر فى الوادى منذ عرف الناس الزراعة وفلاحة الأرض واستئناس الحيوان ورعيه ، أى منذ العصر الحجرى الحديث . كذلك لم تكن حياة المصريين العقلية والروحية ونزعاتهم فى الذوق والتفكير إلا استمراراً وتجديداً لما كان من حياة أسلافهم فى عهد ما قبل الأسرات . بل إن اتصالات المصريين بالخارج وتبادلهم ألوان الثقافة والفكر مع غيرهم فى الشرق والغرب والجنوب والشمال قد بدأت كلها فى أدوار مختلفة قبل أن يبدأ التاريخ المكتوب. وإذا نحن نظرنا إلى مصر عند قيام الأسرة الأولى فاننا نجد أن المجتمع فيها كان مكتمل الحياة والتطور فى كثير من الوجوه . فالأسس الاقتصادية والمادية قد بلغت حداً كبيراً من الاستقرار والتعقيد ؛ وحياة الناس ومصالحهم

قد ترابطت وتشابكت ، فجمعت بين تخصص الحرف وتكاملها . والنظام الاجتماعى قد تطور فشمل طبقات السكان ، كما اتسع حتى شمل الوطن كله ؛ فهو قد بلغ غايته ، أو كاد يبلغها ، فى العمق والاتساع . والحياة الاجتماعية والدينية للمصريين كانت قد تجاوزت حد الحس والمحسوسات إلى عالم المعنى والمعنويات وما يتصل بها من ثقافة الروح والوجدان . وكذلك الحياة الفنية والثقافية العامة لأبناء وادى النيل الأدنى قد بلغت غاية رفيعة مكنت للفن وثقافة الذوق والنفس من أن تكون جميعاً فى خدمة الروح والدين . بل كذلك الحياة الادارية والسياسية للمصريين قد بلغت حدا استطاع به الفرد أن يلائم بين العصبية الاقليمية وروح الوحدة القومية ، وذلك منتهى ما ترمى إليه الحياة فى أمة من الأمم . والمصريون جميعاً قد صار لهم طابع عام مميز ، جعلهم يحسون كيانهم الخاص الذى يفرق بينهم وبين غيرهم من شعوب الشرق القديم . لذلك كله كان من الحق علينا ألا نقف عند ما اصطلح المؤرخون على أن يسموه أول التاريخ المكتوب ؛ بل نرجع للوراء حتى فجر الحياة المستقرة المتحضرة فى مصر ، أى إلى أواخر الألف السادسة قبل الميلاد . وإذا نحن فعلنا ذلك فاننا نجد أن تاريخ شعب مصر يمتد إلى نحو سبعة آلاف من السنين .

وهذا التاريخ الطويل يمكن أن نقسمه إلى مرحلتين كبيرتين . ونحن إذ نفعل ذلك نتجاوز عن كثير من التفاصيل التاريخية التى يعنى بها المؤرخون أشد العناية أحياناً ، ولكنها مع ذلك قد تطغى على المعالم الكبرى فلا تسمح لغير المؤرخ أن يخرج بصورة واضحة من الاتجاهات الكبرى فى تاريخ مصر . ومع ذلك فنحن سنعالج الموضوع من وجهة نظر ما نسميه بالجغرافيا التاريخية ؛ وهى تلك التى تدرس الصلة المتطورة بين الشعب والبيئة التى يعيش فيها ، والعلاقة الدائمة بين الحوادث التاريخية الجارية والظروف الطبيعية التى تساعد على تكييف تلك الحوادث .

والناظر إلى تاريخ مصر العام يجد أن شعب مصر قد تأثر فى حياته وتاريخه بعوامل كثيرة : أولها ظروف البيئة المحلية ، ومنها النيل والتربة والمناخ وموارد الطبيعة فى أشكالها وصورها المتعددة . ولولا هذه البيئة الغنية السخية ، والتى يتجدد غناها وتتعدد مظاهر سخائها فى كل عام ، ما استطاع

مجتمع مصر أن يحفظ على نفسه حياته المزدهرة خلال أعصر التاريخ الطويل. بل إن البيئة المصرية بصفاتها التى يدرسها الجغرافيون إنما هى إلى حد كبير، سر ما امتازت به حضارة مصر من القدم والازدهار.

وعامل جغرافى آخر هو موقع مصر بالنسبة للبلدان المجاورة فى الشرق القريب وشرق البحر المتوسط وفى شمال إفريقية وشرقها. وقد بدأت اتصالات مصر بتلك البلدان جميعاً منذ أقدم العصور؛ بل منذ بداءة عهد المعدن على وجه التحديد. فكانت مصر على اتصال بالشرق والغرب والجنوب والشمال. وقد أخذت عن تلك الأقطار جميعاً كما أعطتها من عناصر المدنية ومعالم الثقافة. ومع ذلك فقد امتازت صلات مصر بالعالم المجاور بأنها لم تكن صلات طغيان، لا من جانب مصر ولا من جانب ذلك العالم المجاور. والدليل على ذلك أن مصر حين توسعت كان توسعها قائماً على أساس الاحتكاك وتبادل المنفعة؛ فلم تحاول مصر أن تفرض نظم حياتها ولا حتى معالم دينها وثقافتها الدينية أو اللغوية على غيرها من البلدان؛ وإن كانت أثرت فيها كلها وتأثرت بها. وكذلك الحال فيما أصاب مصر من الغزوات التى أتت من بعض هذه البلاد المجاورة؛ فان تلك الغزوات لم تقطع على أرض النيل سبيل الحياة، ولم تطمس معالم المدنية فى مصر بالذات، بل لم تغير اتجاه التاريخ العام فيها تغييراً يمس أسس الحياة ومقوماتها الأولية، كما حدث فى بعض البلدان الأخرى ذات المدنية العريقة، والتى جاءتها غزوات من الخارج فى بعض العهود فدكت معالم تاريخها دكا، كما حدث فى بلد كالعراق القديم، بل كما حدث فى حالة بعض الامبراطوريات القديمة ومنها إمبراطورية روما على سبيل المثال. وغاية ما حدث فى حالة مصر أن الغزوات القديمة والحديثة التى أتتها من البلدان المجاورة لها مباشرة، كشمال بلاد العرب أو جزر اليونان أو شواطئ ليبيا، قد أضافت عناصر جديدة إلى الحياة المصرية، والحياة الثقافية بنوع خاص؛ وكانت هذه الاضافة مما نوّع الحياة فى مصر وزاد فى ألوانها زيادة جددت تاريخ الحضارة والثقافة فى مصر من جهة، وجعلت من أرض مصر موطن حضانة وإنماء لبعض الألوان الأجنبية من الثقافة، كالفكر الأغريقى والفكر العربى الاسلامى، من جهة أخرى.

ثم عامل جغرافى ثالث أثر فى حياة مصر وتاريخها العام، هو موقع مصر

بالنسبة للعالم كله ، عند ملتقى قارات ثلاث هى آسيا وإفريقية وأوربا ، وعند مفرق بحرين قديمين هما البحر الأبيض المتوسط الذى يمتد بمياهه إلى البحار الباردة فى الشمال ، والبحر الأحمر الذى يمتد حتى يتصل بالبحار الدفيئة ومناطقها فى الجنوب . وهذا الموقع الجغرافى كانت له قيمته الكبرى ؛ لأنه جعل من مصر قلب العالم القديم ، وجعلها فى طريق الاتصال بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب . ومع ذلك فان قيمة هذا العامل الجغرافى الحاسم فى تاريخ مصر لم تبدأ إلا بعد أن اتصلت أجزاء العالم بعضها بعض ، وبعد أن عرف الشرق الغرب ، وعرف الشمال الجنوب . والشئ الذى لا يخلو من دلالة أن هذا التعارف الواسع المدى لم يحدث فى صورة مباشرة إلا فى عهد الاسكندر الأكبر الذى كانت حروبه ومخاطراته نقطة تحول خطير فى تاريخ العالم القديم . بل ربما كانت تلك الحروب أخطر ما حدث فى حياة الانسانية القديمة ، من حيث إنه عاصرها وترتب عليها احتكاك الغرب بقلب الشرق احتكاكاً عسكريا مباشراً ؛ أصاب الغربيين والشرقيين عموماً بصدمة عنيفة مباشرة ، هزت مشاعر الناس جميعاً فى ذلك العهد ، وتركت أثرها الدائم والعميق فى قصص الغرب والشرق على السواء ثم ترتب على ذلك التعارف الذى أطمع الغرب فى الشرق حيناً ، وأطمع الشرق فى الغرب حيناً آخر ؛ والذى أقل ما يقال فيه إنه جرى بالصلات والأسباب ، ومهد السبيل إلى أن تتصل التجارة والمواصلات البرية والبحرية المباشرة بين مناطق العالم المختلفة ، مما ترتب عليه آخر الأمر أن برزت قيمة موقع مصر كحلقة اتصال بين الشرق والغرب .

قد لا نغالى كثيراً إذا قلنا إن حروب الاسكندر وما تلاها من احتكاك وتعارف واتصال بين جهات العالم ، بل ما تلاها وترتب عليها من إبراز قيمة موقع مصر الجغرافى ، كانت السبب الأساسى والمباشر فيما نلحظ من اختلاف واضح بين مرحلتين كبيرتين من مراحل تاريخ مصر العام ؛ هما العهد الفرعونى وما سبقه من تطور طويل يمتد إلى العصر الحجرى الحديث ، ثم العهد اللاحق لغزوات الاسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، والذى يمتد خلال تاريخنا الاغريقى الرومانى والعربى الاسلامى ، بل يمتد إلى وقتنا الحاضر. ففى المرحلة الأولى كانت مصر سيدة تاريخها ؛ لم تتأثر فى حياتها إلا بالعوامل

الجغرافية المحلية وظروف البيئة التى تجدد الحياة والتاريخ ، وإلا بظروف موقعها الجغرافى من حيث اتصالها بالعالم المجاور لها مباشرة ؛ فتطغى عليه وتغزوه فى بعض الأحيان كما حدث فى عهود توسع الامبراطورية المصرية الحديثة إلى بلاد الشام ؛ أو يطغى عليها ويغزوها أحياناً ، ويقطع حياتها السياسية القومية خلال فترة قد تقصر أو تطول . أما فى المرحلة الثانية ، أى بعد عهد الاسكندر الأكبر ، فقد تغيرت الحال ، وبرز إلى الوجود ذلك العامل الجغرافى الثالث ، وهو موقع مصر فى طريق المواصلات العالمية . وهذا العامل الثالث أدخل فى حساب التاريخ المصرى قوة العالم كله ، وربط تاريخ مصر وحياتها بظهور فكرة « العالمية » ، وبالقوى المختلفة التى تسعى إلى السيطرة على اتصالات الشرق والغرب ، والتى قد يكون مصدر بعضها قريباً من مصر كما حدث أيام الامبراطورية الرومانية وإمبراطورية العرب ؛ وقد يكون بعضها بعيداً عن مصر كما حدث أيام الحملة الفرنسية وأيام الامبراطورية البريطانية وفى هذا العهد الذى نعيش فيه أو الذى نحاول جاهدين أن نتخلص من أعقابه .

لم يكن ذلك الاختلاف الظاهر الكبير بين هاتين المرحلتين الكبيرتين من تاريخ مصر العام نتيجة مصادفة أو محض اتفاق. بل إنه لم يكن مترتباً على ضعف فى الحياة المصرية أو انحلال فى تكوين شعب مصر ، كما كان يقال إلى عهد قريب . فأرض مصر هى هى الآن كما كانت أيام قدماء المصريين ، وخصبها فى العهد الرومانى أو العربى أو فى العهد الحديث لا يقل كثيراً عن خصبها أيام قدماء المصريين . بل نستطيع أن نقول إن استغلال الأرض فى مصر فى بعض الأعصر اللاحقة بل فى العصر الحديث الذى أدخل فيه الرى الدائم والمحصولات الحديثة إنما هو فى الحقيقة أعلى مرتبة من استغلال تربة مصر ومواردها الزراعية المحلية أيام قدماء المصريين ؛ سواء أكان ذلك من ناحية غلة الأرض أم من ناحية تنوع المحاصيل . كذلك الحال فى شعب مصر ، فقد أضيفت إليه فى العهود الاغريقية والعربية والحديثة عناصر جديدة من الخارج ، جددت دماءه وأضافت إلى تنوع المواهب والملكات فيه ؛ فهى لم تضعفه ولم تنته إلى شئ من الانحلال الذى قد يتحدث عنه بعض الكاتبين . فشعب مصر فى تكوينه الحالى لا يقل قدرة ولا استعداداً عن شعبها أيام الفراعنة ، بل إنه قد يكون أقوى فى تكوينه الحديث من بعض الوجوه .

ولكن الذى حدث فى بعض العهود الحديثة هو أن القوى العالمية أصبحت من الضخامة وشدة البأس بحيث لا تستطيع مصر أن تناظرها بقوتها المحلية . ولذلك فان عامل الموقع الجغرافى العالمى أصبح أبعد تأثيراً فى توجيه تاريخنا العام من عامل القوة المحلية المصرية . وبذلك أفلت زمام التاريخ من مصر، ووقع فى يد أجنبية تسعى إليها وتستغل موقعها وتوجهها فيما ييسر اتصال العالم عن طريق ذلك الموقع ، دون أن تفيد مصر من ذلك الاتصال غير بعض الفائدة العارضة .

ولكننا نخطئ إذ نتصور أن هذا العامل المتصل بموقع مصر الجغرافى كان العامل الوحيد أو الغالب على الدوام فى تاريخ مصر منذ عهد الأسكندر . إذ الواقع أن حياة مصر وتاريخها فى هذه المرحلة كانا متأثرين بالعوامل الثلاثة التى أشرنا إليها : موارد البيئة المحلية ، والموقع الجغرافى المحلى ، والموقع الجغرافى العام . وفى كثير من الأحيان كانت تلك العوامل متداخلة ومتشابكة الأثر . ففى بعض العهود التى عرفت مصر فيها كيف تستغل مواردها المحلية وتوجهها وجهة النفع والخير ، ازدهرت فيها الحياة وزادت قوتها المحلية ، فأصبحت من القوة بحيث تسيطر على العالم المجاور أول الأمر ، ثم تتحكم فى المواصلات العالمية وتفيد من موقعها الجغرافى العام تبعاً لذلك . ومثل هذا حدث أيام البطالمة ؛ وهم قد توسعوا فى استصلاح الأرض وزراعتها وتنويع محصولاتها وغلاتها ، كما توسعوا فى تجارة مصر الخارجية وسيطروا على طرق البحرين الأبيض والأحمر ؛ وعرفت مصر إذ ذاك وبعد ذاك كيف تفيد من موقعها الجغرافى فى التجارة العالمية ، حتى أصبحت مركز الاتصال بين الشرق والغرب ، لا فى التجارة وحدها ، بل كذلك فى الفكر والثقافة ؛ فورثت مجد الاغريق وثقافتهم ، وصارت الاسكندرية بحق منار العلم والمعرفة فى العالم القديم . كذلك حدث مثل هذا فى بعض الأعهد العربية ؛ فاستغل صلاح الدين مثلا موارد مصر وموقعها الجغرافى ، فتوسع فى الأقطار المجاورة من قاعدته الغنية القوية . كما استطاعت مصر أيام المماليك أن تستغل موقعها الجغرافى وأن تفيد منه بحيث أصبحت سيدة التجارة بين الشرق والغرب . وتجددت مثل هذه الحال أو كادت تتجدد فى عهد محمد على ؛ فهو قد بدأ باستغلال موارد البيئة المحلية وتجديد ثروة مصر فى الزراعة والصناعة والتجارة ، وحاولت

مصر فى وقت من الأوقات أن تسيطر على طريق الشرق والغرب ؛ ولكنها — مع الأسف — فقدت بالتدريج قوتها المحلية ، بعد أن تألب عليها العالم الخارجى وقص أجنحتها ، واضطرها إلى أن تنطوى على نفسها ، بعد أن كان محمد على قد اتخذ منها قاعدة سعى منها إلى الأقطار المجاورة . وهكذا انتهى العهد الحديث إلى أن ضعفت مصر بالنسبة للقوى العالمية الخارجية ؛ فطغى العامل الثالث على أثر العاملين الأولين .

بل هكذا نستطيع أن نستخلص أن تاريخ مصر إذا نظر إليه فى جملته ، فاننا نجد أن المرحلة الفرعونية امتازت بأن تاريخ مصر وازدهارها وقوتها كانت متوقفة إلى حد كبير على حسن استغلال المصريين لظروف بيئتهم المحلية ، كما كانت متوقفة على مبلغ توفيقهم فى الاستجابة لظروف تلك البيئة ودوافعها الظاهرة والخفية ؛ وهى بيئة تستلزم ، كما رأينا فى كثير من أحاديثنا السابقة ، تماسك المجتمع ووحدته فى دفع خطر الفيضان المشترك واستدرار منفعة الرى المشترك أيضاً ؛ بل هى بيئة تستدعى العمل الدائب المنظم والتضافر والتكافل بين فئات المجتمع . ولذلك فانه حتى فى العهد الفرعونى كان معيار تقدم المجتمع وازدهار الحياة والمدنية مرتبطاً بمبلغ استمساك المصريين بما تقتضيه بيئتهم من الوحدة والنظام والعمل الدائب . ففى الأدوار التى استمسك المصريون فيها بوحدتهم واستغلال موارد بيئتهم فى داخل أرض الوادى وفى الصحارى المجاورة ؛ وكذلك فى الأدوار التى عرف المصريون كيف يفيدون من موقعهم الجغرافى المحلى ، وكيف يوجهون صلاتهم بالعالم الخارجى وجهة الخير والمنفعة ... فى مثل هذه الأدوار ازدهرت حياة مصر واشتد بأسها وامتد سلطانها ونفوذها ؛ كما حدث فى بعض أطوار التاريخ الفرعونى المعروف . وفى الفترات التى ضعف فيها المجتمع وأهمل فلاحة الأرض ، وأعرض عن الاستمساك بالوحدة الطبيعية الشاملة التى تقتضيها ظروف البيئة ، اضمحلت الحضارة والمجتمع وساد الاقطاع وتنابذت الأقاليم ، فضعفت مصر ، وأطمع ذلك فيها الغزاة القريبين ، فطغوا عليها ، كما حدث فى الفترة بين الدولة القديمة والوسطى أو فى فترة غزوة الهكسوس .

فأما بعد عهد الاسكندر وإلى عهدنا الحديث فقد تعقد تاريخ مصر ، وظهر فيه العامل الثالث ؛ وهو عامل قد لا تكون لمصر فيه يد ، ولكنه

زاد فى التزاماتها نحو نفسها من جهة ، ونحو العالم من جهة أخرى . وقد حاولت مصر فى كثير من عهودها أن تلائم بين ما تقتضيه مصلحتها الخاصة وبين ما يفرضه عليها موقعها الجغرافى فى وسط العالم . ولكنها لم تكن فى كل أدوارها من القوة بحيث تستطيع أن تحقق تلك الملاءمة على وجهها النافع السليم . ولذلك فهى قد تعثرت فى تاريخها أثناء هذه المرحلة اللاحقة ، ولم توفق إلا فى فترات قليلة منها . بل إن كبواتها فى بعض العهود اللاحقة ، كانت أبلغ أثراً مما حدث أثناء كبواتها فى العهد الفرعونى . فقديماً كانت مصر تضعف ؛ ولكن مفتاح النهضة كان بيدها هى دون غيرها . أما فى المرحلة اللاحقة لفتوح الأسكندر فان مصر لم تكن على الدوام سيدة نفسها ؛ حتى فى بعض الحالات التى حاولت فيها أن تخرج بنفسها من الظلمة إلى النور ومن الضعف إلى القوة ، لم يطاوعها العالم الخارجى إلى ذلك ، ولم تملك هى أن تتخذ لنفسها طريق النهضة ؛ لأن قوى أخرى أعظم منها أوصدت أمامها ذلك الطريق .

وعلى ذلك فقد ينفعنا فيما نحن بسبيله الآن من نهضة نحاول أن نخرج بها مما أصابنا به موقعنا الجغرافى من بلاء فى عهدنا الحديث أن نستعرض الحالة على وجهها الصحيح ، وأن نبصر أنفسنا بما قد يكون فينا من عيوب ، وبما قد يقوم من حولنا من قوى عالمية جبارة لا نناظرها ولا نملك دائما أن نوجهها وجهة الخير . فذلك كله أساسى إن نحن أردنا أن نعرف قدرنا كما هو فى عالمنا الحديث .

نحن أمة غنية الموارد سخية البيئة . قد حاولنا خلال هذه الأجيال الثلاثة أو الأربعة المنقضية ، أى منذ عهد محمد على ، أن نجدد مواردنا وطرائق استغلالها ؛ فأدخلنا الرى الدائم ، ونوعنا محاصيل الأرض وغلاتها ؛ وبذلك تضاعفت ثروتنا الزراعية . ومع ذلك فقد تضاعف عدد سكاننا بما يفوق تضاعف الموارد . ولذلك فان غنانا فى الوقت الحاضر ظاهريا أكثر منه فعليا . بل نحن قد نكون فى فقر نسبى إذا قارنا حالنا الآن بما كانت عليه أيام قدماء المصريين ؛ خصوصاً إذا راعينا أن اتجاه اقتصادنا القومى فى العهد الحديث قد سار نحو التوسع الزراعى ولم يلتفت القائمون بأمره نحو استغلال الثروة المعدنية والصناعية التفاتاً جديا ، إلا فى الجيل الأخير . فضلا عن أننا لم ننفرد بهذه

الناحية الأخيرة ، وإنما شاركتنا فيها عناصر ورءوس أموال أجنبية ؛ وذلك كله لم يكن له وجود أيام قدماء المصريين . كذلك نحن شعب قد تكاثرت فيه الدماء وتنوعت بين أفراده الصفات والملكات ؛ فنحن من حيث الاستعداد قد لا نقل عن غيرنا . ومع ذلك فنحن شعب قد تكاثرت عليه المشكلات الاجتماعية والتعليمية والصحية ، وهى مشكلات أتى بها العهد الحديث ، ولم يكن لبعضها وجود فى بعض أعصرنا الخالية ؛ وهى إلى ذلك تضيف حملا ثقيلا ينوء به الشعب وينفق فى سبيل معالجته جهداً قد كان يمكن أن ينفق فى نحو آخر يرتفع بالحياة فوق مستواها الحالى . كذلك لمصر فى الوقت الحاضر موقع جغرافى وارتباطات قوية بالبلدان المجاورة ؛ ولكنها مع ذلك لا تستطيع — أو هى لم تكن لتستطيع حتى هذه السنوات الأخيرة — أن توطد صلاتها بهذا العالم المجاور إلى الحد الذى تفيد منه وتستفيد ، وتنفع وتنتفع . وهى حتى فى جنوب الوادى لا تملك أن تساير طبيعة الأشياء فتتم وحدتها وتستكمل كيانها فى الحدود التى رسمتها الطبيعة لوادى النيل . ثم إن لمصر موقعاً جغرافيا عالميا فريداً ، ولكنها من الضعف والارتباك السياسى بحيث لا تستطيع أن تتحكم فى موقعها بنفسها ، ولا أن تكون سيدة الاتصال بين الشرق والغرب كما كانت فى بعض أعصرها الماضية . وإنما هناك قوى عالمية جبارة لا تملك مصر إلا أن تعترف بوجودها ، وإلا أن تحاول أن تتخلص من ظلها الثقيل بقدر الامكان .

حالنا وحال العالم اليوم إذن غير حالنا وحال العالم فى بعض أعصر تاريخنا القديم . وخير لنا إن نحن أردنا أن نستبين الطريق لهذه الأمة الناهضة فيما هى مقبلة عليه من أيام ... خير لنا أن ننظر إلى الماضى نظرة تجاوز المظاهر والسطحيات إلى الأسس والمقومات فى حياة هذا الشعب وتاريخه الحافل الطويل . ونحن إن فعلنا ذلك فسنرى أن ظروف البيئة والموقع الجغرافى ، وكذلك جهاد هذا الشعب فى استغلال تلك الظروف ، قد كان لها جميعاً أثرها الكبير فى تحديد الاتجاهات الكبرى فى تاريخنا العام . وسنرى بصفة خاصة أن عاملا خطيراً ، هو موقعنا الجغرافى العالمى ، لم تكن قيمته قد تجلت بعدُ فى أيام أجدادنا الفراعنة الأمجاد ؛ وأن هذا العامل إنما ظهرت آثاره كاملة فى المرحلة اللاحقة لفتوح الاسكندر ، عندما غدا ذلك الموقع سلاحاً ذا حدين . ففى الأدوار التى عرفت مصر فيها كيف تستغل مواردها المحلية فى البيئة النيلية

والصحراوية ، وكيف توجه مصادر القوة فى تكويننا الشعبى المنوع السلالة والمواهب والملكات ، وكيف تفيد من موقعها الجغرافى المحلى أو الاقليمى فى توطيد صلاتها بجيرانها فى الشرق القريب وتوجيه تلك الصلات وجهة الخير والفائدة التى تعم الجميع ... فى مثل هذه الأدوار استمسكت مصر بأسباب وحدتها وقوتها ، فتزعمت الشرق القريب فى التجارة والثقافة ، وصارت بحق سيدة تاريخها والمشرفة على مواصلات العالم . وفى الأدوار التى أهملت فيها مصر مواردها المحلية فى البيئة الطبيعية ومكامن القوة فى تكوينها الشعبى ، ولم تعرف كيف تفيد من موقعها الذى يربط بينها وبين أمم الشرق القريب بأوثق الأسباب ... فى هذه الأدوار جاء العامل الجغرافى الثالث ، وهو موقعها العالمى ، وبالاً عليها ، فلم تعرف كيف تفيد منه ، بل طغى عليها العالم الخارجى ، وضاعت مكانتها فى العالم ، وغدت طريقاً وممرا لقوى عالمية جبارة ليس لمصر الضعيفة إلى مناظرتها أو إلى قهرها من سبيل .

أيكون لنا فى مستقبلنا من القوة ما يفتح أمامنا السبيل إلى أن نوجه موقعنا الجغرافى فى وسط العالم وجهة الخير ، فنستعيد بعض ما كان لنا من ماض فى بعض أدوار التاريخ ؟ لعل الشرط الأول لذلك كله أن نعرف قدر بلادنا وقدر أنفسنا ، بل قدر هذا الموقع الفريد الذى سبقنا إلى إدراك قيمته الخطيرة غيرنا من الناس !

سليمان حزين

ليل وصباح ...

سهرت وكان شعاع القمر · ينام ويحلم فوق الغصون
وبت أشاهد ظل الشجر · كأنى أشاهد بعض الظنون
ونام الأنام وحل السهر · لمن أتلفته سبيل الفنون
ومن بات يشكو الأسى والضجر · ومن قاده الحب نحو الفتون
ومن ظل يطاب خير البشر · ومن ألبسوه رداء الجنون

وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف أقضى السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب · وفاضت دموعى وهل تنفع ؟

تطلعت أنظر نور السماء · وسحر النجوم التى تلمع
تسير مدللة فى الفضاء · كدل العرائس إذ ترتع
يجودُ عليها ببعض السناء · مليك وديع الضيا أروع
كريم يفيض بصفو الضياء · وروح الخلود وما تقنع
وصحت أسائل هذا السناء · سلاما وروحا وما يسمع

وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف أقضى السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب · وفاضت دموعى وهل تنفع ؟

تلفتُّ فارتاع بين الضلوع فؤادى الحزين بفرط النحيب
ومن حولى القوم بعض هجوع وبعض حبيب يناجى الحبيب
وبعض يصلى صلاة الخشوع إلى الله يرجو ثواب المنيب
يظل إلى الصبح بين الركوع وبين السجود وما من مجيب
وبعض يكدّ ليفنى الجموع ويحصدهم بالسلاح الغريب
وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف أقضى السنين ؟
فباءت بصمت عميق رهيب وفاضت دموعى وهل تنفع ؟

رجعت لنفسى وقلت لها مثالك يا نفس ما أعظمه
مثال قوى لإنس نها عن الفتك والظلم ما أكرمه
تقدس عن كل ما يشتهى عليم وما ضل من علمه
تقى الضمير قوى النُّهَى سليم التبصر ما أحكمه
فَخابت ظنونى لمّا لها مثالى وأطفأ لى أنجمه
وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف أقضى السنين ؟
فباءت بصمت عميق رهيب وفاضت دموعى وهل تنفع ؟

نجوم وبدر ورقص الشعاع على الماء ينساب بين الهضاب
وخضر المروج وجرد البقاع تبسمن للبدر بين السحاب
وماء الجداول بين الضياع تلألأ مثل لجين مذاب

جمال تخاذل عند الصراع　　جمال سيدلف نحو الخراب
سيفنى ويبقى لدينا التياع　　وحزن عميق لهذا المصاب

وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف أقضى السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب　　وفاضت دموعى وهل تنفع ؟

هنالك شيخ وقور جليل　　لقد مات — ربّاه — موت اللئيم
هنالك طفل وديع جميل　　يعذَّب مثل الشقى الأثيم
وحب شريف وقلب يميل　　إلى الخير يشقى بنار الجحيم
وبغض عنيف وروح ذليل　　وضيع يلاقى حظوظ العظيم
حياة قد امتزجت بالعليل　　من الحق مثل امتزاج القويم

وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف أقضى السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب　　وفاضت دموعى وهل تنفع ؟

وبات خيالى وراء الوهاد　　يطوف ليكشف هذا الوجود
وسِرَّ الحياة ومعنى الجماد　　ومعنى الفناء وسر الخلود
ودنيا الجنون وكنه الرشاد　　وأصل الوفاء ودنيا الجحود
وفى القلب نار وما من رماد　　لديها وما أججت بالوقود
وفى الفكر نور ينير السواد　　قريباً ولا يتعدى الحدود

وناديت يا نفس هل تعلمين

لماذا وكيف أقضى السنين ؟

فباءت بصمت عميق رهيب وفاضت دموعى وهل تنفع ؟

وبعد زمان أطل الصباح كطفل على مهده يبسم

كعذراء بين مروج البطاح تتيه وترقص أو تحلم

كثغر الورود كخد الأقاح على حزن ضاحك ينعم

ونادى المنادى الكفاح الكفاح وداووا به يأسكم تسلموا

فما من سلام وما من نجاح بغير الجهاد فلا تسأموا

وناديت يا نفس هل تعلمين

لماذا وكيف أقضى السنين ؟

فقالت لأجل الخلود الحبيب تعيش وتخلق ما ينفع

ينير دياجى هذا الأجل

جهاد وحب وصدق الأمل

عبد الكريم بن ثابت

LA RECHERCHE DE L'ABSOLU

JEAN-PAUL SARTRE

البحث عن المطلق*

ليس بنا من حاجة لأن نطيل النظر فى وجه جياكومتى البدائى لنتبين منه كبرياءه ورغبته فى أن يعتبر نفسه كأنه فى بداية العالم . فهو يسخر من الثقافة ويهزأ بالتقدم ، وبتقدم الفنون الجميلة على وجه خاص . ولا يعتبر نفسه أكثر ارتقاء من معاصريه المختارين ، رجل إيزيس l'homme des Eyzies ورجل ألتاميرا l'homme d'Altamira ؛ ففى تلك الأيام الأولى الفتية من الطبيعة والبشرية ، لم يكن للجمال أو الدمامة وجود بعد ، كما أن الذوق وأهل الذوق ، والنقد أيضاً ، أمور كانت ماتزال مجهولة :

وللمرة الأولى تخطر لانسان فكرة نحت إنسان فى كتلة من الصخر . ذاك هو الأنموذج : إنه الانسان . وهو ليس دكتاتوراً أو قائداً أو عملاقا ، إنه لا يتمتع بعد بتلك القمم الرفيعة وتلك الزخارف التى سوف تجتذب المثالين فى المستقبل . وما كان الانسان إلا خيالا مبهما غامضاً يسرى فى الأفق . ولكنه يبدو من حركاته أنه يخالف الأشياء : فحركاته صادرة عنه كبداية أولى ، وهى ترسم فى الفضاء مستقبلا خفيفاً : ولابد أن ندركها لا بأسبابها وعللها بل بأغراضها وغاياتها ، فمن التقاط حبة إلى تنحية شوكة . لاتنفصل الحركات بعضها عن بعض البتة كما أنها لا تتركز فى مكان واحد ؛ فأنا أستطيع أن أعزل عن الشجرة ذلك الغصن المتمايل ، أما عن الانسان فليس فى إمكانى أن أعزل ذراعاً ترتفع . . . أو قبضة تنقبض . الانسان يرفع ذراعه ويقبض راحة يده ، الانسان هو الوحدة التى لا تنفصم وهو المصدر المطلق لحركاته . وإلى جانب ذلك هو ساحر باصطناعه الرموز : تتبين الرموز فى شعر رأسه ، وتبرق فى عينيه ، وترقص بين شفتيه ، وتحط على أطراف أصابعه ، وهو يتكلم

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة «الكاتب المصرى» .

بكل جسده : إنه إذا جرى تكلم ، وإذا توقف تكلم ، وإذا غفا كان نومه كلاما . أما الآن فهذه هى المادة : صخرة من الصخور ، مجرد قطعة من الفضاء . ومن الفضاء لابد لجياكومتى أن يصنع إنساناً ؛ ولابد أن يسجل الحركة فى الجمود التام ، وأن يسجل الوحدة فى التعدد غير المتناهى ، والمطلق فى النسبية الخالصة ، والمستقبل فى الحاضر الأبدى ، وثرثرة الرموز فى سكون الأشياء الدائم الملح . وبين المادة والأنموذج يقوم فراغ من العسير ملؤه . ومع ذلك لم يوجد هذا الفراغ إلا لأن جياكومتى قاسه على نفسه . ولست أدرى أمن الحتم أن نرى فيه رجلا يريد أن يفرض ختم رجل على الفضاء ، أو أن يفرض صخرة تحلم حلم البشر ، أو قد يكون هذا وذاك ، وهو الوسيط بين هذا وذاك . إن غرام هذا المثال أن يجعل نفسه كلها مسافة حتى يستطيع أن يخرج من هذه المسافة تمثالا بشريا تاما . إن أفكاراً صخرية تلازمه دائماً . وفى ذات مرة تولاه الهلع من الفراغ ، فقضى شهوراً طويلة يروح ويغدو وإلى جانبه هوة هى الفضاء ، وقد بدأ يدرك فى نفسه عقمه الموئس . وفى مرة أخرى خيل إليه أن الأشياء الفاقدة اللون والحياة لم تعد تلمس الأرض ، فعاش فى عالم طاف ، وقد أقنع نفسه على حساب جسده محتملا أشد العذاب ، أن لا وجود لما نسميه أعلى وأسفل فى الفضاء ، ولا حقيقة لأى اتصال واقعى بين الأشياء ؛ غير أنه فى الوقت نفسه كان يعلم أن مهمة المثال أن ينحت فى شبه الجزيرة ذاك غير المتناهى ، الصورة الكاملة للكائن الواحد الذى يستطيع أن يؤثر فى الكائنات الأخرى . ولست أعرف شخصاً أكثر منه تأثراً بسحر الوجوه وحركات الأيدى . فهو ينظر إليها برغبة وشغف ، كما لو كان من مملكة غير هذه . ولكنه حاول أحياناً ، وقد تملكه اليأس والملل ، أن يحول أبناء جلدته أجساما معدنية . فكان يرى الجماهير تتقدم نحوه وقد غشيها العمى ، تتدحرج على الطرق كالحجارة المنهارة . وهكذا تظل كل ملاحظة من ملاحظاته ، عملا أو تجربة أو طريقة لاختبار الفضاء ، وقد نقول : « إنه لمجنون حقاً ! هاهى ذى ثلاثة آلاف عام انقضت والناس ينحتون — منتجين أطيب إنتاج — من غير ما حاجة إلى كل تلك القصص . لماذا لا يجتهد فى إنشاء آثار خالية من العيب ، طبقا للطرق الفنية المجربة بدلا من أن يتظاهر بانكار من سبقوه ؟ » ذلك أنهم لا ينحتون

منذ ثلاثة آلاف عام إلا جثثا . ويقولون عنها أحياناً إنها راقدة فيمدونها فوق المقابر ، وأحياناً يقعدونها على مقاعد من عاج ، أو يركبونها ظهور الخيل . ولكن فارساً ميتاً فوق جواد ميت ، لايكاد يساوى نصف رجل حى . إنهم لكاذبون أولئك الأشخاص الذين يسكنون المتاحف ، وهم خامدون لا حراك بهم ، بأعينهم البيضاء . تلك الأذرع تدعى الحركة ولكنها تطفو مستندة من أعلاها وأسفلها إلى قضبان من حديد . إن تلك الأشكال الثابتة الجامدة لاتكاد تقوى على ما يبدو فيها من تشتت لا نهائى . إنها مخيلة الناظر ، وقد خدعها تشابه خلو من كل دقة ، هى التى تفيض الحركة والحرارة والحياة على هزال المادة الأبدى . لا بد إذن من الابتداء بادئ ذى بدئ . وبعد ثلاثة آلاف عام ، ليست مهمة جياكومتى والمثالين المعاصرين ملء المتاحف بآثار جديدة ولكن إقامة الدليل على أن فن النحت فن ممكن أن يكون . وإثبات ذلك بالنحت هو فى ذاته برهان على وجود الحركة ، كما أثبتها ديوجين بالمشى . وإثبات ذلك موجه ضد آراء بارمينيد وزينون تماماً كما حاول ديوجين أيضاً . ولا بد من الوصول إلى النهاية ومعرفة ما فى الامكان فعله . فاذا أخفقت المحاولة ، أصبح مستحيلا ، مع أحسن الفروض ، أن نحكم أعنى ذلك إخفاق المثال أم إخفاق النحت ، فيأتى آخرون ويبدءون المحاولة من جديد . وجياكومتى نفسه لا ينقطع البتة عن معاودة محاولاته . ليست المسألة مع ذلك مسألة متوالية لا نهائية ؛ بل يوجد حد ثابت لابد من بلوغه ، ومسألة واحدة لابد من حلها : كيف تصنع من الحجر إنساناً غير متحجر ؟ ذلك هو المطلوب ؛ فان بلغناه كله كان وإلا فلا شئ . وإذا توصلنا إلى حل المسألة كان أمر العدد فى التماثيل غير ذى أهمية . ويقول جياكومتى : « أريد أن أعرف كيف أصنع واحداً فقط ، وأنا كفيل بعد ذلك أن أصنع ألفاً . » فلا تماثيل مطلقاً ما دام لم يفلح ، وإنما مجرد محاولات لايهم أمرها جياكومتى إلا بمقدار ما تساعده على الدنو من غايته . وهو محطم كل ماصنع ليبدأ من جديد . ومن وقت لآخر يفلح بعض الأصدقاء فى إنقاذ رأس أو فتاة أو فتى قبل أن يناله التحطيم . وجياكومتى لا يمانع وإنما يعود ليواصل سعيه . لم يقم لنفسه معرضاً خلال خمسة عشر عاماً . أما ذلك المعرض فقد اضطر إليه اضطراراً إذ لا بد له من العيش ، ولكنه متأثر قلق . وهو يكتب معتذراً : « لقد

تولانى الذعر من البؤس والخوف من الشقاء ؛ لذلك توجد تلك التماثيل على هذه الحال (أى من البرونز ومصورة فوتوغرافيا) ولكنى غير واثق منها تماماً . وقد كانت على أية حال شيئاً مما كنت أبغى ؛ لا تكاد ... »

إن الأمر الذى يضايقه هو أن رسوماً غير مستقرة ، دائماً فى منتصف الطريق بين العدم والوجود ، تتغير دائماً لتتحسن ثم لتهدم وتعاد من جديد، إن تلك الرسوم تأخذ فى الحياة وحدها بالمعنى الصحيح ، وتسلك بعيدة عنه سبيلها فى المجتمع . لسوف ينساها ، فان الوحدة العجيبة التى تتميز بها تلك الحياة تنحصر فى التمسك التام بالبحث عن المطلق .

إن هذا العامل النشيط المثابر العنيد لا يحب الحجر لما يبديه من مقاومة تحد من نشاطه وسرعة حركاته . لقد اختار لنفسه مادة لاوزن لها ، ومن أكثر المواد قابلية للطرق ، وأكثرها استعداداً للفناء ، وأكثرها روحية : الجبس . لا يكاد يشعر به فى أطراف أصابعه ، وهو يمثل الناحية الظهرية من حركاته ، التى لا يمكن لمسها . إن أول ماتراه فى مصنعه دُمًى غريبة الشكل كالفزاعات التى تخوف بها الطيور ، مصنوعة من قشور بيضاء تتجمد حول خيوط طويلة حمراء . وتسقط مغامراته وآراؤه ورغباته وأحلامه لحظة على الأشخاص الجبسية فتعطيها شكلا ثم تذهب ويذهب الشكل معها . وكأن كل غمامة من تلك الغمامات الدائمة التحول صورة لحياة جيا كومتى نفسها مترجمة فى لغة أخرى . إن تماثيل مايول تؤذى العين صراحة بديمومتها الثقيلة غير أن ديمومة الحجر معناها الجمود وعدم الحركة : إنها حاضر ثابت مقيم على الدوام . وجيا كومتى لايتحدث عن الديمومة ولا يفكر فيها البتة . وقد استحسنت منه يوماً قوله عن بعض تماثيل كان قد حطمها : « كنت راضياً عنها ولكنها لم تصنع إلا لتدوم بضع ساعات. » بضع ساعات : كأنها فجر ، كأنها حزن ، كأنها حلم . ولما كانت شخصياته مقضياً عليها أن تموت فى الليلة نفسها التى ولدت فيها ، فهى حقيقة وحدها ، بين كل آثار النحت التى أعرفها ، تحتفظ بالجمال الفريد الذى يبدو على كل ماقضى عليه بالفناء . ولم تكن المادة يوما أقل إشعارا بالخلود منها عند جيا كومتى ، أو أكثر ضعفاً أو أشد ميلا إلى أن تكون إنسانية . إن مادة جيا كومتى ، ذلك الطحين الغريب المذرور ، يغمر شيئاً فشيئاً مصنعه ، ويتسرب تحت أظافره وفى تجاعيد وجهه العميقة ، إنه تراب من الفضاء .

ولكن الفضاء وإن كان أجرد عاريا ، هو بعد فيض وغزارة . إن جيا كومتي ينفر من اللانهاية . ليس من اللانهاية التي تحدث بسكال عنها، أي العظمة اللانهائية ، بل توجد لانهاية أخرى ، أشد مداراة وأكثر اختفاء ، لانهاية تجرى تحت الأصابع وتحت الأقدام ، لانهاية لم يقو أخيلوس على اجتيازها ، وهي اللانهاية التجزيئية . يقول جيا كومتي : « يوجد في الفضاء زيد trop . » وهذا الزيد هو مجرد الموجود المشترك بين أجزاء متراصة بعضها إلى جانب بعض . وقد خدع بذلك معظم المثالين ؛ فقد خلطوا بين سيولة الفضاء وطفافه وبين السخاء والكرم ، فأضافوا الزيد إلى آثارهم ، ووجدوا متعة في الاستدارة السمينة لجانب رخامي ، فبسطوا وكوروا ونفخوا حركة الانسان . ويعرف جيا كومتي أن ليس في الانسان شيء زائد ؛ لأن لكل شيء فيه وظيفة ؛ ويعرف أن الفضاء هو سرطان الكائن ، يقرض كل شيء . فالنحت في نظره هو عملية كحت لازالة السمنة عن الفضاء ، وغايته عصر الفضاء عصراً يصفى منه كل ما علق بخارجه . وقد يبدو أن لا أمل يرجى من تلك المحاولة . وأعتقد أن جيا كومتي كاد يستسلم لليأس مرتين أو ثلاثاً . وإذا كان لابد للنحت من التفصيل والخياطة في مادة جامدة لاتضغط ، فمعنى ذلك أن النحت أمر مستحيل . قال جيا كومتي : « ومع ذلك إذا بدأت تمثالي كما يبدأ غيري ، من أرنبة الأنف ، فليس كثيراً أن أقضي فترة من الزمن غير متناهية لأصل إلى المنخر . » وحينئذ أتم استكشافه .

هاهو ذا جاينميد على قاعدته . إذا سألتني عن المسافة التي يبعد بها عني ، أجبتك أني لا أدرك عن أي شيء تتحدث . هل تعني بجاينميد الفتى الذي خطفه النسر جوبيتر ؟ في هذه الحالة أقول لك ليس بيني وبينه أية علاقة مسافية حقيقية ؛ لأنه (أي الفتى) غير موجود . أم أنت تشير بالعكس إلى كتلة الرخام التي خرطها المثال على صورة الغلام ؟ في هذه الحالة يكون المقصود شيئاً حقيقيا ، ومعدنا موجودا ، وفي استطاعتنا عندئذ أن نقيس الأبعاد . فهم الرسامون ذلك منذ زمن طويل ؛ إذ أن استحالة وجود البعد الثالث في اللوحات يؤدي حتما إلى استحالة وجود البعدين الآخرين . وهكذا تكون المسافة التي تفصل الشخصيات عن عيني مسافة وهمية . وأنا إذا اقتربت إنما أقترب من رقعة اللوحة لامن الشخصيات أنفسها . وحتى إذا لمست اللوحة

بأنفى ، فسأظل أراها على بعد عشرين خطوة منى ، فهى موجودة وسوف توجد دائماً على بعد عشرين خطوة . وهكذا يتخلص التصوير من شكوك زينون : فلو قسمت إلى اثنتين المسافة التى تفصل قدم العذراء عن قدم القديس يوسف ، ثم انقسم كل نصف إلى نصفين آخرين ، وهلم جرا حتى اللانهاية ، لكنت بعملى هذا قد قسمت جزءاً من طول الرقعة لا الأرض التى تقف عليها العذراء والقديس . لم يعترف المثالون بتلك الحقائق الأولية ؛ لأنهم كانوا يعملون فى فضاء ذى أبعاد ثلاثة ، وفى كتلة حقيقية من الرخام . ومهما كانت نتيجة فنهم عبارة عن إنسان وهمى ، كانوا يعتقدون أنهم ينشئونه فى فضاء حقيقى . وكان لخلط الفضاءين هذا نتائج عجيبة : أولها أنهم عندما كانوا ينحتون ناقلين عن الطبيعة ، كانوا بدلا من أن يصوروا مايرون — أى أنموذجا على بعد عشر خطوات — يصورون فى الطين الأنموذج باعتبار ما هو . ولما كانوا يرغبون فعلا فى أن يكون لتمثالهم على الناظر الواقف إلى بعد عشر خطوات منه ، التأثير نفسه الذى كانوا يشعرون به أمام الأنموذج ، كان يبدو لهم منطقيا أن ينشئوا شكلا يكون بالنسبة للناظر ما كان الأنموذج بالنسبة لهم . ولم يكن ذلك ممكنا إلا إذا كان الرخام هنا كما كان الأنموذج هناك . ما هو إذن معنى «باعتبار ما هو» و «هناك» ؟ على بعد عشر خطوات أرى هذه المرأة على صورة ما ؛ فاذا دنوت منها ونظرت عن كثب ، لم أعرفها ؛ فهذه الفتحات وهذه التجويفات وهذه الشقوق ، وتلك الحشائش السوداء الخشنة ، واللمعات الدهنية ، وكل تلك التضاريس القمرية ، لا يمكن بأية حال أن تكون الجلد الناعم الطرى الذى كنت أعجب به وأنا على بعد منها . هل ذلك هو إذن ما يجب على المثال أن يقلده ؟ إنه لايستطيع أن ينتهى منه أبداً . ثم ، مهما كان قريباً من ذلك الوجه ، يمكنه أن يقترب منه أكثر وأكثر . وعلى ذلك لن يشبه التمثال حقيقة الأنموذج نفسه ولا مايراه المثال ؛ وسوف يصنع طبقا لتقاليد معروفة لا تخلو من التناقض ، وتظهر فيه بعض تفاصيل لا يمكن رؤيتها على هذا البعد ، بحجة أنها موجودة ، وبالعكس تهمل بعض تفاصيل هى أيضاً موجودة بحجة أنها لا ترى . وهل لذلك معنى غير أن المثال يعتمد على عين الناظر لتكوين شكل مقبول . ولكن علاقتى فى هذه الحالة بجاينميد تتغير حسب موضعى ؛ إذا اقتربت

اكتشفت تفاصيل كنت أجهلها عن بعد . وها نحن أولاء مسوقون إلى هذه المباينة ، وهى أن لى صلات حقيقية بوهم من الأوهام ؛ أو قل إذا شئت إن بعدى الحقيقى عن كتلة الرخام اختلطت ببعدى الوهمى عن جاينميد . وينتج عن ذلك أن خصائص الفضاء الحقيقى تغطى وتحجب خصائص الفضاء الوهمى : وبوجه الخصوص أن قابلية الرخام الحقيقية للانقسام تهدم عدم قابلية الشخصية له . وهكذا ينتصر الحجر وينتصر زينون بالتالى . والمثَّال التقليدى يعتقد أنه يستطيع أن يقصى نظره الخاص وأن ينحت فى الانسان الطبيعة الانسانية مجردة من الناس ؛ ولكن الواقع أنه لا يدرك ماذا يصنع ؛ إذ أنه لا يفعل ما يرى . وهو فى بحثه عن الحقيقة إنما يقع فى التقاليد . ولما كان فى آخر الأمر يعتمد على عين الناظر فى إحياء هذه التماثيل الجامدة ، فالأمر ينتهى به وهو الباحث عن المطلق بأن يجعل أثره متوقفاً على نسبية وجهات النظر التى تتكون عنه . أما الناظر فيأخذ الوهمى بالحقيقى والحقيقى بالوهمى ، وهو يبحث عن غير المنقسم فيلتقى أينما نظر بالانقسام .

وقد رد جياكومتى إلى التماثيل فضاء وهميا خاليا من التجزئة ، بفضل معارضته للمذهب التقليدى . وهو بقبوله النسبية دفعة واحدة ، قد عثر على المطلق . لأنه كان أول من فكر فى نحت الانسان كما يرى . أى على بعد . وهو يعير شخصياته الجبسية مسافة مطلقة كما يعير الرسام شخصيات لوحته . فينشئ الشكل على « عشر خطوات » أو « عشرين خطوة » ، والشكل باق على هذا البعد مهما فعلت . وبذلك يقفز الشكل إلى منطقة الوهم بما أن العلاقة بينه وبينك لم تعد تتوقف على علاقتك بكتلة الجبس : ويكون الفن حينئذ قد استرد حريته . إن التمثال التقليدى لابد من دراسته : قد تقترب منه وفى كل لحظة تكتشف تفاصيل جديدة ؛ تنعزل الأجزاء فيه ثم أجزاء الأجزاء ، إلى أن يضل الناظر فيها . لا يمكنك أن تقترب من تمثال لجياكومتى . ولا يمكنك أن تأمل أن هذا الصدر سيفتح لك إذا دنوت منه ؛ إنه لن يتغير بل يعتريك وأنت تسير نحوه شعور غريب بأنك تدوس أطراف هذه الأثداء ، إننا نحس بها ونحزرها ، بل ها نحن أولاء نكاد نراها. فلنقترب بعد خطوة ثم خطوتين : إننا ما زلنا نحس بها ؛ ثم لندن خطوة أخرى وإذا بكل شئ يختفى ؛ ولا يبقى إلا انثناءات الجبس : إنك لا تستطيع أن

ترى تلك التماثيل إلا إذا وقفت على مسافة محترمة منها . وكل شئ مع ذلك موجود هنا : بياض صدر ناضج ، واستدارته وارتخاؤه المطاط . كل شئ ما عدا المادة : نظن أننا نرى ونحن على بعد عشرين خطوة ، ولكنا لا نرى سطح الأنسجة الدهنية الممل ، إنما يكتفى الفنان بالاشارة إليه والتلميح به ، والتعبير عنه من غير إظهاره . ونحن ندرك الآن بأية وسيلة استطاع جياكومتى أن يضغط الفضاء ، ولا توجد غير وسيلة واحدة وهى المسافة ؛ فهو يضع المسافة فى متناول يده . إنه يدفع أمام أنظارنا امرأة بعيدة ، وستظل بعيدة ، ومع ذلك نحن نلمسها بأطراف أصابعنا . إن هذا الصدر الذى نتبينه ونرجوه لن ينحسر أبداً : إنه مجرد أمل . إن هذه الأجسام لا تحمل من المادة إلا بمقدار ما توحى إليك الأمل . وقد يقول قائل : « إن ذلك لمستحيل ؛ فليس فى الأمكان أن يرى الشئ نفسه عن كثب وعن بعد فى الوقت نفسه . »

ومن قال إنه الشئ نفسه ؟ إن كتلة الرخام هى القريبة ، أما البعيدة فهى الشخصية المتخيلة . « إذن لا بد على الأقل للمسافة أن تضغط الأبعاد الثلاثة . ولكن العرض والعمق وحدهما يتأثران ، أما الارتفاع فلا يمس . » ذلك أمر حقيقى ، ولكن من الحقيقة أيضاً أن للانسان فى نظر غيره أبعاداً مطلقة ؛ فهو إذا ابتعد لا يصغر ، وإنما صفاته تتركز ، و «هيئته» هى التى تبقى ؛ وإذا اقترب لا يكبر ، وإنما صفاته تنطلق . ولكن لابد من القول بأن نساء جياكومتى ورجاله أشد اقتراباً منا من حيث الارتفاع منهم من حيث العرض ، كما لو كانت قاماتهم تتقدمهم وتسبقهم . غير أن جياكومتى قد مدهم لغرض فى نفسه . لابد أن ندرك فعلا أن هذه الشخصيات التى هى بكاملها كما هى ، لا تفسح لك مجالا لأن تدرسها أو تلاحظها . فبمجرد أن أراها ، أعرفها . إنها تندفق إلى مجال البصر عندى كما تندفق الفكرة فى ذهنى . إن الفكرة وحدها هى التى تتميز بتلك الشفافية المباشرة ؛ إن الفكرة وحدها هى التى تكون فى دفعة واحدة كل ما هى عليه ؛ وهكذا وجد جياكومتى بطريقته حلا لمسألة الوحدة فى التعدد ؛ فقد اكتفى بأن حذف التعدد . إن الجبس والبرونز هما اللذان يقبلان الانقسام ، ولكن هذه المرأة التى تسير لاتقبل الانقسام شأنها شأن الفكرة أو الشعور ؛ ليست بها أجزاء لأنها تسلم نفسها كلها لك مرة واحدة . وفى سبيل إيجاد تعبير حساس لذلك

الوجود النقى ، وذلك التسليم بالنفس ، وذلك الاندفاق الفجائى ، يلجأ جيا كومتى إلى التطويل . إن الحركة الأصلية فى الخليقة ، هذه الحركة اللحظية غير المجزأة ، التى تصورها أحسن تصوير السيقان الطويلة الرفيعة ، تخترق تلك الأجسام ذات المظهر اليونانى ، وترتفع بها نحو السماء . و إنى لأجد فيها أحسن مما أجد فى عملاق بركستيل ، الانسان ، البادئ الأول والمصدر المطلق للحركة . عرف جيا كومتى كيف يضفى على مادته الوحدة الانسانية الوحيدة الحقيقية : وحدة الفعل .

ذلك فيما أظن هو نوع الانقلاب الذى حاول جيا كومتى أن يدخله على فن النحت . كان يعتقد الذين سبقوه أنهم ينحتون الكائن إطلاقا ، غير أن هذا المطلق كان ينقسم إلى مظاهر لانهاية لها . أما جيا كومتى فقد اختار أن ينحت المظهر الراهن ، ثم اتضح له أنه بوساطته يمكنه بلوغ المطلق. إنه يعرض لنا رجالا ونساء سبق أن رأتهم العين ، ولكن ليست عينه هو فحسب. إن تلك الأشكال سبق أن رأتها العين ، كاللغة الأجنبية التى نحاول أن نتعلمها سبق أن تكلمتها الألسن . وكل شكل منها يكشف لنا عن الانسان كما يرى ، كما يبدو لأناس آخرين ، كما يظهر فى وسط من البشر ، ولا كما ذكرت فى أول مقالى للتبسيط ، على بعد عشر خطوات أو عشرين ، بل على بعد إنسان . وكل شكل منها يدلنا على هذه الحقيقة وهى أن الانسان لم يجعل أولا وقبل كل شىء لأن يحمل غيره على رؤيته ، بل الانسان هو الكائن الذى من جوهره أن يوجد من أجل غيره . عند ما أشاهد تلك المرأة المصنوعة من الجبس ، إنما أقابل عليها نظرى أنا الفاتر . من هنا ينتج ماأحس من ضيق لدى رؤيتها . أجد نفسى مضطرا مدفوعا إلى شىء لست أدرى ما هو ولست أدرى من الذى يضطرنى ويدفعنى ، إلى أن أستكشف أنى مضطر إلى النظر ، وأنى أنا الذى أضطر نفسى إليه .

وقد يزيد جيا كومتى أحيانا حيرتنا ، وهو يستشعر لذة فى ذلك ، بوضعه مثلا رأسا بعيداً على جسم قريب ، بحيث لاندرى أين يجب أن نقف أو بمعنى أدق لاندرى كيف نوفق بين الاثنين . ولكن تلك الصور المبهمة تحيرنا حتى من غير ذلك ؛ إذ أنها تتعارض مع أعز ما اعتادته أعيننا . فمن زمن ونحن معتادون أن نرى مخلوقات ناعمة صامتة ، صنعت لتشفينا من داء الجسد :

إن تلك الشخصيات البيتية قد راقبت ألاعيب طفولتنا ؛ وهى فى الحدائق تشهد على أن العالم حصن أمان ليس به أخطار ، وأن أحدا لن يصيبه شىء . وبالفعل لم يصبها شىء إلا أنها ماتت عند مولدها . ولكن هذه الأجسام قد أصابها شىء : أهى صادرة عن مرآة مقعرة أم خارجة من أحد ينابيع الشبوبية أو من أحد معسكرات المعتقلين ؟ ويخيل إلينا من أول نظرة أننا أمام ضحايا بوتشنولد المهزولين . ولكن لانلبث أن نغير رأينا ؛ إن هذه الأشكال الرقيقة المطلقة ترتفع إلى السماء ، وإذا بنا أمام مشاهد أشبه بصعود السيد المسيح أو بانتقال العذراء إلى السماء ؛ وهى ترقص ، بل إنها هى الرقص بنفسه ، إنها مصنوعة من نفس المادة الرقراقة المرهفة التى صنعت منها تلك الأجسام المجيدة التى يراد إخراجها لنا . وفى الوقت الذى تكون فيه عند مرحلة التأمل فى تلك الاندفاعة التصوفية ، إذا بهذه الأجسام النحيفة تونع فلا يعود أمام أعيننا إلا أزهار أرضية . لم تكن هذه الشهيدة إلا امرأة . ولكنها امرأة تماماً كالتى نكاد نلمحها فنتمناها خلسة ، ثم تبتعد وتمر فى خيلاء مضحكة ، كأولئك الفتيات اللائى يعتقدن أن لهن شأنا وينتقلن نهارهن متداعيات متثاقلات على كعوب حذائهن المرتفعة ، ما بين مخادعهن وغرف الزينة . أو تمر بالفظاعة المروعة التى تمر بها ضحايا حريق قددت النار لحومهن ، أو ضحايا جوع . هى امرأة قد أسلمت ثم أعرضت ، تخالها قريبة وتخالها بعيدة ، سمنتها اللذيذة الشهية مهددة بنحافة خفية ، والنحافة البشعة تراودها سمنة ممتعة . هى امرأة معرضة للخطر على وجه الأرض وإن كادت لا تكون على وجه الأرض . وهى تعيش وتروى لنا قصة الجسد العجيبة أى قصتنا نحن إذ أنه كتب لها أن تولد كما كتب لنا .

ولكن جياكومتى مع ذلك غير راض . وهو يستطيع أن يعلن انتصاره فى الحال ؛ فما عليه إلا أن يعزم على ذلك ، ولكنه هيهات أن يعزم . وهو يؤجل قراره من ساعة إلى ساعة ومن يوم إلى يوم . وهو يوشك أحياناً فى بعض الليالى أثناء انهماكه فى العمل ، أن يصيح بالفوز . ولكن ما يكاد الصبح ينبلج حتى يحطم كل شئ . هل يخشى الضيق الذى ينتظره من الجانب الآخر للنصر ، هذا الضيق الذى أعيى هيجل عند ما أتم نظريته بغير حذر ؟ أو ربما كانت هى المادة التى تنتقم ، أو ربما كان هذا الانقسام اللانهائى الذى طرده

من أثره، يعود ثانية ويقف بينه وبين غايته . إن الهدف هناك ، ولابد لبلوغه من الاتقان التام . فها هو ذا قد أنجز شيئاً ، عليه الآن أن يحسنه بعض الشئ . ثم أن يحسنه أيضاً شيئاً بسيطاً . إن أخيل هذا لن يبلغ السلحفاة أبدا ؛ ولابد أن يكون النحات على أية حال الضحية المختارة للمسافة : وإن لم يكن فى أثره فليكن إذن فى حياته . ولكن هناك فارقاً فى الوضع بينه وبيننا على وجه الخصوص . إنه يدرك ماذا كان يريد أن يصنع ونحن لا ندركه . ولكننا لانعرف ماذا صنع وهو لايعرفه . إن هذه التماثيل ما زال أكثر من نصفها جزءا من جسده ، فهو لايستطيع أن يراها . إنه لم يكد ينتهى منها حتى هام يحلم فى نساء أشد نحافة وأمعن طولا وأكثر خفة ، وهو بفضل أثره يدرك المثل الأعلى الذى من أجله يرى ذلك الأثر ناقصا . إنه لن ينتهى منه ؛ ذلك لأن الرجل يشرد دائما بعيدا عما يفعل . ويقول جياكومتى : « عندما أنتهى سوف أكتب وأرسم وأتمتع بوقتى . » ولكنه سوف يأتيه حتفه قبل أن ينجز عمله. من منا على حق أهو أم نحن ؟ هو أولا إذ أن الفنان، كما يقول فنشى ، لا ينبغى أن يكون راضيا . ونحن أيضا وفى آخر الأمر . كان كفكا يريد أن تحرق كتبه عند موته ، وكان ديستويفسكى فى آخر أيامه يفكر فى إتمام كارامازوف . وربما مات كلاهما حانقا : الأول لظنه أنه لم يصنع شيئاً متقنا، والآخر لظنه أنه سيبتعد عن العالم من غير أن يخدشه . ومع ذلك فقد انتصر كل من هذين الكاتبين ، بالرغم من تفكيرهما . وكذلك جياكومتى وهو يعرف ذلك تماما . وهو يتشبث عبثا بتماثيله كالبخيل يتشبث بذهبه . وهو يحاول عبثا الاحتيال على كسب شىء من الوقت ؛ فسوف يدخل إلى مصنعه أناس فينحونه عن طريقهم ، ثم يخرجون حاملين كل آثاره ، حتى الجبس نفسه الذى يغطى الأرض . إنه يعرف ذلك ؛ فهو دائم الحذر كالمطارد . إنه يعلم أنه انتصر وأنه لنا بالرغم منه .

ج . ب . سارتر

نقلها عن الفرنسية الياس نعمان حكيم

من وحى الاسكندرية

على الشاطىء

أتراها علمت أنى أسيرْ فوق هذا الشط وحدى مُتشعّبا
أرسل الآهات من قلب كسير ليس يدرى من جواه مَهْرَبا
وأنادى الموج فى البحر الكبير أين يا موج حبيبى ذهبا
فينوح الموج كالعانى الأسير مغرقاً فى شجوه مضطربا
أنا من حزنى ومن يأسى المرير ما رآنى الموج إلا انتحبا

أتراها علمت أنى هنا ولقد كنت بعيدا منذ حين
عدت للشاطىء مشبوب المنى ثائر الأشواق ، فياض الحنين
فبكى قلبىَ لما أن دنا منه ، وانسابت إلى قلبى الشجون
وتذكرت الذى طاف بنا حينما كنا هنا منذ سنين
لو تلاقينا لطابت موطنا كل دار ، وشدا القلب الحزين

أنت يا أحلام قلبى النائيهْ يا ضياء القلب فى دنيا الظلامْ
اسمعى ألحان قلبى الباكيه فهْى شوق وحنين وهيام
أنت يا أختاه ليلى الثانيه وأنا قيس ، وقلبى مستهام
لست أنسى كلمات حانيه فى رسالاتك أملاها الغرام
إنما أبكى على أياميه إذ أراها تتهاوى كالحطام

خبريني هل تلقيت الكتابا وعلام الصمت يا روح الحياه
أنت قد أورثت أيامى اضطرابا أنت قد أغرقت روحى فى أساه
وملأت القلب يأسا واكتئابا وهو لايشكو ! وهل تجدى الشكاه
فدعى الصمت ؛ فقد ولّت سرابا كل أحلام فؤادى فى هواه
واكتبى ما شئت : لوماً أو عتابا كل لفظ منك فى قلبى صداه

يا منى الروح سلاما فى التنائى من محب هاجه الشوق إليك
لم يزل يذكر أيام اللقاء وهو نشوان الهوى بين يديك
كان يلقاك هنا كل مساء والدجى يحنو عليه وعليك
ونجوم الليل غَيْرَى فى السماء من نجوم أشرقت فى مقلتيك
آه لو تحملنى أيدى الخفاء فأرانى — أينما كنتِ — لديك

اسألى الموج ؛ فعند الموج سرى واسمعى فى همسه لحن شكاتى
واسألى الليل الذى يعرف أمرى فلكم أرسلت فيه زفراتى
أنا لن أنساك مهما طال عمرى كيف أنسى منيتى ... بل أمنياتى
فاجعلى قلبك مشغولا بذكرى إننا نحيا معاً فى الذكريات
واقرئى يا ربة الالهام شعرى تعرفى أسرار قلبى وحياتى

ابراهيم محمد نجا

السيمائية

المنطق اللغوى الجديد

مما يبعث على الحيرة والتأمل أننا نجد فى اللغة العربية مئات الكلمات الاغريقية التى اتخذت مكانة صميمة حتى لا نكاد نتبين أصلها الأجنبى . وظنى أن دولة تدمر ، دولة زينب أوالزباء ، هى الأصل لهذا التغلغل الاغريقى فى لغتنا ؛ لأنها كانت دولة عربية إغريقية .

ونحن نستعمل فى مصر كلمتين : إحداهما تلبس اللباس العربى الصميم وهى سيما أو سيماء ، حتى لنقول عليه سيما الوقار وكأننا ننطق كلاماً عربيا فصيحاً . والمعنى هنا علامة الوقار . ونستعمل كلمة أخرى تلبس اللباس الأجنبى الصريح فنقول السيمافور للنصب العالى الذى ينتهى بعلامة للقطرات على السكك الحديدية ، والمعنى هو حامل العلامة .

والمعاجم العربية تقول السيما هى العلامة ، وكذلك تقول المعاجم الاغريقية . فالأصل إغريقى لا شك فى ذلك .

وقد ظهر علم جديد فى أوربا يسمى السيمائية أى علم العلامات ، وهو علم الكلمات أى العلامات للمعانى من حيث دقة مدلولها المنطقى أو الاجتماعى أو من حيث تطور المعنى ، وما يعتور كل هذا من اضطراب المعنى أو سداده . وكان ميشيل بريال اللغوى الفرنسى أول من تنبه إلى هذا الموضوع وألف فيه قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، وهو الذى اشتق الاسم .

وأول ما نلتفت إليه فى هذا الموضوع ونسلم به أن لكل كلمة مناخاً نشأت وعاشت فيه ؛ لأن معناها كان مألوفاً فى مجتمع معين يحتاج إلى هذا المعنى ويطلبه فى وسائل عيشه وعاداته الاجتماعية . فاذا تغير هذا المجتمع فان معنى الكلمة يضطرب ؛ لأن الحاجات القديمة التى كان يطلبها المجتمع القديم من

هذه الكلمة لم يعد المجتمع الجديد يحس بها ؛ فتحدث من ذلك التباسات واضطرابات لغوية لا تؤدى إلى الفهم الصحيح . وهذا هو ما يحدث عند ما نقرأ كتاباً قديماً فى اللغة العربية مضى على تأليفه ألف سنة أو نحو ذلك . فاننا نجد المؤلف مثلا يستحسن نكتة أدبية لا نرى مغزاها ؛ لأننا بعد ألف سنة قد فقدنا الجوّ الأدبى الذى كان يحيط بهذه النكتة . أو نجد كلمات غيبية أو فلسفية يشق علينا فهمها . ومن هنا كانت الصعوبة فى قراءة ابن رشد أو الفارابى ؛ فان كلا منهما يعالج مشكلات كانت تتصل بمجتمعيهما . وقد زال هذا المجتمع فى أغلبه ؛ ففقدنا نحن أواصر الصلة بيننا وبين معانيه. بل إننا حين نقرأ ديوان شعر للبحترى أو أبى تمام نجد من معانى المديح مثلا ما لا يثير فى نفوسنا حماسة أو إعجاباً ؛ لأن المعانى القديمة قد زالت بزوال المجتمع القديم . فاختلفت القيم والأوزان للمديح والثناء باختلاف المجتمعَين . ولكن هذه الاشكالات يسيرة فى جنب ما نرث من كلمات نضطر إلى استعمالها لأننا لا نجد غيرها ؛ مع أنها من حيث بيئتها الأولى كانت تعنى أشياء لم تعد قائمة فى مجتمعنا . وكل جيل مضطر إلى أن يستعمل الكلمات التى كان يستعملها الجيل السابق مع ما قد يكون بين الجيلين من اختلاف اجتماعى أو اقتصادى يحتاج إلى معان جديدة . ثم تسوء الحال أكثر وأكثر عند ما يضطر جيل يعيش مثلا فى بيئة صناعية متحركة بآلات الانتاج إلى استعمال كلمات نشأت قبل ألف عام فى بيئة زراعية جامدة .

اعتبر الكلمات التى نعبر بها عن العلاقات بين المالكين الزراعيين وحقوقهم وواجباتهم من حيث البيع والشراء والايجار والحدود والحقوق الارتفاقية والعينية والاشتراك فى المحصول ونحو ذلك ، ثم انقل هذه الكلمات للتعبير عن العلاقات بين المالكين المساهمين فى شركة ؛ فانك واجد أن الحقوق والواجبات قد اختلفت ، وأن كثيراً من المعانى القديمة لم يعد يأتلف مع هذا النظام التساهمى . وكذلك الشأن عند ما ننتقل من مزرعة إلى مصنع عصرى ؛ فاننا كثيراً ما ننخدع بالكلمات ، فنأخذ تلك الكلمات التى ألفناها فى المزرعة عن الادخار والتوفير والاجتهاد ، ونحن نأمل الامتلاك بهذه الفضائل أو التوسع فيما نملك بزيادة فى المساحة أو زيادة فى ترقية الانتاج ، ثم ننقل هذه المعانى إلى المصنع ، وننقل مع هذه المعانى عواطف قد أحدثتها

لنا هذه الكلمات بالتربية السابقة ، ثم لا نجد ما يلائمها فى البيئة المصنعية الجديدة .

وكل كلمة تحمل معنى . وهذا المعنى هو بمثابة العادة الذهنية التى تلابسنا طوال حياتنا ما دام هذا المعنى قائماً . وعلى أنه قد يزول أحيانا المجتمع الذى أحدث هذا المعنى واستعمل كلمته ، ولكن العادة الذهنية تبقى وكأنها عاطفة لها قوة لتحريك الفرد أو المجتمع إما للخير وإما للشر ، بل تبقى الكلمة وتحيا حياة ضعيفة برواسب قديمة من معناها السابق .

فمنذ ١٩١٩ نهضت المرأة فى مصر وسفرت وعملت طالبة فى المدرسة أو الجامعة واشتغلت فى المصالح والمصانع . وهذه حال اجتماعية تناقض بلا شك المجتمع القديم الذى سبق ١٩١٩ . ولكن الكلمات الباقية من المجتمع القديم لا تزال حية ، وهى تحط المرأة وتنكر استقلالها وحريتها ومساواتها بالرجل . وهى لذلك توقعنا فى اضطرابات وارتباكات ذهنية خطيرة . ولست فى حاجة إلى ذكر هذه الكلمات لأنها كثيرة مستفيضة .

ومن هنا نفهم أن شيئاً كثيراً من صعوبات الفهم والتفاهم ليس ذهنيا وإنما هو لغوى . أى إن هذه الصعوبات لا تعود إلى ذهن ضعيف ينقصه الفهم ، وإنما تعود إلى كلمات سيئة قد خرجت من بيئتها القديمة ودخلت فى بيئة جديدة . وهذا هو ما نحس عند ما نعجز عن فهم الفارابى أو ابن رشد . وهذا هو ما نحس عند ماتحتد المناقشة بيننا بشأن المرأة وهل يحق لها أن تستحم على الشواطىء أم لا ؛ بل هذا هو ما يحدث عند ما نمارس حرية معينة فى الصحافة أو الخطابة أو العمل فى مجتمع جديد نص دستوره على هذه الحريات جميعاً ، ولكنه استبقى كلمات الاستبداد السابقة وما رافقها من عواطف فى قهر الشعب والتسلط عليه وضرورة إرغامه على الخضوع .

ومن هنا أيضاً نفهم أن الكلمات قد تزيد الذكاء أو تنقصه . أو بتعبير أصح نقول إنها قد تحدّ الذكاء أو تبلّده . وهى ، أى الكلمات ، قد تكون سبباً للجريمة أو سبباً للمرض .

هناك كلمات تثير العقل الراكد وتنبه الذكاء الخامد ، مثل كلمات المروءة ، الشرف ، المجد ، الاستقامة ، الحق ، العدل . فان البليد الذى انحصرت

آفاقه يتنبه بهذه الكلمات وتتسع آفاقه بها . وهو ينتقل بها من شؤونه الحرفية المحدودة إلى شؤون إنسانية عالية . وهو يرتفع بها من ذاته الشخصية الأنانية إلى الذات الاجتماعية العامة . وهناك كلمات أخرى تبلد الذهن وتسفل به إلى درجة الحيوانية ؛ كما نجد فى كلمة شماتة ، أو كما نجد فى الكلمات الجنسية السفلى التى يتنادر بها العامة. فان معانى هذه الكلمات تحدث عواطف تلابسها. ثم هذه العواطف تعين طرازاً سيئاً من السلوك الجنسى بين الزوج وزوجته خاصة وبين الرجل والمرأة عامة .

وهناك كلمات تبعث على الجريمة ؛ كما نجد فى الكلمات عرض ودم وثأر عند القرويين والبدو فى جرجا وقنا ؛ فان هذه الكلمات تثير فى الصبيان قبل الشبان خيال الجريمة ثم عاطفة الجريمة . ومما تجب ملاحظته أن هذه الكلمات الثلاث مع ما لكل منها من جو لغوى قديم لايمكن أن تترجم إلى اللغة الانجليزية . وقد يقال هنا إن هذه الكلمات تعبر عن معان قائمة فى نفوس القرويين والبدو فى جرجا وقنا ، وأن هذه الكلمات نتيجة ، سبب ، لهذه الكلمات . ولو أننا سلمنا بهذا القول لوجب أن نسلم بأن القرويين والبدو فى جرجا وقنا يختلفون بطبيعتهم وغرائزهم عن الانجليز أو عن سكان المنصورة أو طنطا . إنما الحقيقة أن هذه الجرائم هى نتيجة لهذه الكلمات الفاشية فى هاتين المديريتين . وهى كلمات تتذبذب بأنغام عاطفية مثيرة ، وهى تعين طرازاً من السلوك يلازم الحياة . بل هناك كلمات تبعث على المرض . ونعنى المرض النفسى . فاننا نعبر مثلا عن سن النضج والايناع فى المرأة ، حين تشرع فى الارتفاع من الانثوية إلى الانسانية ، بسن اليأس . واليأس هنا كلمة تبعث على القلق والتقلقل ، وهى جديرة باحداث المرض . كما أن كلمات المزاحمة الاقتصادية : هذا ثرى ، هذا مالك ، هذا وجيه ، وهذا فقير ، مسكين ، معدم سيئ الحظ - كل هذه الكلمات تبعث عواطف كريهة من الحسد والبغض ونحوهما مما يحدث أمراضاً نفسية تبدأ بالهم والقلق وقد تنتهى بالجنون.

لكن أعظم ما يُحدث لنا اضطراب الفهم وارتباك المعانى أن الكلمات التى نستعملها إما أن تكون موضوعية لها حقيقة ووجود خارج أنفسنا ، وإما أن تكون ذاتية ليس لها حقيقة أو وجود إلا فى أنفسنا . ونحن نتفق بسهولة على

الكلمات الموضوعية ؛ إذ ليس منا من يختلف على المعانى من هذه الكلمات التالية : حيوان ، نبات ، إنسان ، أرض ، هواء الخ .

ولكننا نختلف كثيراً على المعانى التى تؤديها الكلمات الذاتية ، مثل جميل ، قبيح ، سافل ، عظيم ، عالم ، مثقف ، فاضل الخ .

واللغة ، وكذلك الفهم ، يرقيان بالانتقال من المعنى الذاتى المضطرب إلى المعنى الموضوعى الدقيق ، كما يحدث مثلا عند ما أقول : هذا الرجل ثرى ، فان الثراء هنا كلمة ذاتية تختلف كلنا على معناها . فان الفلاح الأجير يعتقد أن الثراء هو امتلاك بقرة وحمار ونحو عشرة جنيهات ناجزة . والعامل الأجير فى مصنع يعتقد أن الثراء هو امتلاك أتومبيل . ولذلك كانت كلمة ثرى هنا كلمة مضطربة ، كلمة ذاتية . ولكنى أستطيع أن أنقل هذه الذاتية إلى الموضوعية بأن أقول : هذا الرجل يملك عشرة آلاف جنيه بسعر القطع ثلاثة دولارات لكل جنيه .

ومن هنا نفهم أن الأرقام تنقلنا من الذاتية إلى الموضوعية . وهى لذلك لغة العلم أى اللغة الدقيقة التى يحتاج إليها العلم . ولكل منا خارطة نفسية للعالم الذى يرتسم لنا بصورة ذاتية تلابسها عواطف مختلفة . وإنما يفضل أحدنا الآخر بمقدار ما ينقل هذه الصورة من الذاتية إلى الموضوعية ، أى من العاطفة إلى الوجدان والتعقل .

كذلك اللغات تتفاضل بمقدار اعتمادها على كلمات موضوعية دقيقة أو كلمات ذاتية مضطربة . ولذلك نجد رجلا مثل واطسون داعية السيكلوجية السلوكية يقاطع هذه الكلمات : عقل ، نفس ، غريزة ، وجدان ، كامنة ، لأنه يجد أنها كلمات ذاتية . وهو يحاول أن ينتقل منها إلى كلمات موضوعية تؤدى بالأرقام على قدر الامكان .

قد شرحنا إلى هنا مرمى هذا العلم الجديد : السيمائية[١] . وهو أن نقف على أخطاء التفكير التى تبعثها أخطاء التعبير باستعمال كلمات فقدت مناخها الاجتماعى الذى نشأت فيه ، أو باستعمال كلمات سيئة تبعث على الجريمة ، أو باستعمال كلمات ذاتية تضطرب بها المعانى .

الكلمات علامات . والسيمافور هو حامل العلامة الذى يوجه القطرات بالاشارات أو الايماءات .

والسيمائية التطبيقية هي التي تدلنا على اختيار العلامات ، الكلمات ، التي نرشد بها ونوجه ، بحيث تزيد الذكاء حدة ، وترفع العاطفة ، وتعين الأهداف. ولا نكون منطقيين فقط بل سيكلوجيين أيضاً نحاول أن نختار من الكلمات مايحبك الأفكار كما يحبك القفاز اليد ، فلا تكون الكلمة سرجرجة لها حواش وأذناب من المعانى .

وهذا بالطبع ليس مجهود الفرد فقط سواء أكان من رجال الأدب أم من رجال العلم ، ولكنه مجهود القرون . ونحن بهذا المجهود ننتقل من البلاغة القروية التى تعلمناها ،إلى البلاغة السيمائية التى يجب أن ندرسها ونمارسها فى مجتمع القرن العشرين .

قبل نحو ستين سنة أخرج ماكس مولر اللغوى العظيم كتاباً صغيراً قال فيه : إننا لا نستطيع أن نفكر بلا كلمات أو على الأقل إيماءات كما يفعل الأخرس . والكلمة إيماءة أو علامة . وقد أثار هذا الكتاب مناقشات وقتئذ كان مدارها على التفكير هل هو ثمرة الكلمات أم الكلمات ثمرة التفكير. وقد بقيت هذه المشكلة بعيدة عن الحل الحاسم إلى أن جاء واطسون داعية المذهب السلوكى فى السيكلوجية . وهو مذهب ينتهى إلى أن التفكير إنما هو كلمات غير منطوقة أو حديث صامت . أى إن التفكير لايجرى إلا مع حركات صائتة أو صامتة فى عضلات الحنجرة . وإننا بدون هذه الحركات لانستطيع أن نفكر.

وهنا يستطيع القارئ أن يتأمل موقفه العاطفى من السرور أو الخوف ، وأن يسأل : هل نحن نسرّ لأننا نضحك أى نحرك عضلات الصدر أم نحن نضحك لأننا نسر ؟ وهل نحن نفرّ لأننا نخاف أو نخاف لأننا نفرّ ؟ وهل كنا نخاف لو أننا لم نفر ؟ وأخيراً هل نحن نفكر لأننا نتكلم بصوت مجهور أو مهموس أم العكس هو الذى يحدث أى إننا نتكلم لأننا نفكر ؟

الظن الأكبر ، وما زلنا فى مقام الظن ، أن جميع عواطفنا تحتاج إلى حركات فى أعضاء الجسم الداخلية أو الخارجية . ولما كان كل تفكير مهما برئ فى ظاهره يحتاج إلى عاطفة تبعث عليه وتحرك له بعض الأعضاء ، فاننا لانستطيع التفكير بدون الكلمات . وإذن يجب أن نستنتج أن ما نحسبه تفكيراً صامتاً إنما هو فى صميمه كلمات مهموسة لا نسمعها . ومما يدل على هذا أننا عند ما

نفكر فى موضوع يثير العاطفة نجد أننا نتكلم وقد يرتفع صوتنا حتى نسمعه .

وإذن يجب أيضاً أن ننتهى إلى القول بأن التفكير السديد يحتاج إلى كلمات سديدة ، كلمات تحبك المعنى كما يحبك القفاز اليد لا تضيق ولا تتسع ولا تطول ولا تقصر . وإذن كل إهمال للكلمات إنما هو إهمال للتفكير . وكل تجديد فى التفكير يحتاج إلى تجديد فى الكلمات . وأيضاً كل تجميد فى اللغة هو تجميد للتفكير .

الحركة السيمائية هى ثمرة الروح العلمى . فان البيئة الصناعية الجديدة احتاجت إلى العلوم واستغلتها كى تزيد إنتاجها ، وأخذ الروح العلمى يطغى على التفكير البشرى فى مراتبه العالية ويعين قواعد ويرتب أصولا للدقة فى البحث . ولما وجد العلميون أن التراث اللغوى يحفل بكلمات مرجرجة مسيبة غير مقيدة بحدود محبوكة ، عمدوا إلى اللغتين الاغريقية واللاتينية لسك كلمات جديدة تؤدى المعانى العلمية الدقيقة .

وهنا يثب القارئ سائلا : ألست الآن تعترف بأنهم ، أى العلميين ، قد فكروا ثم اختاروا وسكوا الكلمات التى تؤدى المعانى ؟ ألا يثبت هذا القول أن المعنى قد سبق الكلمة ؟

ولكن الاجابة على هذا السؤال هى سؤال آخر هو : ما الذى أرشدهم إلى المعنى الجديد سوى الكلمات القديمة التى فكروا فيها ثم وجدوها غير وافية بتفكيرهم ؟

وهذا الروح العلمى هو الذى يبعث المفكرين على بحث الكلمات من حيث قيمها وأوزانها المنطقية والاجتماعية والسيكلوجية حتى نستطيع استخدامها فى التفكير السليم وفى التوجيه الاجتماعى والمعالجة السيكلوجية .

وعبارة « التوجيه الاجتماعى » تحملنا على ذكر الدعاية والشأن العظيم الذى كان لها فى جميع الأمم المتحاربة فى الحرب الكبرى الماضية . فان الدعاية هى فى النهاية استخدام القوة الاغرائية التى للكلمات . وهنا مكان جديد للبلاغة السيمائية ، وإن لم يكن أسمى أمكنتها ، ستعنى به الحكومات .

ويجب أن يعرف القارئ أولا أننا بهذا الذى قلناه عن السيمائية إنما قد خدشنا السطح فقط ولم نتعمق الموضوع . والموضوع فى صميمه سيكلوجى غايته

الفهم السليم . أو قل الفهم الموضوعى . ويجب أن يعرف القارئ ثانياً أن لكل لغة سيمائيتها ، كما أن لكل لغة نحوها الذى يتميز من النحو فى أية لغة أخرى . ذلك أن كل لغة قد نشأت وشبت وترعرعت وأحياناً شاخت فى مناخ معين لم تعش فيه أية لغة أخرى . وهذا المناخ طبيعى واجتماعى . وهو بهذه المثابة قد أحدث كلمات وعين أسلوباً للكلام هو فى النهاية أسلوب للتفكير . ثم هذا الأسلوب فى التفكير قد عين طرازا للأخلاق والعيش ، إما للخير و إما للشر .

وليس من الشطط أن نقول إن الصينيين مثلا رجعيون لأنهم يتكلمون اللغة الصينية ، كلمات ورثوها منذ ألفى سنة تحمل معانى رجعية وتعين سلوكا رجعياً فى الحياة . كما أن الفرنسيين مثلا عصريون لأنهم يتكلمون اللغة الفرنسية ، كلمات جددوها تحمل معانى عصرية وتعين سلوكا عصريا فى الحياة . وقس على هذا لغتنا ولغات الأمم الأخرى .

سلامه موسى

سافو نارولا

من المظاهر العجيبة التى تبدأ بها النهضة ، ويبدأ بها استيقاظ الشعوب ، ظهور رجال فى مختلف مناحى الحياة ، فى فترة معلومة ،لا يكون هؤلاء الرجال بالطبيعة من فكر واحد ومن مشرب واحد ، ولو كانوا يشتغلون بفن أو علم واحد ، وإنما تجمّعهم وتلاطم آرائهم ونظرياتهم هو الذى يخلف أثراً فى الحياة ويوجد نشاطاً تهب منه النهضة . والمتتبع لتاريخ النهضات يجد هذا المظهر واضحاً بيناً . فالنهضة الأوربية التى عمت إيطاليا فى القرن الخامس عشر وانتقلت منها إلى البلاد الأوربية الأخرى تميزت بظهور مثل هؤلاء الرجال الأفذاذ ، كما تميزت أزمان الثورة الفرنسية . وكأن هؤلاء الرجال نموا من الأرض الايطالية ، وظهروا فجأة فى جميع المدن التى كانت عندئذ عواصم لدويلاتها العديدة المتنافرة ، كما تنمو الأشجار من باطن الأرض .

لقد قيل إن النهضة الأوربية الحديثة ، وهى وليدة تلك النهضة التى عرفتها إيطاليا فى القرن الخامس عشر ، قد نشأت عن أسباب أهمها سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك المسلمين ، وفرار علمائها بما كان بين أيديهم من آثار الفكر اليونانى إلى البلاد الايطالية . قد يكون هذا القول صحيحاً فى جانب منه ، ولكن المبالغة فيه قد لا تكون صحيحة . وقد فر حقيقة علماء من مدينة القسطنطينية ، وفروا بخزائن كتبهم وعلمهم الذى تلقنوه عن اليونان . ولكن هل كانوا يحدثون نهضة لو لم تكن العقول فى البلاد الايطالية متهيئة لاستقبال ما يأتون به من علم وفن ؟ الواقع أن التفكير فى الماضى المجيد لم ينقطع من أرض إيطاليا ، وكان هنالك رجال يتألمون للمجد الزائل ويعملون للاحتفاظ بالتراث القديم ، ولكنهم كانوا متناثرين فى مختلف البلاد ، فلا يكاد يظهر لجهودهم أثر لأن البلاد كانت قد توزعت وأصبحت نهباً فى أيدى الطامعين . غير أن الأرض الايطالية صارت فجأة خصبة بالرجال قبل عصر

النهضة بقرن أو قرنين ، أى قبل فرار العلماء من القسطنطينية ؛ اذ برز جمع من الرجال الممتازين فى القرن الثالث عشر . وهل نحتاج للتدليل على صحة هذا القول إلى ذكر دانتى الشاعر الايطالى الذى نشأ وعاش فى مدينة فلورنسا فى القرن الثالث عشر وصار شاعراً لجميع الأزمان التالية ؟ وهل نذكر بطلا خياليا كنقولا دى رينزو ذلك الذى أراد فى القرن الرابع عشر أن يعود بروما وبايطاليا إلى سالف مجدها فى عصر الرومان ، وقد استطاع أن يحقق حلمه ولو لمدة قصيرة ؟ هل نذكر كبار الفنانين من مصورين ومثالين عرفتهم إيطاليا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر من أمثال جيوتو وبيزانو ؟ يكفى أن نقول إن أرض إيطاليا أخذت تنبت الرجال فى مختلف المدن والدويلات من النوع الذى يترك ذكرى مرسومة على وجه الأرض ، ثم تتابع هؤلاء الرجال وتشعبت آراؤهم وتلاطمت مجهوداتهم فكانت النهضة .

ظل يحتفظ لايطاليا ببريق من مجدها السالف ، بعد انهيار الامبراطورية الرومانية ، هيئتان : إحداهما حقيقة والأخرى خيال . فالأولى وهى الحقيقة ، هى الكنيسة الكاثوليكية التى تتمثل فى البابا وكرادلته وسيطرته الدنيوية والدينية . والثانية وهى الخيال ، هى سلطة الامبراطور الرومانى الذى أوجدته الكنيسة ، وهو لا يمت إلى أرض إيطاليا بشئ ، بل هو فى الحقيقة عاهل ألمانى تعترف له الكنيسة بسيطرة اسمية على إيطاليا لمجرد قوته وتفوقه فى الأداة الحربية التى كانت معروفة عندئذ .

وقد مضت على إيطاليا دهور وقرون فى النزاع بين هاتين السلطتين : سلطة البابوية الحقيقية فى إيطاليا بصفة خاصة وتمتد روحانيا إلى جميع البلاد المسيحية ، وسلطة الامبراطور التى يمنحها إياه البابا أو يضطر إلى منحها ، ولا يؤيدها فى الحقيقة غير القوة وليس لها من سند قانونى إلا الخيال .

وكان تطاحن هاتين السلطتين عادة على أرض إيطاليا ، وكانت الغلبة تتداول بين الفريقين ؛ ولكن النصر فيما أعتقد كان يرجح دائماً كفة السلطة الثابتة الباقية وهى سلطة البابوية . على أنه كان من نتيجة هذا التطاحن ضعف السلطتين وخروج كثيرين من الأقوياء ومن المفكرين عليهما ، وانتهى الأمر إلى ما أسلفنا من انقسام إيطاليا إلى تلك الدويلات الصغيرة المختلفة المتنافرة

وسن بزوغ التفكير الحر الذى لا يتقيد كثيراً بأوامر إمبراطور أو كنيسة .

ومما لا ريب فيه أن روما فى تلك العصور التى أشرنا إليها والتى أخذت تظهر فيها بشائر النهضة كانت مطمح أنظار العالم ؛ بيد أننا لا نستطيع أن نقول إنها البلد الذى قامت فيه نهضة إيطاليا ، بل ربما كانت روما بمركزها العتيد بوصفها مقرا لحكم البابا ، أقرب إلى المحافظة على القديم من غيرها من الدويلات الايطالية . ولا تتمثل النهضة الايطالية فى مدينة البندقية مع بعدها كل البعد عن بلاط روما ، واتصال أبنائها بجهات العالم أجمع ، وما كان لها من أسطول تجارى واسع ومعاملات مع مختلف الأقطار ؛ فان البندقية كانت تهتم بالتجارة والمعاملات التى تدر مالاً أكثر من اهتمامها بالنزعات الفكرية ؛ فهى تضع المال فى المرتبة الأولى ونتاج الفكر فى المرتبة الثانية . وإنما تتمثل النهضة حقا بأجلى مظاهرها فى بلد صغير فى وسط إيطاليا كان مركزاً لدويلة صغيرة ولكنها دويلة قوية بنظامها ورجالها الذين نبغوا فى مختلف العلوم والفنون ، وهذا البلد هو مدينة فلورنسا .

كانت مدينة فلورنسا بنظامها قابلة لأن تكون مركزاً للنهضة . فنظامها فيه شئ كبير من الحرية ، وأبناؤها غُيُر على مجدها يحبون أن تكون مدينتهم خير المدن فى العالم . ولسنا نريد أن نعرض لوصف نظام الحكم فى فلورنسا ؛ فانك تجد له شرحاً وافياً فى الكتاب الذى أثار موضوع هذا المقال وظهر حديثاً فى عالم المطبوعات العربية [١] ، ولكن يكفى أن نقول إن هذا النظام الجمهورى كان بديعاً إذا لاحظنا العصر الذى وجد فيه ، وكانت الأسر فى مدينة فلورنسا تتنافس فى تشجيع الفنون والآداب وهى بثرائها كانت تستطيع أن تفعل كثيراً .

وكانت أبرز أسرة فى ذلك العصر أسرة مديتشى ، وهى أسرة عريقة استطاعت فى قرون أن تكون لها الصدارة على الأسر الأخرى بثرائها ؛ إذ كانت تعمل فى التجارة وتمتهن الأعمال المصرفية ، واستطاع زعيمها فى أواخر القرن الرابع عشر أن يكون المسيطر على الأمور فى مدينة فلورنسا ، إلا أنه كان بعيد النظر حكيما فأبى أن يمس النظام الجمهورى واتخذه وسيلة للحكم ، فكان الحاكم المتصرف فى

---

(١) «سافونارولا» تأليف الدكتور حسن عثمان ، أصدرته دار الكاتب المصرى ، فى مارس ١٩٤٨ .

ثوب الزعيم الذى ليس له من الأمر شئ . وعندما توفى كوزيمودى مديتشى حاول خصومه من زعماء الأسر الأخرى أن ينحوا أبناءه ، ولكن لورنزو استطاع أن يحل محل أبيه فى الزعامة ، وهو الرجل الذى ترك اسما مخلداً فى مجال الآداب والفنون ، وجعل من فلورنسا قبلة يقصدها كل من يريد الاتصال بالحياة الفكرية . وكان لورنزو حر التفكير ، أقبل على التراث اليونانى والرومانى فى نهم، حتى اتهم فى دينه وحتى ظنت به الظنون وهو لا يبالى ؛ فكانت حياته أقرب إلى الحياة التى كان يحياها المترفون فى عصر اليونان والرومان فى الأزمان الوثنية. وكان يبذل النفيس فى سبيل اقتناء الكتب القديمة ، ويشجع على الترجمة والنقل. وقد وجد العلماء الذين فروا من القسطنطينية منه ترحيباً ، وصار قصره بمثابة أكاديمية تلقى فيها المحاضرات فى شتى العلوم القديمة ويحضرها الشبان والرجال ويناقشون ما جاء فى هذه المحاضرات من آراء جديدة .

ولا نريد أن نسترسل فى وصف عصر لورنزو دى مديتشى ؛ فهو عصر يشار إليه كلما تكلمنا عن النهضة الأوربية .

ومع ذلك ظل لورنزو محتفظاً بخضوعه الظاهر لتعاليم الكنيسة وكان يخشى غضب البابا عليه ، وعند ما حضرته الوفاة وهو فى الرابعة والأربعين من عمره دعا إليه راهباً ليعترف له بآثامه حتى يستطيع بالاعتراف أن يمحو هذه الخطايا . وأرسل فى طلب راهب شاب كان قد أخذ يشتهر بين الناس فى فلورنسا بحماسته الدينية ، وهو شاب من أهل مدينة فرارا ولكنه انتقل إلى دير الرهبان من مذهب الدومينكيين فى فلورنسا وهو دير سان ماركو ، وكان هذا الشاب مخلصاً فى دينه وجريئاً .

ودخل الشاب على الرجل العظيم ، واعترف له العظيم بذنوبه . وهنا اختلفت الرواية ؛ فيقال إن الراهب الجرئ عنفه تعنيفاً شديداً وأبى أن يستغفر له عن خطاياه . ويقال إنه استغفر له بعد هذا التعنيف وفى كلتا الحالتين كانت جرأة لا يقدم عليها إلا شاب مخلص لدينه لا يهمه بأس العظماء ، كما كان وقتئذ وكما بقى دائماً ، جاكوسو سافونارولا .

كان سافونارولا فى الأربعين عندما دعى ليزور لورنزو عظيم فلورنسا وهو على سرير الموت ، وقد طارت له شهرة فى تلك المدينة العابثة وفى وسط عظمائها

المنغمسين فى اللذات بالتقى والصلاح ، ولكنه لم يكن اشتهر بما اشتهر به فيما بعد من تملك الأفئدة والتسلط على الأذهان بسحر كلامه فى المواعظ التى يلقيها . والحقيقة أن سافونارولا لم يكن خطيباً مفوهاً ولم يكن حسن البيان بليغ العبارة ، بل لم يلحظ المستمعون إلى مواعظه فى تلك الأيام فى قوله ما يميزه على أى واعظ من الوعاظ العديدين فى الكنائس الأخرى ، بل ربما كان أقل من غيره بياناً ، وإنما كان يسلك فى مواعظه مسلكاً لم يك يومئذ مألوفاً ؛ فقد ألف الفلورنسيون أن يكون الخطيب ، حتى الخطيب الواعظ فى الكنائس ، مطلعاً على الشعر القديم من آثار اليونان والرومان . فكان الواعظ يقلد القدماء من الخطباء ولا يأنف أن يقول شعراً أثناء موعظته ، ولا أن يضحك السامعين بنكاته ولعبه بالألفاظ . فكان الفلورنسيون ينتظرون فى الكنيسة مثل ما ينتظرون فى دور المسارح حديثاً عذباً فيه رنين وفيه فكاهة ؛ فلا يجمل بأهل فلورنسا المتمدنين أن يغشوا الكنائس فيسمعوا تأنيباً على الذنوب وتهديداً بالعقاب ، فوعاظهم رجال من بنى عمومتهم يقومون بالوعظ على أنه مهنة يراد بها تذكير الفلورنسيين بديانتهم كى يكون للكنيسة نصيب من دنياهم .

ولكن الراهب سافونارولا كان رجلا من طراز آخر ، رجلا قوى الاعتقاد بالدين شديد الحماسة فى حمل النفوس على الاستمساك بالفضيلة ولم يكن يتألق فى عباراته ، بل تجد فى مواعظه خشونة قد تتحول فى بعض الأحيان إلى عنف . على أن أكثر ما أثر فى جمهوره هو حماسته الدينية .

لسنا نريد أن نعرض لحياته تفصيلا ، ولا أن نذكر كيف استولى على عقول أهل فلورنسا ، وإنما نريد أن نذكر أنه استطاع تدريجياً أن يجد السبيل إلى قلوب سامعيه . فكان أهل المدينة يتقاطرون على مواعظه ، وكانت كلماته تؤثر فيهم فيذرفون الدمع غزيرا . وبدأ ينذرهم ويطلب إليهم أن يقلعوا عن مظاهر الحياة الدنيا ، وأن يتركوا ما انغمسوا فيه من ملذات ، ويتوعدهم بالعقاب إن هم استمروا فى لهوهم ، وأخذ القوم يستمعون إليه وتتفتح أذهانهم لمواعظه . ولم تمض سنوات حتى صار سافونارولا أهم رجل فى مدينة فلورنسا . وكان من خصائص وعظه أنه كان يتكهن بما يدبره المستقبل للمدينة وللمدن الايطالية ، وبكوارث تحل بها . وحدث فعلا أن تعقدت الأمور فى إيطاليا

وتحققت تكهناته ، وزاد اعتقاد الناس به وطارت له شهرة فى أنحاء البلاد الايطالية .

وجاء وقت صار حكام المدينة يأتمرون بأمر سافونارولا ؛ فهو بين سنتى ١٤٩٤ ، ١٤٩٨ كان هو الحاكم الحقيقى للمدينة والمسيطر على أمورها ؛ كل ذلك كان بسحر كلامه البعيد عن التنميق ، الخشن فى اللفظ والعبارة ، الملئ بالتهديد والوعيد ، المعتمد على التكهنات وما توحيه الأحلام .

كيف كانت الخطوات التى سيطر بها سافونارولا على أهل فلورنسا ؟ ذلك ما نستطيع أن نقرأه فى تاريخه . على أنه يتعين علينا أن نكون على ثقة من أمر واحد ، هو أن هذا الرجل كان مسوقاً بأنبل العواطف ؛ فهو كما أشرنا أكثر من مرة لم يكن خلاباً بجمال العبارات وحلاوة الأسلوب ، وإنما كان خلاباً بحماسته ويقينه . وانقادت له فلورنسا ونبذت ما كانت عليه من انكباب على الملذات ، وانقلبت تقية تتحلى بالفضائل ، أو على الأقل تظهر بمظهر ذى الفضيلة . ولكن العجيب فى الأمر أن يتأثر الناس بهذا الراهب حتى يستشيروه فى كل أمر من أمور دنياهم ودينهم ، ويأخذوا برأيه فى تصريف أمور الحكم ؛ وهو يشير عليهم حتى فى هذه الأمور بدافع من ماذا ؟ من تجربته ؟ لا ! بل من تأثير الأحلام والرؤى .

ومع ذلك لم يكن الراهب رجلا مشعوذاً ولا رجلا مخبولا ، وإنما كان حسن الرأى فى أكثر الأمور . وقد بدت على مدينة فلورنسا فى ظل مشورته ، إن لم نقل حكمه ، مسحة من الوقار كان من الواجب أن يعجب بها رجال الدين ، وكان من الواجب أن يغتبط لها البابا رأس الكنيسة . ولكن لا هؤلاء ولا ذاك ارتاحوا لما بلغه الراهب من مركز بين أهل المدينة التى اتخذها مقاماً .

لم يرتح رجال الدين لمنزلة سافونارولا لأنه جذب أهل المدينة إليه فلم يعودوا يستمعون لغيره من الوعاظ ، وصار أهل المدينة يفضلون رهبان كنيسة سان ماركو على غيرهم . وقد اصطبغت المدينة بصبغة الجد ، فلم تبق هناك سوق لأولئك الرهبان الذين كانوا يغشون دور العظماء ليرتزقوا منهم . ولذلك أخذت نفوس هؤلاء الرهبان تمتلئ حقداً على الراهب الذى سيطر على المدينة ، وكان قد بلغ وقتئذ مرتبة رئيس الرهبان فى دير سان ماركو .

أما البابا ، فذلك له شأن آخر وقصة أخرى .

قد يكون من أكبر الدلائل على ثبات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية واستقرارها على الدهر ، أن تولى عرشها رجال من أمثال إسكندر الثالث ويوليوس الثانى وليون العاشر فى عهد النهضة الايطالية . ففى تلك الأيام نزع أكثر الناس ، لا سيما المتعلمون ، أمور الدين وأخذوا بأسباب الدنيا ، فأغرق فى ذلك فريق أعجبوا بآثار اليونان والرومان ، فأرادوا أن يقلدوهم فى كل شئ حتى فى وثنيتهم . واعتدل فريق فأخذ يقبل على آداب اليونان والرومان ويعجب بذلك الماضى المجيد ، ولكنه كان لا ينسى واجبه الدينى .

وهؤلاء البابوات الذين ذكرناهم على ما بهم من فضائل كانوا رجال دنيا قبل أن يكونوا رجال دين ؛ فهم يمثلون العصر الذى عاشوا فيه كل التمثيل ، وهم بذلك يدلون على متانة ذلك النظام العتيد ومرونته وهو نظام الكنيسة . لقد اتجه الناس نحو أمور الدنيا ، فأدت مرونة النظام إلى أن يكون البابوات رجال دنيا ومثلوا بذلك عصرهم . فاسكندر السادس من آل بورجيا الاسبانيين كان رجل دنيا بمعنى الكلمة . والحقيقة أننا لا نستطيع أن ندافع عن مسلكه ، كما أن المؤرخين ، حتى الذين كتبوا منهم تحت إشراف الكنيسة، لم يستطيعوا تسويغ أعماله ومسلكه فى سياسته وفى شخصه ، على أنه لا يستطيع أحد أيضاً أن يتهمه بأنه كان يهمل واجباته الدينية . وكان على الغالب محبوباً من الذين يتصلون به . ففى قامته الطويلة نوع من المهابة ، وكان يقيم الحفلات الباهرة كأى ملك من الملوك ، وكان يحب الفكاهة ؛ ومع ذلك كان لايتورع عن إزالة أى خصم سياسى من طريقه بالحيلة أحياناً وبالعنف أحياناً كثيرة .

أما يوليوس الثانى فكان من أعظم البابوات الذين جلسوا على عرش القديس بطرس ، وهو الذى عمل لاعادة بناء تلك الكنيسة العظيمة بروما التى تعد أعجوبة الكنائس جميعا ، وهو الذى استخدم أعاظم رجال الفن من أمثال رفائيل وميكل أنجلو . وكان رجلا قليل الشهوات لا يؤخذ عليه شئ فى مسلكه أيام توليه عرش البابوية ، ومع ذلك كان رجل دنيا ؛ فهو يحب أن يسير الجيوش على خصومه ويتولى قيادتها بنفسه ويحاصر المدن ويلبس أحياناً عدة القتال .

أما ثالثهم ليون العاشر فهو من آل مديتشى ، وكان يشجع العلوم والفنون ويقال إنه أولع بكتب الأقدمين حتى كاد يفضل أساطير الوثنية على حقائق

المسيحية . وكان رجلا شديد الحيلة مع خصومه متقلباً فى سياسته لا يثبت على وعد أو عهد .

تلك صور البابوات الذين عاصروا النهضة فى كلمة ، فهم رجال دنيا قبل أن يكونوا رجال دين ، وهم رجال يمثلون عصرهم حق التمثيل .

وقد عاصر سافونارولا أسوأهم فى السياسة وفى المسلك الشخصى . أما المسلك الشخصى للبابا إسكندر السادس فلا نريد أن نخوض فيه ، لأن كتب التاريخ ذكرت ما فيه الكفاية ، وقد يبالغ بعض هذه الكتب أحياناً ، ولكن أشفقها على هذا البابا لم يستطع أن يجعل من مسلكه الشخصى صفحة نقية . وهذا دون أن نتعرض لما روى عنه من قصص وما أضافه إليه خيال الناس ، فهو أكثر البابوات موضوعاً للأقاويل . وأما سياسته العامة مع الدويلات الايطالية ومع الأمم الأخرى التى كانت تخضع له فى دينها ، فهى سياسة منطوية على المكر والخديعة ، فهو لم يكن يفى بعهد إذا رأى أنه يقف فى طريق أغراضه . وكان لا يؤمن جانبه مهما بذل من وعود ، وكان لا هم له فى سياسته إلا الاعتداء على البلاد ليهيئ لأبنائه المعترف بهم علنا إمارات يحكمونها .

ونعود فنقول إن أكبر دليل على متانة نظام الكنيسة الكاثوليكية أنها هضمت رجلا مثل البابا إسكندر السادس ؛ إذ لم يستطع مع كل ما أتاه أن يودى بالكنيسة ونظامها ، بل ظلت الكنيسة قائمة متينة البنيان محترمة فى أعين الناس جميعاً .

سيطر سافونارولا على مدينة فلورنسا وصار حاكمها طوع إشارته . ولم يكن الراهب خفيف الوطأة قليل التسلط ، بل أخذ ينفذ آراءه فى عنف وشدة ، فهو قد دعا الناس إلى الأخذ بأسباب الفضيلة وإلى نبذ وسائل الترف، ولم يتركهم لضمائرهم ،بل أخذ يبتدع الوسائل لمراقبتهم . وكانت إحدى الوسائل التى اتخذها وضاق بها الناس أن جعل من الصبية عيوناً على أهلهم ، فكان الصبية ينقلون إليه أخبار أسرهم ويصفون له ما ارتكبه آباؤهم أو أمهاتهم من آثام بشراء أدوات الزينة مثلا . وقد طلب إلى هؤلاء الصبية أن يجمعوا له هذه الأدوات . وفى أيام موسم المساخر ، التى كانت مألوفة فى فلورنسا كما هى مألوفة فى المدن الأخرى من إيطاليا ، جمع أدوات الزينة والترف التى نقلها إليه الصبية وأقام

ما سماه عيد إحراق وسائل الترف ، ولكن هذا العيد لم يكن أقل سخرية من المساخر نفسها .

ولقد غلت النفوس بهذا التدخل فى حياة الأسر المرة بعد المرة ، وضاق الناس لاسيما الأغنياء به ذرعاً ، وأسرف هؤلاء الصبية الذين كانوا يأتمرون بأوامر الزعيم الراهب ، وضاقت حياة التجار الذين كسدت بضاعتهم بسبب تسلط الزعيم وتحريمه على الناس شراء ما هو كمالى ، مع أن مدينة مثل فلورنسا كانت من أكثر المدن ثراء وإقبالا على الزينة والترف . وهكذا أخذت النفوس تنصرف عن الراهب . ولكن الناس لم يكونوا قادرين على أن يبدوا استياءهم جهرة بسبب بسيط ، هو أن كل الرجال الذين كانوا يتولون الحكم فى تلك الفترة كانوا من أنصاره .

وكان فى النظم الجمهورية التى تتبعها فلورنسا على ما بها من فضائل عيب أساسى واحد ، هو تغيير أعضاء مجالس الحكم فى فترات قصيرة لاتتجاوز بضعة أشهر ، وكان هؤلاء الأعضاء دائماً فى تلك الفترة من رجال سافونارولا .

وكان من المستطاع أن يظل تسلط الراهب فترة طويلة لو أنه كان كبير الحيطة فى سياسته . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نقول إن سافونارولا لم يكن فى تدبير الأمور على جانب كبير من الذكاء والدهاء معا ولكن كان يفسد هاتين الميزتين عاملان : أولهما شدة التحمس التى كانت تدفعه إلى نوع من التسرع . والثانى اعتماده على ماتوحيه الأحلام . وقد نفهم ذلك منه حين نلقى نظرة على صورته ، فذلك الوجه المصفر النحيل ، وذلك الفم الواسع ذو الشفتين الغليظتين اللتين نكاد نتبين ارتعاشهما فى الصورة ، كل هذا يدل على أنه رجل يعيش بأعصابه ، وإن كانت العينان الواسعتان تنبئان فى الوقت نفسه بأنه رجل خاضع للأحلام .

وقد نحب أن نسأل أين كانت فى هذا الزمن شخصية فذة من أبناء فلورنسا ، هى شخصية رجل عرف بكل الصفات التى تتعارض مع صفات سافونارولا ، وهى شخصية ذلك الكاتب الذى اتخذ فى كل زمان مثالا للواقعية الجريئة وأعنى به نيقولا مكيافيلى ؟ الواقع أن مكيافيلى كان وقتئذ صبيا ليس ببعيد أن يكون من الصبية الذين سلطهم سافونارولا على أهلهم كما يتسلط الوباء . ولكن لم يثبت مطلقا أنه كان منهم فهو إذا كان قد أشار إلى الراهب بشئ

من الاجلال فهو لم يفعل ذلك غير مرة فى جميع كتبه ، مما يدل على أن سافونارولا لم يترك فى نفسه أثراً . والواقع أن الرجل الذى كان يرى فى قيصر بورجيا ابن البابا إسكندر السادس مثالا لما يجب أن يكون عليه الأمراء مع كل ماشتهر به هذا العامل من قسوة وجرائم ، لايمكن أن يعطف على الراهب وأحلامه فى تحقيق عالم ملئ بالفضيلة .

ولا ريب فى أن سافونارولا كان يريد أن يحقق ما لا يمكن تحقيقه ، وكان يريد أن يرجع بعجلة الزمن القهقرى . ولكن العصر الذى كان يخضع فيه الناس للأنبياء قد مضى ، وكانت الروح الوثنية قد تخللت الطبقة العليا فى جميع الدول الايطالية واتصلت حتى بالدوائر الدينية ، فكيف ينتظر أن يستطيع رجل مثله أن يغير من طبيعة الناس ؟

ومع ذلك كان من المحتمل أن يظل سافونارولا مسيطراً على المدينة ومؤثراً فى الدويلات الايطالية لو لم تتعارض سياسته مع سياسة البابا ، فهو فى حماسته الدينية وفى تسلطه على القلوب والعقول كان جديراً به أن يكون من أقوى عمد الكنيسة الكاثوليكية ، فقد استطاع لفترة طويلة أن يحى بذور الدين فى مدينة كانت من أبعد المدن عن الدين . ولاريب فى أن البابا اغتبط بذلك، وهذا هو السبب الذى من أجله رفعه إلى مرتبة رئيس دير سان ماركو . وكان سافونارولا من جهته حريصاً على إرضاء رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، ولكنه فى اندفاعه وحماسته لمدينة فلورنسا نسى أن للبابا إسكندر السادس سياسة خاصة ونسى أنه لابد أن يخضع للبابا فى سياسة أمور المدينة إذا أراد إرضاءه . ولكننا نراه يؤازر خصما للبابا فى سبيل صالح فلورنسا ، ونراه يمجد أعمال خصم للبابا وينادى به منقذاً للحالة بايطاليا فى سبيل تحقيق النبوءات التى أعلنها من منبره . يضاف إلى ذلك أن تلك الظروف لم تكن لتخفى على الخصوم الكثيرين للراهب ، وهم يعرفون كيف يستفيدون منها . ولا ننسى أيضاً أن تقوية فلورنسا على الصورة التى عمل لها الراهب ، كان مما يجعلها تقف حائلا فى سبيل ذلك البابا الذى كان من أمانيه أن يجمع تلك الدويلات الايطالية ، أو على الأقل أن يجمع أكثرها فى ملك واحد ، تحت ابنه قيصر بورجيا ، وكان إقليم فلورنسا من أقرب الأقاليم إليه . وكلما ازدادت قوة المدينة

تحت تأثير حماسة الراهب ووطنيته ، صارت لقمة ليس من السهل ازدرادها .

وكان البابا مع ذلك يحسب حساباً لنفوذ الراهب وسلطانه القوى ، فبدأت بينهما تلك الحوادث التى لا نريد أن نذكر تفاصيلها لمن يستطيع أن يقرأها فى الكتاب الذى أتيح لقراء العربية . وإنما نعرض للطريقة الطريفة التى ابتدأ بها البابا هجومه على الراهب ، فقد أرسل إليه خطاباً لطيفاً يدعوه إلى روما للتحدث فى شأن الرؤيا التى قيل إنه رآها فيما يرى النائم ، والنبوءات التى تنبأ بها . وفهم الراهب مايتعرض له من خطر فاعتذر بمرضه ، وأنه لايستطيع أن يتحمل مشاق السفر ، وأعرب عن خضوعه للبابا وإخلاصه له . وعاد البابا يلح على الراهب فى أن يشخص إلى روما وعاد الراهب يعتذر . فلم يكن أمام البابا إلا أن يطلب إلى حكام المدينة إرسال الراهب إلى روما ، وكان الحكام من رجال سافونارولا فاعتذروا . وهنالك أصدر البابا أمراً للراهب بأن يمتنع عن الوعظ والتنبؤ للناس . وخضع الراهب وقتاً ما ، ولكنه عاد إلى الوعظ وكأنه قد عزم على التحدى ، وأخذ يتكلم عن فساد بلاط روما ويدعو أمراء المسيحية إلى عقد مؤتمر لانقاذ الكنيسة الكاثوليكية . وابتدأ النضال بين أنصار الراهب وخصومه ، وظهر هؤلاء الخصوم متألبين ، وقد شد من عزيمتهم سطوة البابا الذى كان ينذر ويتوعد بانزال غضبه وحرمانه على أهل المدينة إن لم يتخلصوا من ذلك الراهب العاصى . وانتصر خصوم الراهب فى الانتخابات وتولوا الحكم ، فصار رجال الحكم من خصوم الراهب .

وحدثت تلك المأساة حين تحداه الرهبان من خصومه بأن يجرب تجربة النار دليلا على صدقه ، وهى تجربة كانت معروفة فى القرون الوسطى ، وهى تقضى بأن يمر داخل شعلة من نار ، فان كان صادقاً فى دعواه فسينقذه الله من شرها ، وإن كان كاذباً فسيصلى نارها ويذهب إلى الجحيم ؛ ولا نريد أن نذكر ما حدث فى ذلك اليوم من شغب بين الرهبان وانطفاء الشعلة التى أعدت على أثر مطر غزير ، ثم ما كان من القبض عليه والتحقيق معه وتعذيبه مع بعض أنصاره من الرهبان ثم إعدامه .

كان سافونارولا شخصية من أكبر الرجال الذين ظهروا فى عهد النهضة ومن أطهرهم وأشدهم وطنية وأبعدهم عن الآثام ، ولكنه كان رجلا متأخراً

عن عصره ، فكان من الصعب أن ينجح طويلا فى غرضه ، وكان من المستحيل أن تنجح سياسته إذ لم يكن ذلك العصر ميداناً للزعماء الطاهرين ، بل كان عصر أولئك الذين كبرت آثامهم كما كبرت مراكزهم . ولو أن مدينة فلورنسا تمسكت به لوجد البابا سبيلا إلى مقاتلتها وتأليب الدويلات عليها ، ولعله كان لايفعل إذا آنس فى نفسه عدم القدرة ، بل يلجأ إلى طريقة أخرى عرفها أمراء الدويلات الايطالية فى ذلك العصر وعرفها من بين البابوات إسكندر السادس من آل بورجيا . والطريقة بسيطة ، هى خنجر يرسل فى يد رجل مغامر أو كأس شراب يحتوى مادة سامة ، فهذه الطريقة كان يلجأ الأمراء إليها إذا رأوا أن للخصم أنصاراً ، وقد يثير تحديه متاعب كبيرة .

ومن المحقق أن البابا إسكندر السادس حين طلب إلى سافونارولا أن يشخص إلى روما لمناقشته فى نبوءاته وفى أحلامه كان يعمل بوصفه رئيسا للكنيسة الكاثوليكية ، ولكنه كان يعمل بوحى من سياسته . لأن دعوة سافونارولا إلى الفضيلة كان من الواجب على الرئيس الدينى الأكبر تشجيعها ، لا سيما أن الراهب أظهر مقدرة فائقة على التأثير فى العقول ، ولكنه بدخوله معترك السياسة خاض بحر المخاطر ، فأودت السياسة به وبدعوته ، ولم تبق إلا ذكراه العاطرة .

حسن محمود

مكسيم غوركى

فى يوم ماطر ، وقف الطفل إلى جانب النعش الملقى فى زاوية بعيدة من زوايا باحة الكنيسة ، ترتعش أوصاله ، ويحدق فى ضفدعتين تتراكضان فوق غطاء النعش .

كان ذلك المنظر ، كل ما علق فى ذهن الطفل من ذكرى أبيه المسجى داخل النعش . ولولا جدته ما علم غوركى شيئاً عن مجرى حياة أبيه . وهى التى أسرت فى أذنه يوم مات أبوه بضع كلمات ، فحواها أنه مات قهراً وغمّاً من جده المتعسف الذى جعل حياة ابنه – أبى مكسيم – حياة مظلمة معتمة .

وكبر الطفل ، وأرهف حسه ، وأصبح فتى يدرك كل ما يجرى حوله . وأخذ يتبرم بحياة الشظف والحرمان التى يحياها فى كنف جده لأبيه . ولم يعد يستطيع المضى فى عمله الشاق عند ذلك الحذّاء الذى اختاره الجد معلماً للفتى . كما لم يعد فى إمكانه الاذعان لجده والصبر على إهاناته القاسية وضربه المبرح له ؛ فقرر الفرار . وظل فى نجنينوفجرود أياماً يجوب الطرقات ويتسكع فى الأحياء والجوع ينهش معدته ، إلى أن عثر على عمل فى سفينة صيد . وانكب على عمله الجديد يؤديه برضا خاطر وطيب نفس ، رغم الارهاق الذى كان يلحقه به غسل الأطباق من الصباح حتى منتصف الليل ؛ وذلك لشعور يخامره لم يكن يحس به من قبل ، وعرّفه فيما بعد بالسعادة والطمأنينة . فالنهر المتدفق العريض ، والأحراش الخضر المنبسطة على طرفيه ، والسماء الزرقاء الصافية ، كل ذلك جعل الفتى يطمئن قليلا للحياة ، وينعم بتلك الطبيعة الأخاذة التى أصبحت ملك يديه .

وتجمعت لدى الفتى بضعة قروش ، اشترى بها شبكة وطوقاً وبضعة فخاخ لصيد الطيور . وغادر السفينة لا يبغى الرجوع ، وساح فى الأدغال يحمل على كتفيه عدة الصيد وغطاء يقيه برد الليل . وراح كلما أقبل الليل يحط تحت

شجرة كبيرة وينام قرير العين . وأما نتاج أتعابه من الصيد ، فكان يبيعه فى السوق بأثمان تكفل له القوت .

وأدبر الصيف ، وبدأت أسراب الطير تغادر الأدغال ميممة شطر المدن . وغادر الفتى الأدغال مكتئباً حزيناً ، وجعل يطرق الأبواب من جديد طلباً للعمل ، لكنه لم يشأ أن يضحى بحريته ، وهى أثمن شئ لديه . فصار كلما تسلم عملا لم يلبث أن يتركه ليبحث عن غيره أفضل منه .

وفى المدينة تعرف غوركى إلى كثير من الأصدقاء ، وعن طريق هؤلاء تمكن فى نفسه ميل خاص إلى شئ جديد ، هو اقتناء الكتب وقراءتها . وأقبل على مطالعة القصص بشغف عظيم ، وأخذ يبحث عنها فى مكتبات أصدقائه وعند الباعة المتجولين الذين يبيعون الكتب القديمة بأسعار بخسة . ولم تنقض أشهر قليلة حتى صار غوركى قادراً على مطالعة الكتب الأدبية وتمييز الأساليب الركيكة من الأساليب الرفيعة . ثم وجه اهتمامه لقراءة تشيخوف وبوشكين وغوغول وتيرجنيف وليرمونتوف . وعندما أتى مرة إلى نهاية قصة فكاهية استهوته وتركت فى نفسه آثاراً ، سرح فكره فى الفضاء الفسيح ينسج وقائع لقصة ما ، ثم حمل القلم وانصب فوق الطاولة يدون تلك القصة .

والحياة التى كان يشبهها دائماً بالسجن ، صارت منذ دخول الكتب إليها أدعى لمسرته وراحة باله . والكتب كما عرفها آنذاك ، كالعصافير المغردة تبعث الأنغام فى آذان المساجين ، فيطغى على نفوسهم الكئيبة قليل من البهجة والحبور .

وتفتحت مدارك الفتى ، وانصرف يسعى لتحقيق عيش رغد هنئ . لكنه لم يفكر فى الشهرة أو الاندفاع نحوها . وظن بادئ الأمر أن المسرح يكفل له العيش الخفيض . وجاب المسارح يعرض نفسه للظهور فيها ، وقبل فى أحدها . وأعطى دوراً ثانويا فى رواية عنوانها «كريستوفر كولمبس أو اكتشاف أمريكا» وطلب منه وهو فى لباس الهنود الحمر أن يشترك فى معركة تدور رحاها بين الهنود والأسبان ، ويسدد بخنجره الطعنات للغزاة المعتدين . وقام بواجبه ، ولكنه لما أصابت جسمه طعنة سيف خارقة ، نسى أن يرتمى على الأرض . فضحك الجمهور ، وغضب مدير المسرح ، وصب فوق رأسه جام شتائمه ، وطرده من العمل .

ويئس الفتى من المسرح أيضاً ، وفكر فى مسلك جديد فى الحياة .

فغادر نجنينوفجرود وكان آنذاك فى الخامسة عشر ، متجها صوب قازان لينال العلم فى جامعتها .

ولم يكن يتوقع أن يقبل فى جامعة قازان بسهولة . وقد كتب فى مذكراته قبل دخول الجامعة يقول : « لو قبلت فى الجامعةعلى شرط أن أجلد فى كل أحد ، على مرأى من السكان لارتضيت الشرط . » إلا أنه قبل بمجرد وصوله المدينة . وهناك تفتحت أمامه آفاق جديدة ؛ فأخذ يتعرف إلى الحركات السياسية السرية ويتقرب إليها ، ويصادق نفرا من الطلاب الثوريين . وأما مسكنه فكان غرفة صغيرة فى أسفل بيت قديم متداع فى شارع من الشوارع المهملة . وما لبث أن عثر على مهنة كان يتقاضى منها أجراً يوميا قدره عشرون كوبيك .

وبوساطة أصدقائه من طلاب الجامعة الثوريين ، صار غوركى يتصل بجمعيات الطلبة السرية ويقرأ نشراتها ويحضر بعض جلساتها ويقف على تطورات التهيئة للثورة . وأخذ طالب الجامعة يطالع كتب آدم سميث وتشيرنيشفسكى وكارل ماركس . ثم انعدمت الحاجة إليه فى عمله فأخرج . وجرى يبحث عن عمل آخر . فتيسر له ذلك فى فرن حيث شغل مركز مساعد للفران . وكان صاحب المخبز رجلا متجبراً يدعى سميونوف يشتغل أجراء مخبزه مدة أربع عشرة ساعة فى اليوم مقابل أجور تافهة . وكان غوركى يتقاضى ثلاثة روبلات فى الشهر ، ويعمل كغيره طيلة النهار ، فلم يرضه الحال ولم يغض الطرف عن ذلك الاجحاف . لكن صاحب المخبز لم يستطع كبت نفسية غوركى الثائرة ، ولم يقدر على منعه من التذمر والشكوى . وأخذ غوركى يجمع العمال فى حلقات ، ويحدثهم باسلوب طلى جذاب ، عن حقيقة أصحاب العمل الجشعين ، الذين يدأبون على هضم حقوق العمال ومعاملتهم بالعنف بدل اللين . وبينما غوركى يبث تعاليمه بين العمال فى إحدى تلك الجلسات ، إذ بسميونوف يفاجئه ، فينتهره ويغلظ له القول وينزل به أشد العقاب .

لكن إيمان غوركى بحريته وبأفكاره لم يتزعزع ، فثبت أمام هجمات المعلم ثبوتا راسخاً . ولما خطف سميونوف من يده مرة كتابا كان غوركى يقلب صفحاته ، وحاول إلقاءه فى النار ، صرخ غوركى فى وجهه صرخة هائلة وقبض بأصابعه الطويلة على معصمه واسترجع الكتاب وهو يقول : « أتجرؤ

يا هذا على إلقاء الكتاب فى النار ! ... » ولم يملك صاحب المخبز إلا الانسحاب من الغرفة خوفا من غوركى الذى ارتسمت على وجهه أمارات غضب هائل .

بعد تلك الحادثة بأيام ، راح غوركى يعد العدة لاضراب عام داخل المخبز فكشف سميونوف الأمر قبل وقوعه ، وطرد غوركى للحال . فانضم إلى مخبز يشرف عليه رجل يدعى درنكوف وتديره إحدى الجمعيات السرية ، وتخصص مرابحه لدعم المنظمة ماليا . وفى تلك الأثناء ، تشدد رجال الشرطة فى مطاردة الرجال الثوريين من أعضاء الجمعيات السرية ، وعثروا على بيت غوركى فدخلوه عنوة وقلبوا محتوياته وبعثروا متاعه فى جنبات الغرفة ، وقدموا تقريراً يفهم منه أن للفتى علاقة بالعمل السياسى .

وجاء الخريف ، وجاءت معه أمطاره الغزيرة . وفى أحد الأيام تسلم غوركى خطابا يحمل نبأ وفاة جدته العزيزة عليه . فاكفهرت الدنيا فى وجهه وأظلمت واعتراه يأس قاتل . وراح يتصور بؤسه المقيم وتعاسته الدائمة ، فمقت الحياة ، واختمرت فى رأسه فكرة الانتحار . فاشترى مسدساً وخرج فى إحدى الأماسى إلى ضاحية من ضواحى المدينة وأطلق الرصاص على جنبه الأيسر . وعثر عليه فى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم وهو الرابع عشر من كانون الثانى عام ١٨٨٧ مضرجاً بدمه ، فنقل إلى المستشفى حيث عولج ونجى من إصابته الخطرة بعد جهد .

غادر غوركى المستشفى أشد مضاء وأقوى عزيمة . ورجع إلى مخبز درنكوف وواصل العمل بجد ونشاط . وبين حين وآخر ، كان يزوره فى المخبز رجل يدعى روساس مالبثت أن اشتدت بينهما أواصر الصداقة وتوثقت . ثم عرض روماس على غوركى أن يقبل الانتقال معه إلى قريته ، حيث يوفر له الهدوء والراحة فى مسكنه الريفى . ووافق غوركى ، وغادر المدينة مع صديقه فى طريقه إلى القرية المنتصبة على شاطىء الفولجا . وهناك أخذ غوركى عن قرب يشاهد تعاسة الفلاحين ويتحسس مصائبهم ، ويضيق باستبداد أصحاب الأراضى وإغراقهم فى التيه والجبروت . فانضم إلى جمعية سرية يعمل صديقه فيها وترمى إلى تجريد أصحاب الأراضى من سلطانهم . إلا أن الاخفاق الذريع كان من نصيب تلك الجمعية السرية ؛ فقد فوجىء أعضاؤها بهجوم عنيف قام به أصحاب الأراضى ، وتعرضوا من جرائه هم وأبناؤهم وأسرهم لأبشع

ضروب الغدر والانتقام ، وسقط صديق غوركى صريعاً . ففر من القرية وأخذ يتابع السير نحو الشرق ، حتى أشرف على بحر قزوين ، واستمرأ العيش هناك ، فعمل صياداً للسمك ، وأقام على الشاطىء يملأ النظر برؤية البحر وأمواجه المتلاطمة.

وأقام غوركى هناك مدة ، ثم رجع إلى قازان وعمل حارساً فى محطة سكة الحديد ، وظل يسير وبيده عصا فى محاذاة خطوط السكة من الساعة السادسة مساء حتى السادسة صباحاً . واستقر فى عمله ذاك أشهراً قليلة ، انتقل بعدها إلى نجنينوفجرود . وفى تلك المدينة بدأ يرتاد محال العمل ، طلبا لنوع جديد يختلف عن الأعمال السابقة كالحراسة الليلية والخدمة فى المخابز وصيد الطيور والأسماك وغسل الأطباق . ولم يلبث أن الفى فى المدينة جمعاً من أصدقائه الثوريين الذين تلقى مبادىء الثورة أول ما تلقى على أيديهم ، فقطن معهم وأظله وإياهم سقف واحد ، واشتد نشاطه ، فالقى القبض عليه وهو فى بيته ، واقتيد إلى السجن حيث قضى شهراً . وصرف غوركى مدة السجن تلك فى المطالعة ونظم الشعر . ووقع مدير السجن مرة على بضعة أبيات لغوركى ، فحمل الورقة وأخذ يردد الأبيات بلهجة يشوبها الاستهزاء فى الوقت نفسه . وعند الانتهاء منها ، انبرى لغوركى يقول : «أى شعر هذا الذى تنظمه أيها الأحمق ؟ إذهب إلى كورلنكو بعد أن أطلق سراحك ، واعرض عليه نموذجا منه لكى يرشدك إلى الشعر الحقيقى . »

وخرج من السجن وكلمات المدير ترن فى أذنيه . وأسرع يبحث عن كورلنكو ، الأديب الشاعر الذى غطت شهرته الأفق والذى تعرفه جموع المثقفين من أبناء روسيا وأوربا وتعشق كتبه وأشعاره . وسر الكاتب الكبير بالشاب الناشىء، ولمس مواهبه وتكهن له بمستقبل زاهر . وأخذ يوجهه ويحضه على الكتابة قائلا : « أكتب فى أى شىء كان . صف الطبيعة ومناظرها المختلفة ، وتكلم عن مشاهدتك فى الحياة . » وانصاع غوركى لرغبة كورلنكو ، فجعل يكتب ، وجعل معلمه يحسن توجيهه ويطلعه على مواضع القوة والضعف ، حتى أنس الشاب إلى الكتابة ، ولمس فى نفسه الكفاية فيها والرغبة إليها، وبقى يحمل فى نفسه أطيبَ الذكرى وأجملها لمعلمه الأول . ثم غادر نجنينوفجرود ليشرع فى رحلة طويلة فى طول البلاد وعرضها سيرا على الأقدام .

واقتفى أثر الفولجا ، فسار بمحاذاته مئات الأميال . ثم استقر مدة قصيرة فى روستوف ، وانتقل منها إلى أوكرانيا وبسارابيا حيث تجول طويلا فى أنحائهما ، ووصل إلى شواطئ الدانوب فى رومانيا ، وظل شبح الجوع يطارده فى كل تلك الأسفار . وفى أنجازيا لم يستطع أن يجد لنفسه سوى العسل ، يقيم أوده و يرد عنه غائلة الهلاك جوعاً .

ثم ارتد شرقاً حتى جاء القوقاز ، فأقام فى ربوعه مدة طويلة ، وشعر هناك بحاجته إلى قبول أى عمل يعرض عليه ليهيئ منه الغذاء ، فاشتغل أول الأمر حارساً فى بستان ، ثم طباخاً فى منزل قروى ، ثم قارئ صلوات على القبور . ولكنه على الرغم من كل ما كان يلاقيه من صعاب وأهوال فى كل يوم من أيامه البائسة ، ظل متحملا لذلك الشقاء ، قانعاً بظروف القلة والحرمان التى يلاقيها فى أسفاره المتلاحقة . ذلك لأنه وهو يخالط طبقات الشعب الكادحة مخالطة فعلية ويعيش بين الفلاحين المجردين من أبسط الحقوق التى يجب أن يتمتع بها كل انسان ، ويرقب الفقراء المعدمين من أبناء الشعب وهم أغلبية السكان الساحقة ، فى طرق معيشتهم وسكناهم ، صار يتحسس مشاكلهم ويرثى لحالهم ، وتمكنت من نفسه المبادئ الثورية التى لقنها فيما مضى .

وهو كلما ازداد اطلاعاً ومعرفة بأحوال الناس ، نمى فى نفسه الحقد والضغينة على أعداء الشعب . وقد حاول مرة أن ينقذ امرأة عارية مشدودة إلى عربة كما تشد الخيل والسياط تنهال فوق جسدها ، فتجمع حوله سكان القرية وألحقوا به من ألوان انتقامهم ما سبب إقامته فى المستشفى فى حالة خطرة أياماً كثيرة . ولما أفاق واسترد قواه كتب فى مذكراته مصوراً ذلك المنظر الذى رسخ فى مخيلته يقول : «... نعم ! لقد شهدت ذلك المنظر الفظيع بعينى فى قرية كانديبوفا فى اليوم الخامس عشر من تموز سنة ١٨٩١ . »

وما كاد يغادر المستشفى ، حتى سمع باضطرابات تجرى فى مدينة مكوب فخف إليها ، وشاهد الجنود القوزاق ينزلون الهول فى أهل المدينة . فحمل فى الصحف حملة شعواء على سلطات المدينة ، فاعتقل ، ونقل إلى معتقلات الجيش ، وبقى هناك أياماً ، ثم أطلق سراحه واتجه إلى مدينة تفليس حيث آثر البقاء مختتماً أسفاره فى جنوب روسيا .

واتصل فى تفليس بألكسندر كالوجنى ، أحد المنتمين إلى الجمعيات السرية

والذى يملك كما يقول غوركى أثمن المواهب البشرية ، ألا وهى الشعور بالانسانية . كان كالوجنى رجلا رزينا متئدا ، يعرف كيف يتقرب إلى الناس وينال ثقتهم وإعجابهم ويعالج مشاكلهم . ولمس كالوجنى بدوره مواهب غوركى ، فحثه على الكتابة عن رحلاته وتنقلاته . واستجاب غوركى لرغبة صديقه ، فسجل مشاهداته . ثم أخذ كالوجنى يسعى بروية بالغة ، إلى تحويل ذهن غوركى نحو القصة ، فما لبث أن أفلح . ورأى غوركى ينصاع لتوجيهاته ويشرع فى تأليف القصص ، حتى خرجت من بين يديه قصته البديعة الأولى «ماكرخدرا» التى نشرت فى الجريدة التفليسية اليومية «القفقاس» فى تشرين الأول سنة ١٨٩٢ : وفى أواخر السنة غادر غوركى تفليس يكن بين جوانحه عميق الحب لمن استكشف فيه شخصية القصصى .

ولم تكد تمضى بضعة أشهر ، حتى تسلم غوركى دعوة من صديقه القديم كورلنكو يطلب إليه فيها التوجه إلى سمارا ، وقبول وظيفة محرر فى مجلة «سمرسكايا» . وقبل غوركى الدعوة ، وأسرع إلى سمارا ، وأخذ اسمه بعد وقت قصير يتألق فى الصحيفة بجانب أسماء لامعة ككورلنكو وسيبرياك وييخايلوفسكى . وظهرت له قصص عظيمة سجلت فى سفر الخلود «كمحنة قاسية» و «مرة فى الخريف» و «حضان» .

بعد سنة من الزمن ، كان اسم غوركى على كل لسان ، وأخذت الجرائد والمجلات المنتشرة فى مدن الفولجا ، تدعو الأديب الكبير لنشر قصصه ومقالاته . وإذ تسلم دعوة للعمل فى جريدة تصدر فى بلدته نجنينوفجرود انطلق مسرعاً ، واستطاع فى مدة وجيزة أن يرتفع إلى مصاف تولستوى وتشيخوف .

ووقفت السلطات القيصرية من بروز اسم غوركى واتساع شهرته موقف التربص ، وأصبحت ترى فى ذلك الأديب الذى يعالج فى كتاباته شؤون الشعب ويتحدث عن بؤس الشعب وحقوق الشعب ومشاكل الشعب ، خطراً عظيماً يتهددها فى الصميم . فعولت على إبعاده وأرسلته إلى سجن تفليس . ولكنه لم يرهب السجن ، ولم تلن قناته ، فلقن تعاليمه نزلاء السجن ، ثم جاءه العفو لعدم توافر الأسباب عن اعتقاله ، ورجع إلى مدينته ليواصل نشاطه الثورى . وفى سنة ١٩٠١ ، ذهب فى زيارة قصيرة إلى سانت بيترسبورغ . وشهد أثناء تلك الزيارة مظاهرة سلمية قام بها طلبة الجامعة ، وقاومها البوليس

بوحشية وغلظة . وسرعان ما حمل على الحكومة فى مقال عنيف ، اختتمه بقوله «قريباً . . قريباً جدا ستهب العاصفة» . واعتقل من جديد ، واقتيد إلى سجن نجنينوفجرود . وهناك ساءت صحته وحل به هزال شديد ، فهبت البلاد من أقصاها إلى أقصاها تحتج على اعتقال الكاتب الكبير وتطلب إطلاق سراحه ، وانبرى تولستوى يدافع عن السجين المريض . فاضطرت الحكومة إلى التراجع وتخلية سبيل غوركى . وعاود عمله محرراً فى الجريدة ، واشتد اتصاله بالمنظمات الثورية ، وأضحى نفوذه عظيما بين الطبقات العاملة ، ولم يثنه إرهاب الحكومة ومطاردتها له عن عزمه ، ولم يضعف من ثائرته . إلا أن السلطات لم تمكن له من حرية التصرف ، فعادت لاعتقاله ونفيه بعيداً إلى بلدة صغيرة تدعى ارزاماس ، معظم سكانها من الرهبان .

وأثار ذلك التصرف حفيظة زعيم الحركات الثورية لنين فكتب يقول : «لقد نفت الحكومة المستبدة من غير محاكمة ، رجلا من أبرز رجال عصره وألمع شخصيات أوربا ، رجلا سلاحه الوحيد حرية الفكر . »

وازدادت صحة غوركى فى منفاه سوءا ، وأصبحت حياته فى خطر . واضطرت السلطات أمام ضغط الجماهير ، واستجابة لرغبة الأطباء فى اطلاق سراحه ، إلى إصدار العفو عنه . وخرج من السجن ، فوجد فى انتظاره الألوف من الطلبة والعمال فى مظاهرة صاخبة أعدوها احتفاء بذلك اليوم . وحمله المتظاهرون على الأكتاف ، وجعلوا يجوبون به شوارع المدينة وهم يهتفون بحياته وسقوط الاستبداد والمستبدين .

وفى سنة ١٩٠٢ ، انعقدت آمال العلماء والأدباء الروس على انتخاب غوركى عضوا فى أكاديمية العلوم . ولما التأم جمع الأكاديمية قررت بالاجماع انتخاب غوركى . ولكن القيصر لم يشأ لذلك الانتصار أن يدوم طويلا ، فأرسل للأكاديمية كتاباً يقول فيه : إنه غير فخور بانتخاب غوركى عضوا فيها . وعلى الرغم من صدور ذلك الكتاب عن القيصر مباشرة ، فقد أبى اثنان من أعضاء الأكاديمية أن يتقيدا به ، وهما أنطون تشيخوف وفلاديمير كورلنكو . وليس ذلك فحسب ، وإنما أعربا جهارة عن احتجاجهما على تدخل القيصر فى شؤون الأكاديمية .

وشرع غوركى بعد ذلك التاريخ ، يكتب للمسرح . فألف أول رواياته

«الفلسطينيون» وأتبعها بالرواية الثانية «أغوار الحياة» وجعل محورها معالجة شؤون الطبقات المعدمة . ورغماً عن مرور قلم المراقبة العريض فوق كثير من فقر الروايتين وفصولهما ، فقد تقبلهما الجمهور باعجاب وتقدير عظيمين .

وأقبل عام ١٩٠٥ ، عام الثورة الاشتراكية الأولى ، واندمج غوركى اندماجاً كليا مع أصحاب تلك الثورة والممهدين لها . فكتب فى الصحف محرضاً وموجهاً ، ثم حاملا أعنف الحمل وأقواه على القيصر والحكومة القيصرية ، ورافعاً الستار عن فظائع تلك الحكومة والأهوال التى ترتكبها . واعتقل الكاتب المناضل وألقى فى السجن ، وهناك كتب رواية «أبناء الشمس» التى استوحى فصولها من مجزرة اليوم التاسع من كانون الثانى سنة ١٩٠٥ عندما هرع ما يقرب من مائة ألف شخص من سكان سانت بيترسبورغ يستجدون عطف القيصر ويطلبون رأفته ورحمته وتخفيف قيود الحكومة عنهم ، فأجابهم على استجدائهم بفتح فوهات المدافع الرشاشة وتسليطها على صدورهم وهم أمام باب القيصر . وتدفقت سيول الاحتجاج على اعتقال غوركى من جديد ، منها ماورد من أبرز شخصيات روسيا ومنها ما ورد من رجال أوربيين وأمريكيين من أصحاب المكانات المرموقة كبيير كورى وأوغست رودين وكلود مونيت . وسرح غوركى وسافر إلى موسكو حيث راح يجمع التبرعات لشراء الأسلحة والذخائر .

وقبل نهوض موسكو للقيام بثورتها المشهورة عام ١٩٠٥ بأيام قليلة التقى غوركى ولينين للمرة الأولى . وترامى إلى مسامعه عزم الحكومة على اعتقاله ، فاختفى عن الأنظار وتمكن من اجتياز الحدود إلى أوربا فأمريكا . وفى أميركا كتب قصته الخالدة «الأم» التى انتشرت فى العالم أجمع كأسرع ما ينتشر النور . ولم تكد الحكومة القيصرية تعلن العفو عن الفارين من أبناء البلاد سنة ١٩١٣ ، حتى نصح لنين لغوركى بالعودة . وبقى غوركى مدة أربع سنوات يعمل فى الحركات السرية ، حتى إذا ما نشبت الثورة الاشتراكية الكبرى فى تشرين الثانى سنة ١٩١٧ ، كان غوركى من أبطالها . وعند ما وافى القدر زعيم الثورة لنين بمنيته بعد أعوام قليلة ، كان صديقه العزيز غوركى فى جانبه يحنو عليه و يمر يده فوق جبينه .

وشعر غوركى بخطر المرض يستفحل ، واشتدت عليه وطأة الآلام

الجسمانية ، فرحل إلى إيطاليا للاستشفاء ، وعاد إلى وطنه سنة ١٩٢٨ — وكان فى الستين من عمره — فخرج الشعب الروسى بأجمعه يستقبل المناضل الجبار .

فى سنة ١٩٣٢ ، احتفل الاتحاد السوفياتى بذكرى مرور أربعين سنة على صدور أول أثر مخطوط لغوركى .

وفى سنة ١٩٣٦ ، أغمض غوركى الاغماضة الأخيرة ، وانطفأ ذلك السراج المنير . وبكى الملايين فى روسيا وخارجها حزناً على خبو ذلك القبس ، ووقف مولوتوف يندب الفقيد فى حفلة التأبين ويقول : « إننا اليوم نطوى صفحة مجيدة فى سجل تاريخنا . إننا ، نحن أصدقاءه ومعارفه ، نتلقى مع الملايين من أبناء الشعب الروسى ضربة هائلة شديدة الوقع . وإن الانسانية جمعاء لتفقد بعد لنين رجلا عظيما قل أن يجود الزمن بمثله . »

[القدس] **عقيل هاشم**

L'ART DE L'ECRITURE

HILDE ZALOSCER

فن الكتابة*

لقد وفقت الروحية الشرقية للكشف عن ميادين فنية لم يهتد إليها الفنان الغربى ، ألا وهو التعبير بواساطة الخط المنساب المنطلق ، الذى يعلو وينخفض كالشهيق والزفير ، أو يهزل ويضيق كجرى الماء ، والذى لايفتأ يتحور ويكتسب انثناءات دائمة التجدد ، هذا الخط الذى يخفى بين طياته معانى وأفكاراً ذات مغزى بعيد ، إذا حاولنا أن نتفهمه ونستشف سره . والواقع أن الخط باعتباره صورة فنية ، ظل ميزة خاصة بالفنان الشرق . وكل حضارة شخصية بالمعنى الصحيح ، تقدر الخط وتنظر إليه ، باعتباره عنصراً جوهريا من عناصر الفن فيها .

ولما كانت الحضارة الشرقية تأبى الفن النقلى والتصويرى ، وتسلك للتعبير عن نفسها سبيل الزخرف المجرد ، فهى تسند إلى الخط دورا هاما ، ونحن نعلم إلى أى حد يعتبر الفن الاسلامى ، وعلى وجه الخصوص الفنى الذى يرجع إلى أصل عربى نقى ، فنًا مجرداً زخرفيا ، إن لم يكن رمزيا . وهذا الفن يأتلف من النبات والحيوان والأشياء المجردة ، ويصوغ من كل تلك العناصر المتعارضة شيئاً جديداً . وسبيل هذا الفن كما قلنا هو الزخرف وخاصة الزخرف غير التصويرى . فنحن لانجد فيه أزهاراً وحيوانات والمشاهد الغرامية التى لها أكبر مكانة عند الفنان الزخرفى الغربى . والحواجز التى تفصل حسب عقلنا التنظيمى بين هذه العوالم كلها لا وجود لها فى ذلك الفن . فالكائنات كلها قد اشتركت فى إنشائه غير تاركة إلا مجرد أثر تافه أو ذكرى من كل منها . والنقش العربى يشبه عن بعد ورقة شجرة ولكنها محورة كل التحوير . والعريشة كذلك ليس بها إلا رائحة بعيدة من عالم حى ، قد

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة «الكاتب المصرى» .

صيغ من جديد وأعد لوظيفة غير وظيفته الأولى . وكل من النقش والعريشة ينتمى إلى عالم المضلعات الصلبة المكونة من شرائط طويلة يختلط بعضها ببعض ، وتتقاطع ، وتتلوى ثم تنبسط ، وفجاءة تنتهى هى أيضا برأس حيوانى : تلك هى عناصر الزخرف فى الفن الاسلامى .

ونحن نكتشف من بين تلك الأشكال ، ومن غير أن نتبين أى فارق أو نفجأ بفاصل بين عالمين مختلفين — نكتشف عصائب غرضها الزخرفة ، تحمل كتابات . وبين العرائش والنقوش الداخلة فى العجائز ، نجد أشكالا كتابية . وقد أدى الطراز الواحد إلى تكوين هذه العناصر لعالمين مختلفين كل الاختلاف . ويحرك هذه الرسوم الخطية المضطربة إحساس واحد ، ويخط النقوش والحروف خط دائرى واحد . وخلاف ذلك نجد العصائب الزخرفية موضوعة على النظام نفسه الذى وضعت عليه العصائب الكتابية ، والفنان يستخدمها كلها للغرض نفسه . فهى تزين الأشياء نفسها من جوامع أو آنية فخارية أو صور ، . وقد تستعمل معا ويعضها يوازى بعضا كاطار لنافذة أو باب ، والعصائب العريضة سواء أكانت مملوءة بالزخارف أو الكتابات ، تلتف حول الجامع كله آخذة بكل ناحية فيه .

هل يكون أصل الكتابة والزخرف واحداً ، بما أن التشابه بين مظهر كل منهما كبير إلى هذا الحد ، وبما أن أساليبهما تتفق وتمتزج ، وبما أن وظيفتهما واحدة ، والفنان يستخدمها بطريقة واحدة ؟ الواقع أننا نميل إلى الاعتقاد بأن الزخرفة ليست مجرد تسلية عقلية ، أو نزوات لا أثر للتفكير فيها ، وليست مجرد شئ يكون بهجة للعين ووليد الحاجة الفنية . أليس وراء الزخرفة غير ذلك؟ ألا يكون الفن الزخرفى أول تسجيل لأفكار الانسان ؟ وميداناً واسعاً للجدل الفلسفى ، حيث نستطيع أن نستكشف بعض مظاهر الحياة ، ونظامها المتغاير ، ونبضاتها الخفية وأسرارها العميقة ؟ إن أبسط شكل زخرفى وهو انثناء خط دائرى يفسح الميدان لاحتمالات شتى ، غزيرة المعنى متنوعة المرمى . فتارة يكون الخط رفيعاً متلوياً ، فيشق مساحة ويستقر بداخلها فى شئ من الاشفاق والاستحياء . وتارة يفيض هذا الشكل الزخرفى ويتسع حتى يكاد يبتلع المساحة كلها . وهو ينتقل من الانتظام المنطقى إلى الالتواء المنطلق المستمر . وتمحى الأنظمة الصارمة ليحل محلها تجاويف ومفاوز تضل العين

فيها ، وتشرد خلف نزوات وأهواء خطية . فما أكثر ما يعنيه أى خط لأى زخرف ! وما أكثر التحولات التى يمر بها ! إذ أن هذا العالم الزخرفى يخضع لقوانين عالم غير عالمنا : إنه وليد التصور . وهذه الأشكال المحملة بالمعانى هى رموز خفية تخاطب المخيلة كتلك الرموز الأخرى ، أعنى حروف الكتابة التى تحمل هى أيضاً رسالة خفية والتى تتصل بالعقل عن طريق البصر . وهكذا تلتقى الزخرفة بالكتابة بل تختلط إحداهما بالأخرى .

أما الفنان الغربى فتجتذبه مظاهر الدنيا ، فهو يعمل إزاء الطبيعة ، ويمنحها حبه كله ، فالطبيعة إذن هى مصدر وحيه الفنى الأول . إن مشكلته الدائمة هى إيجاد أحسن الوسائل وأتقنها لاعادة خلق ما هو كائن أصلا فى الطبيعة . فبحوثه تنتهى إلى مذهب طبيعى كامل ، وهو إيجاد العلاقات الحقة إن لم تكن المطلقة بين حجم الأشياء والكائنات وبين الفضاء الذى يغمرها . إن الفنان الشرقى لايواجه هذه المشاكل بل يجهلها إن لم يكن يهملها . وفى الميدان الذى يتعارض الروح فيه دائماً مع المادة ، يتصل الفن بوساطة ما بالروح لا بالحواس ، وتكون الصورة الحسية مجرد غلاف لا غنى عنه .

نخرج من ذلك بأن كل حضارة شرقية تجل الكتابة ، وأن كل فن شرقى خالص ، أحس بقيمة الكتابة ومغزاها الروحى وضمها فيما بعد إلى عناصره .

والمسيحية الأولى ، الشرقية خاصة ، وهى التى ظلت أقرب من غيرها من الوحى الأصلى ، عرفت قيمة الكتابة الروحية ، ولمست معجزة الرمز الذى يحتفظ بكلمة الله ويعلنها . والأناجيل القديمة التى تعتبر أجمل ما تركت المسيحية فى العصور الأولى من آثار فنية ، تستخدم الكتابة عنصراً من أرفع العناصر معنى ، وتسند إليه قيمة فنية فى مجموع الأثر . ونحن نجد على هذه الرقوق ذات اللون القرمزى ، كتابة لينة مشدودة فى الوقت ذاته ، تملأ الصفحة بشبكة من الخطوط التى تنبض حياة وحركة . والحروف الأولى التى تبدأ بها كل فقرة جديدة محلاة كأجمل ما تكون بالذهب وموشاة بهذه الألوان العقيقية التى تبدو كأنها مرصعة بالحجارة الثمينة . وهكذا تظهر الكتابة وقد اكتسبت بفضل تلك الزينة قوة إيحائية خفية . والفرق شاسع بين تلك الصفحات التى كتبها فنانون خطاطون كانوا فى الوقت ذاته ملمين بالموضوع من كهنة ورهبان ، وبين صفحات البحوث العلمية التى نقلها عبيد من العلماء .

وكانت عبادة الكتابة موجودة فى الديانات الفارسية كمذهب المزدية لزرواشتر ومذهب المانوية الذى حل محله ، ونحن اليوم نعرف تمام المعرفة أثر تلك الديانات فى المسيحية والاسلام . وقد يكون الأصل فى عبادة الكتابة عند الفرس كتابهم هم المقدس . وكهنة مذهب زاوشترا وحدهم هم الذين يعرفون سر الكتابة ، أفلا يكون ذلك دليلا على قيمة الكتابة ؟ ونجد من ناحية أخرى مبدع المذهب المانوى يكتب وينمق بنفسه الكتب المقدسة . وتوجد نسخ على غاية من الجمال فى طرفان حيث التجأت المانوية بعد اضطهاد أتباعها . ونحن نلمس فى تلك النسخ تشابهاً غريباً بالمخطوطات الاسلامية مما لا يجعلنا نتردد فى الاعتراف بما كان لها من تأثير مباشر فيها . والظاهرة الدينية فى ذلك الفن الدينى الصرف ، هى مجرد نتيجة للاتجاه التصوفى الدينى . وقد ترك لنا فى صفحات مخطوطاته آثاراً فنية بلغت غاية الجمال .

والفن الصينى قد أدرك أكثر من غيره القوة الخفية والناحية الشعرية فى الكتابة ، وإن رموزه الكتابية شانها شأن الرموز فى الفن الاسلامى ، هى رموز ملهمة . وللفنان الخطاط فى الصين المكانة نفسها التى يتمتع بها الرسام . والأثر الخطى لايقل فى شئ عن التصوير . والحروف التى تتكون منها الكلمات وتعبر عن الأفكار مرسومة بالريشة نفسها وبالمادة نفسها ، مثلها مثل صور الأشياء وظلالها . وهناك ظاهرة أخرى تقرب بين هذين العالمين عالم الأفكار المجرد وعالم المظاهر الملموس ، وهى قوة التأثير التى تصدر عن كل منهما . وليس الحرف فى الأبجدية الصينية كالحرف فى أبجديات الحضارات الغربية ، فكل حرف هنـاك يصور كلمة ، فهو يثير ويوحى إذن ولا يكتفى به للهجاء .

ولما كانت الحضارة الاسلامية تقع فى تلك المناطق المتصلة اتصالا روحيا وثيقاً بالالهيات ، فقد أنشأت فنا مجرداً أسندت فيه إلى الكتابة دوراً خطيراً . وقد ظهرت على المؤسسات الدينية الأولى كتابات منحوتة ومحفورة . ونراها مرسومة فى الفسيفساء ، أو منقولة كتابة على الرقوق ، أو مرسومة بالذهب والألوان على الآنية والأقداح والمصابيح الزجاجية والخزفية . ونجدها محفورة حول صحن من الفضة . وهى أينما وجدت تذكر الآيات الدينية وتسبح بحمد الله . وهكذا نجد ذكر القرآن قد حل فى هذه الآثار محل الفن التقليدى

التصويرى . فالكتابة كفن أعلى تزدهر وتختلط بسائر الزخرف ، وهى تدعو المؤمن وتبلغه الرسالة العظمى .

وبمل القول أن الكتابة فى تلك الحضارات ، لا يمكن أن تكون لغير رجال الدين . فهى قلما تستخدم للرسائل اليومية . إنها قبل كل شئ إطار الكلمة الالهية وبوتقتها ، إنها تحمل تلك الكلمة بل هى مشبعة بها ، وهى على ذلك تظل من خواص الملمين المطلعين ، وهى الآلة المقدسة التى يستخدمها الكهنة ، كما أنها سوف تظل حافظة حارسة للسنة والتقاليد .

من ذا الذى يستطيع أن يخبرنا عن سبب اختيار ذلك الرسم لذلك الحرف؟ تحت أى تأثير خفى رسمت اليد ذلك الحرف على ذلك الشكل لا على شكل آخر ؟ ومن يصف لنا الرهبة التى كان يستشعرها المؤمن أمام تلك الرسوم الغامضة التى تظهر بها كلمة الله ؟ مما لاشك فيه أن تلك الرموز كانت دائماً على شئ من قوة التأثير ، وأن أشكالها كانت تحمل المتأمل فيها على الاحترام والاجلال ، كأى شئ مقدس .

وقد احتفظ الاسلام فى كل أطوار تاريخه بتلك القيمة الخاصة بالكتابة ، فى حين أن الحضارات الغربية ، وأهمها الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية ، لم تدرك البتة القيمة الروحية التى توجد فى الكتابة إلى جانب القيمة الفنية . ولذلك خرج من الرومان واليونان علماء وفلاسفة ، ولكن لم يخرج منهم أنبياء . والكتابة عندهم ، كما سبق أن ذكرنا ، مجرد وسيلة لنقل المعلومات . وإننا لا نجد البتة فى أية كتابة عندهم مهما قدم عهدها معنى الرسالة الروحية ، بل هى تتحدث إلينا بوساطة تلك الحروف الواضحة الجامدة الخاصة بها ، فى لغة البشر .

والكتابة التى ستستخدم فى الفن الاسلامى أكثر من غيرها باعتبارها كتابة زخرفية هى نفسها التى استخدمت فى نقل الكتاب المقدس . فالخط الكوفى ذو الحروف المنتهية بزوايا يظل وحده مستعملا فى الآثار حتى القرن الثانى عشر حيث يأخذ مكانه الخط الجارى العادى ، والقيمة الزخرفية واضحة كل الوضوح فى حروفه المشدودة القوية . غير أنها عندما ترص فى سطر واحد على عصيبة زخرفية أو على إطار ، يكاد الجزء الأعلى منها يظل فارغاً فى حين أن الجزء الأسفل يكون مثقلا . ذلك لأن الحروف التى ترتفع سيقانها محدودة (كالألف

واللام والكاف) والفنان فى تلك الحال يمد تلك السيقان ويبسط كما يشاء الحرف النهائى من الكلمة أو الحرف الذى لا يتصل فى أواسط الكلمة بالحرف الذى بعده ، ثم يملأ تلك المساحة الفارغة بعناصر نباتية . فيظهر «الخط الكوفى المزدهر» رائعاً عجيباً ، يختلط فيه العنصر الكتابى بالعنصر الزخرفى .

إن هذه الكتابة الزخرفية التى برع فيها الفنانون المصريون فى العصر الفاطمى ، لتبدو لنا على غاية من الجمال . ومن المحتمل جداً أن يكون الفنانون المصريون هم الذين ابتدعوا ذلك الفن . أما الذى لا شك فيه فهو أنهم كانوا أبرع من برز فى هذا الميدان . وتحتوى دار الآثار العربية على رسوس ممهورة يرجع تاريخها إلى عام ٨٥٨ م أى فى أوائل العصر الهجرى . وهى تزخر بالخط الكوفى المزخرف ، الذى يظل مع ذلك محتفظاً بقيمته الروحية .

وينتشر هذا النوع من الكتابة انتشاراً عظيما ابتداء من القرن الحادى عشر فى بلاد الشرق الأدنى وبالأخص فى مصانع أميدا وردخان . وحوالى عام ألف تتميز الزخارف ذات الكتابة الكوفية برشاقة وغزارة فى الرسوم لامثيل لها . وقيمة هذا الضرب من الفن تزداد على مر الأيام ، فنراه يستخدم لا فى الخشب فحسب ، بل فى الحجر أيضاً . وتعتبر الكتابة المنقوشة على الرخام الزخرف الرئيسى فى فن المعمار . فجامع الأزهر مثلا تمتلئ جوانبه بالكتابات الزخرفية المنقوشة بالرخام الأسود . ولاتمام تلك العملية لا بد أولا من حفر الحجر الأبيض أى حيطان البناء بدقة ومهارة ، ثم حشد الحفر بالكتابة التى تكون قد نقشت من ناحيتها على رخام أسود . والكتابة تنطبق باتقان عجيب على الحجر غير تاركة أية فتحة أو ثغرة بين هاتين المادتين اللتين صاغتهما يد الانسان معا ، حتى ليبدو أن الأثر قد أنجز بفعل الطبيعة لا بتدخل الانسان فيه . فجامع أصفهان الذى يعد من أروع الآثار وأفخمها بكسوته من الخزف الأزرق ، تغطيه شبكة من الكتابات تلتف على البناء كله (شكل ١) .

ومن الأمثلة الرائعة أيضاً بجمال زخارفها الكتابية مقصورة جامع قيرمان الذى استخدم الفنان فيه الخط الكوفى المزهر . وأخص ما تتميز به الكتابة هنا هو تعانق سيقان الحروف وتشابكها بحيث تكوّن شكلا زخرفيا شبيهاً بالسياج . وقد نتساءل هل ذلك مجرد زخرف ساذج أم هو سر غامض قصد إليه الفنان ؟ فنحن هنا أمام اتصال مباشر بين الزخرف ذاته وبين الكتابة.

فالحرف الذى يعتبر عنصراً كتابيا صرفا ، وصورة خالصة لعالم المجرد ، يبدع هنا أشكالا وصوراً لا علاقة لها بأصله . والخط الكوفى يصلح لهذا الزخرف المعارى بفضل ما يتميز به من تنوع الرسومات فيه . فهو يكوّن أشكالا جديدة توافق فى الوقت ذاته روح التحليل فى الدين الاسلامى ، والميل إلى إرسال النفس على سجيتها سابحة فى عالم الأحلام . ويجب أن نذكر أيضاً تلك الصور الصغيرة التى جمعت عبقرية الفنان فيها بين الصورة والكتابة بحيث يكونان وحدة لا تنفصل . كما يجب أن نذكر أيضاً تلك الملحقات من خزف أو معدن التى يرجع جمالها التقليدى إلى الكتابة التى تحيط بالأثر متضمنة آية من القرآن (شكل ٢ و ٣ و ٤) .

وإننا لنعجب كل الاعجاب بتلك الحضارات التى أنشأت فنًا لم يجد غيرها فيه إلا رموزاً وعلامات ذات فائدة عملية . ولا بد من عقل ميتافيزيقى ليدرك ما تخفى تلك العلامات من أسرار ، وما تحتوى الكتابة من معجزات ، حتى يستطيع بعد ذلك أن ينشئ فنا تتضمن فيه القيم الجمالية التى تؤثر فى الحواس تلك القيمة الخاصة التى تخاطب الروح .

والواقع أن الكتابة كالرمز يعتبران العنصرين الأساسيين فى الفن الاسلامى . فالعقل الشرقى يميل إلى التجريد ، وقد أحس بما فى الكتابة والرمز من قيمة زخرفية تحل محل الزخرفة الغربية المبنية على الأزهار والحيوان . فالرجل الغربى يجد أمراً عجيباً أن تستعمل كعنصر فنى تلك العلامات المنعدمة الشكل التى جعلت أصلا لنقل رسالة ما ... كما أنه يجد عجيباً أن يتحول الرمز الذى لم يكن يعرف عن أصله الدينى والسحرى والصوفى شئ ، إلى زخرف تجمل وتحلى به أسطح الأشياء . غير أنه إذا ما انصرف عن تلك النظرة النفعية ، استطاع أن يدرك أن تلك العلامات تحمل أقدس تراث إنسانى ، وأن أعظم ما أنشأ الانسان ، وأسمى ما جال فى خاطره من فكر وجاش فى قلبه من إحساسات ، قد خلدته تلك العلامات التى تثير قراءتها فينا أنبل العواطف وأفعمها قوة . ومن ثم نفهم أنه وجد من آمن بأن تلك العلامات المكتوبة تشع قوة سحرية خفية .

ونحن نعلم أن هناك نوعين من الأديان : الأديان الوثنية ، والأديان المنزلة . والآلهة فى الأديان الأولى صادرة عن الانسان ذاته تعتبر إسقاطاً

لآلامه وآماله . وهى تعيش بين البشر وفى قلوبهم ، يصورها الانسان على صورته ، ويعتبرها مظاهر من قوى الطبيعة . أما فى الأديان المنزلة ، فتظهر روح الله للانسان المختار أى للنبى فتبلغه الرسالة لكى يذيعها بدوره بين الناس لينضموا إليه . فالعلاقة المقدسة بين البشر هى الكلمة ، تلك الكلمة التى يبشر النبى بها شعبه وتظل المحور الروحى للجماعة ، ويحفظ الكتاب المقدس تلك الرسالة التى لولا قراءتها ومعرفتها لما قامت للدين قائمة . ونحن نلاحظ أن الكتابة أصبحت عنصرا فنيا هاما فى تلك الحضارات وفى تلك الأديان المنزلة ، وأن الشعوب التى اختارها الله لكلمته هى التى تسند للكتابة تلك القيمة الروحية التى لا يعرفها الوثنيون حتى عندما تبلغ حضاراتهم الذروة من الاتقان والجمال اللذين نعجب بهما كل الاعجاب فى الآثار الفرعونية والبابلية واليونانية .

ونميل إلى الاعتقاد بأن مذهباً دينيا أساسه الكلمة الالهية التى بشر بها النبى المختار ، تكون العلامة التى تستخدم فى تخليد رسالته ، أعنى الكتابة مملوءة قيمة خفية .

ومما يجدر ملاحظته أن الكتابة الشرقية لا تتكون من حروف جامدة لا أثر للذاتية فيها ، كما هى الحال فى الحروف اللاتينية مثلا ، ولكنها تمتلىء حياة وحركة ، وسلاسة وتنوعاً ، شأنها شأن اللغات الشرقية نفسها التى تقرب جدا من الغناء .

يجعل الرب من نبيه بوقاً ليسمع الشعب صوته ويبلغه رسالته ، التى تتخذ شكلا ظاهراً فى الكتابات الموجودة فى الكتب المقدسة . والوثنى ينظر إلى تلك الرموز والحروف فلا يجد إلى قراءتها أو إلى فهمها سبيلا ، مع أن فيها الدليل على وجود الله ورسالته التى بوساطة تلك العلامات تبلغ إلى شعبه فيتجمع الشعب حول الاله غير المنظور الذى تجلى له بالكلمة الالهية فقط . وكمثل الكلمة تعتبر تلك الحروف مظهراً قويا من مظاهر وجود الرب ، والضليع الملم وحده يستطيع أن يقرأها وأن يفهمها ، أما الوثنى فيحترمها ويجلها ، إن تلك الكلمة أضحت علامة مرئية ، وإننا نميل إلى الأخذ بهذا المعنى لتفسير قول الانجيل : « فى المبدء كانت كلمة » .

هيلمريه زالوشر

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

مسودّات الشعراء

أى صديقى العزيز

إن هذا الذى قلته لى فى خطابك قد سرنى كثيراً . أتقول إنك احتفظت بمسودة قصيدة لصديقنا الشاعر كان قد نسيها عندك ، فاستأذنته فى الاحتفاظ بها فأذن لك ، فأنت من وقت لآخر تنظر فيها !

ثق يا صديقى أن صديقنا الشاعر هذا قد آثرك بشئ ثمين حقاً لا يؤثر به الشعراء أصدقاءهم . لأن المسودة كما تعلم هى عرَق الشاعر الذى لا يحب أن يشمه غيره ! هى الوثيقة التى تثبت أنه لم يطلع على الناس بهذا الشعر إلا بعد كثير من المصابرة والمداورة ، على حين يحب الشاعر أن يبهر الناس شعرُه مطبوعاً كأنه جاءه وحياً من السماء فتلقاه وأذاعه ! ولقد كنت أحب أن أذكر لك الطاهى الذى لا يريد أن يدخل الناس عليه مطبخه لأنه يخشى أن تقل شهيتهم للطعام إذا هم رأوه يصنعه ، لولا أنى أخشى أن تتهمنى بقلة الذوق فى هذا المثل . . . على أنى أعلم أن صديقنا الشاعر هذا طيب القلب سمح النفس لا يهمه أن يعلم الناس أنه ملهم ، وأن هذا الذى راع الناس ليس إلا عفو خاطره . . . بل لعل هذا الصديق الطيب القلب يحب أن يرى أصدقاءه كيف يتعثر وكيف يرفضّ جبينه بالعرق وهو يجاهد ويكابد ، وإنه ليطمع دائما فى أن يرى الناس مشفقين عليه مترحمين له ماسحين بأيديهم على جبينه ! هكذا عرفناه يظهر من باطن أمره أكثر مما يظهر غيره من ظاهره... مفرطاً دائماً فى كل شئ ، ساخراً دائما من كل شئ ، حتى من نفسه فى كثير من الأحيان ... ألا تذكر كيف كان يلقانا فى بيته فنحس بعد قليل من الجلوس إليه أننا جزء من بيت صديقنا هذا !

فلا عجب إذن أن ينسى عندك مسودة قصيدته ، بل لعله لم ينسها ولكن رآها قبل قيامه فتثاقل عن أخذها بأساً منها أو سخرية بها ، أو لعله

تركها لك عامداً لتقرأها فتذكر القصيدة وتحدثه عنها إذا رأيته ... وأيـًا ما كان الأمر فان الذى أردت أن أتحدث به إليك غير هذا . إنما أردت أن أسألك أأردت من النظر فى هذه المسودة أن تتسلى وتضحك من عبث الشعراء ، أم أردت حقا أن تتخذها معرضاً من معارض النفس الانسانية فى بعض حالاتها ؟ وهل قارنت بينها وبين القصيدة المطبوعة منها إن كانت طبعت ؟ فلعلك رأيت كيف تنتهى قصيدة من القصائد أحياناً إلى صورة مخالفة لما كان فى مسودتها ! ولعلك رأيت كيف تتغير الكلمات ، وتتبدل الأفكار ، ويختلف الشعور ، وتتشكل الصور ! ولعلك وقفت على بعض هذا الصراع الفنى الذى ينتهى بالشاعر إلى النجاح أحياناً وإلى الاخفاق أحياناً أخرى ! أو لعلك رأيت صنعة هؤلاء الشعراء وما فيها من جهد واحتيال !

وقلت لى فى خطابك — وما أصدق ما قلت — : «ولو أطلعنا شعراؤنا على مسودات قصائدهم لقدموا إلينا بذلك خدمة جليلة ونفعاً عظيما . لأنها فى الحقيقة المرآة الأولى الصادقة لحالاتهم النفسية وتصوراتهم الشعورية ... فهذه الكلمات التى شطبت بأيدى الشعراء فى مسوداتهم كانت خليقة أن تعيش وأن تظهر لولا غرور بعض هؤلاء الشعراء وأنانيتهم .» نعم يا صديقى ! فليت لنا هذا الشاعر الذى يكتب لنا مع قصيدته كيف كتبها ، وما هى الفكر التى تواردت عليه أثناء كتابتها ، وأيها كان أولا وأيها كان أخيراً ، ولماذا عدل بهذا عن ذاك ، وغير هذا مما يعرفه الشعراء حين يكتبون قصائدهم ... وما دام الشعراء أحبوا أن يقفوا الناس على مشاعرهم المختلفة ، وتجاريبهم الصادقة ، فلماذا لا يرضون لأنفسهم أن تنشر مسوداتهم والمسودة فى الحقيقة مظهر التجربة النفسية الحقة التى قام بها الشاعر ؟ أم تراهم يمزقون هذه المسودات أو يسترونها لأن الشاعر ككل إنسان فى المجتمع لابد له من الظهور بين الناس مصقولا مهذباً ؟ لاأدرى ! ولكنهم إن نشروا هذه المسودات ، فستكون هى الأخرى هيا كل فنية خليقة بالنظر والتأمل فيما أعتقد ، وقد تثير فى النفس ما لا تثيره القصائد المطبوعة !

أنظر ، ألا ترى فى هذه المسودة ميداناً نزلت إليه كلمات كثيرة ، فأما بعضها فقد قدر له النجاح والنجاة ، على حين صار البعض الآخر أشلاء متناثرة : فهذه الكلمة تراها مطعونة بسهم ، وتلك قد تكسرت فيها النصال على النصال كما يقول المتنبى ، وهذه قد طمسها الشاعر فى بركة صغيرة من الحبر ، ألا تثير

مثل هذه اللوحة فينا مشاعر كثيرة وتدلنا على شخصية الشاعر وحالته حين كان يكتبها ؟

فمسودة صديقنا لابد أن تكون قد أثارت فى نفسك الشئ الكثير . فخبرنى فى أى الصور كان يبدو لك صديقنا ؟ أرأيت إلى كثرة الكلمات المشطوبة عنده ؟ ربما كان بعضها يستحق ما نزل به ، ولكن ربما كان بعضها الآخر شطبه الشاعر بالرغم عنه ! وأنت تعلم أن الشعراء يضطرون إلى ذلك لقيود الشعر التى ترهقهم وتضطرهم فى كثير من الأحيان إلى الخروج عن طبائعهم ، فيقولون ما لم يكن فى نيتهم أن يقولوا ، ويتركون ما أرادوا أن يقولوا . وقد تذكر قول هذا الشاعر العربى الذى سئل فى شعره فقال : «ما أرضاه منه لا يأتينى ، وما يأتينى لا أرضاه . » فلعل فى هذه المسودة ما كان يرضاه شاعرنا لولا أنه لم يأته ، ولعل فيها كذلك ما جاءه ولم يرضه ...

فان وجدت فى النظر إلى مسودة صديقنا هذا لذة ونفعاً فاطلب إليه غيرها . ومن حسن الحظ أن كثيراً من الشعراء صديق لك ، فتستطيع أن تجمع بعض هذه المسودات وتكوّن منها مجموعة لمثل هذه الدراسة اللطيفة الطريفة ... ضع مسودة القصيدة أمامها ، وانظر إلى ما اختاره الشاعر منها وما لم يختره ، ومعانيه هنا ومعانيه هناك ، وحبذا لو كان عندك أكثر من مسودة للقصيدة الواحدة كما يحدث فى كثير من الأحيان ، فتستطيع أن تؤرخ لهذه القصيدة تاريخاً أدبياً على نحو جديد ، فترى الحالات التى مرت بها ألفاظها ومعانيها ، وترى ما عسى أن تدل عليه من شخصية الشاعر ...

ولا شك أن كثيراً من الناس يحبون أن يروا مثل هذه المجموعة لأننا نحب دائماً أن نرى تجارب بعضنا بما فيها من مظاهر النجاح ومظاهر الاخفاق أيضاً ... نحب أن نرى بعض المعانى المبتورة أو الألفاظ المطموسة . فانها قد تثير فى نفوسنا شيئاً من التطلع فنشفق أحياناً ونشمت ونضحك أحياناً أخرى ... على أن محاولتك أنت لمعرفة أصول هذه الكلمات المطموسة أو المشطوبة وتخمينك وظنونك تجربة هى الأخرى يحب الناس أن يروها ! فهيا إذن ياصديقى واطلب من أصدقائنا الشعراء بعض مسودات قصائدهم من أجل هذه الدراسة فمن يدرى !

تأمل يا صديقى جيداً هذا التغيير وهذا العبث : فهذا الشاعر يخط فى مسودته صورة من الصور ، وذاك يرسم خطوطاً تتجه هنا وهناك دون معنى ،

ثم تمثل هذا الشاعر وهو يخط هذا الخطوط ، ويعبث مثل هذا العبث ، فقد تقول إن هذا نتيجة إخفاقه فيما طاب من معنى أو لفظ فصارت يده تصنع شيئا وعقله يجرى وراء شئ آخر ، أو قد تقول ربما أراد أن يعوض شعوراً بنقص فأرادت يده أن تحقق ما لم تحققه شاعريته ! من يدرى ؟

وقد ترى كلمات مكتوبة بلهفة على حين ترى غيرها أبطأ فى كتابتها ... وقد تعرف سر هذا . فان اللمحة الشعرية تجعل يد الكاتب تكتب بسرعة فائقة على حين يبطئ القلم ويثقل إن أبطأ الذهن وثقل ...

وقد ترى كلمات متناثرة كتبها الشاعر على مسودته ليعود إليها ، فأما بعضها فأتيح له الظهور والاستقرار فأصبح الناس يروونه ، لأنه انسجم مع غيره من الألفاظ وزناً ومعنى ، وبعضها الآخر بقى فى المسودة . فلننظر فيه فقد يستحق منا شيئاً من العطف والاشفاق ... وإن لشخصياتنا وسائر أعمالنا لمسودات ليتها مكتوبة ! إذن لعرفنا حقيقة علاقاتنا ولمسنا الخطوط التى تربطنا بعضنا ببعض ! لكنا لا نظهر فى المجتمع إلا بمشاعر مصنوعة وشخصيات مطبوعة ! ومع ذلك فنحن إذا حذقنا علم المسودات المكتوبة فقد نستطيع بعد ذلك أن ندرس المسودات الشفهية عن أحاديث الناس وحركاتهم .

وهبك يا صديقى لا تقدر على استبطان هذا وغيره ، فاجمع هذه المسودات وانشرها كما هى دون تعليق منك . فاننا نحب أن نراها كما هى لنأخذ لأنفسنا منها ما نحب أو ما يهدينا إليه ذكاؤنا ، أو على الأقل فانشرها ليرى كل منا نفسه فى جميع حالاتها حين تجاهد فى الوصول إلى شئ فنرى النفس بين قوتها وضعفها . ونحن فى حاجة دائما إلى إثارة الاشفاق فى قلوبنا نحو هؤلاء الذين يعانون ما يعانيه الشعراء والكتاب وأصحاب الفنون !

ومن يدرى يا صديقى ! فأنت بنشرك لهذه المسودات قد تقدم شيئاً حبيباً إلى الشعراء أنفسهم . فلا أظن هؤلاء الشعراء يتنكرون لمسوداتهم لأنهم تركوها إلى غيرها . وإنى لتحضرنى هنا قصة لأبى تمام ، هذا الشاعر الذى طالما حدثتك عنه . فقد وقع له مرة بيت من الشعر ردئ فى قصيدة كل أبياتها حسن جيد ، فقال له صديقه فى ذلك فأجابه : أتراك أعرف به منى ؟ إن أشعارنا كأولادنا ، منهم النابه ومنهم الضعيف . فالأب يعجب بالنابه ولا يخلو قلبه من حب الضعيف ... أرأيت يا صديقى إلى هذا الشاعر الكبير القلب كيف

لم يتنكر لبيت ضعيف وقع بين إخوة له أقوياء ؟ لا أدرى كيف انتقل هذا البيت الضعيف من مسودة أبى تمام إلى قرطاسه الذى بيض فيه القصيدة . فأنت تعرف أن الخط له دخل فى هذا أيضاً . ومن لنا بمسودة أبى تمام تلك فنرى ماذا كان يصنع هذا الشاعر المصنّع ، أو لنرى على الأقل كيف وثب مثل هذا البيت من مسودته وكان خليقاً أن يظل بها !

لكن أبا تمام كان فيه الشئ الكثير من صفات صاحبنا لا يتحرج من شئ ولا يقف عند حد فى شئ ... ولعل اتجاهه فى الشعر هذه الوجهة التى اتجهها لم يكن إلا نتيجة سماحته وعدم اكتراثه . بل لم يكن إلا نتيجة سخريته! نعم سخريته التى جعلته لا يقف عند حد فى الاستعارة والمعنى ، وكأنما كان يقول شعره ليسخر من عقول الناس حين يرونه يأتيهم بما لم ينتظروا ... من الجديد فى ثوب القديم ومن القديم فى ثوب الجديد ، وكيف يجتمع أو يمكن أن يجتمع فى كل معنى يخطر بالذهن الضدان . وهكذا كانت سخرية هذا الشاعر وسماحته ، مع ذكائه ورأيه ، حافزاً له على تجاوز كل مألوف فى الشعر ليشبع هذه النزعة فى نفسه أو تلك الصفة فى فطرته . أليس عجيباً أن يختار هذا الشاعر ديوان الحماسة فيجئ هذا الاختيار فى الشعر المطبوع وشعره هو شعر مصنوع ! وكان يوماً يختار من أشعار المحدثين فنظر إلى ديوان ابن أبى عيينة ورمى به وقال : هذا كله مختار . وشعر بن أبى عيينة شعر سهل مطبوع ، حتى يقال إنه يخرج شعره كما يخرج نفسه ! بمَ نعلل هذه الظاهرة إذن إن لم تكن هى الأخرى حلقة من حلقة سماحته وسخريته ؟ وكم لهذه السماحة ولتلك السخرية من مظاهر فى حياة هذا الشاعر وفنه !

ولكنى لم أرد أن أحدثك عن أبى تمام ، وإنما ساقنى إليه هذا الخبر الذى ذكرته لك من إثباته بيتاً ضعيفاً فى قصيدة كل أبياتها حسن جيد ... ليس لهذا عندى من تفسير إلا أن أرد ذلك إلى هذه الخصلة التى حدثتك عنها ...

ولو قد أتيح لنا أن نرى مسودة أبى تمام إذن لرأينا كيف عبّر هذا الشاعر عن نفسه أولا ، ثم كيف عبّر عن فنه الذى عشقه وتحدى به ثانيا . ولابد أنه غيّر كثيراً .

محمد عبده عزام

الآراء التي تسيرنا

إن هذا العالم الذى نعيش فيه تسيره مجموعة مختلفة من الآراء ، بعضها يدفعنا إلى الأمام وبعضها الآخر يدفعنا إلى الخلف . الآراء الأولى تعمل لتقدم الانسانية وتعيننا على تحقيق ما نصبو إليه . والآراء الأخرى تقف عقبة فى سبيل التقدم وتعوقنا عن تحقيق مانرمى إليه من أغراض . وقد كتب الفيلسوف الانجليزى المعاصر برتراند رسل بحثين موجزين تعرض فى أولهما للآراء التى آذتنا ، وفى ثانيهما للآراء التى عاونتنا . وقد رأيت أن أقدم هذين البحثين فى مقالين أخص بهما قراء هذه المجلة . وسوف أعرض فى هذا المقال للآراء الفاسدة التى تسود العالم وتعوق تقدمه .

إن النكبات التى حلت بالانسان خلال العصور التاريخية جميعاً ترجع إلى عاملين أساسيين : أولهما البيئة ، وثانيهما العقائد الخبيثة التى يبثها بيننا بعض من يتزعمون قيادة الفكر الانسانى . فقد كان الانسان فى العصر القديم يقاسى المجاعات بين الحين والآخر من أثر العوامل الطبيعية ، ولكنه اليوم يقاسى الحرمان والجوع بسبب الآراء الفاسدة التى يسير عليها من يتولون الأمر منا . ولا مراء فى أن الآراء الفاسدة أقوى أثراً من البيئة فى عرقلة التقدم البشرى . ويكفى أن نفكر فيما آل إليه أمرنا بعد الحرب العالمية الأخيرة لندرك مقدار ماجناه علينا كبار الساسة فى العالم . فالانسان — كما يقولون — أكبر عدو للانسان ، وأكثر ما يصيبنا من شر مصدره مافى عقل الانسان من غباء ومافى نفسه من حب للشرّ دفين .

إن كثيراً من ميولنا سافل دنىء ، وما أكثر مانصوغ من رأى فاسد ومبدأ غير قويم حجباً نستر بها هذه الميول .

فكان يُحكم مثلا على الزنادقة فى لشبونة فى العصر القديم بالإحراق العلنى . وكان يحدث أحيانا أن تخفف هذه العقوبة بخنق المذنب قبل إحراقه

تخفيفاً للآلام التى يعانيها . فكان هذا التخفيف يسىء إلى الجمهور أشد الاساءة ؛ لأن الآهات والأنات التى كان يصيح بها المذنب من فعل اللهب تسرّى عن المتفرجين وتبعث السرور فى نفوسهم . وهذه المتعة التى كان يجدها الجمهور فى تعذيب الآخرين كانت تدفعهم إلى الاعتقاد بأن إحراق الزنادقة أمر مشروع . وكذلك كانت الحال — وما تزال — فى الحرب ذاتها ؛ فان قوماً أشداء متوحشين يستمتعون بالقتال وبخاصة إن كانوا ظافرين غير خاسرين . وهم من أجل هـذا يحاولون إغراء مواطنيهم بأن الحرب حق مشروع . وكذلك المربى الذى يرى ضرورة استخدام العصا كثيراً ما يدفعه إلى هذه العقيدة حبه إيقاع الأذى بالأطفال .

ومن اليسير أن نضرب الكثير من الأمثال نثبت بها صدق النظرية التى تقول بأن الآراء التى تسوّغ القسوة مبعثها رغبة فى القسوة كامنة . وأكثر الآراء العتيقة التى نمجها اليوم تسوّغ إيذاء الآخرين . وقد كان «البنج» عند أول اكتشافه واستخدامه يعتبر شرا من الشرور ؛ لأنه محاولة لمقاومة الارادة الإلهية التى تقضى بالعذاب والألم ! وكان يظن بالمجنون مس من الشيطان ، ولا سبيل إلى إبعاد هذا الشيطان إلا بايلام المجنون ، وإزعاج الشيطان الذى يتلبس به . ومن ثم كان المجانين يعاملون بمنتهى القسوة والتوحش . وكذلك كان يعامل الأبناء والزوجات والحيوان . ومرد ذلك كما قلنا إلى ماعند الانسان من رغبة فى إيقاع الأذى بالآخرين ، وهو مايطلق عليه اسم «السادزم» .

ولعل أقوى الآراء أثراً فى تأخر الانسان هو ما نستطيع أن نسميه بالخرافات الدينية ؛ فقد كانت بعض الأديان القديمة مثلا تزعم أن التضحية البشرية تعود على الفلاحين بمحصول زراعى وافر . وكانت هذه الظاهرة تعلل فى مبدأ الأمر بفعل السحر ، ثم علات بعدئذ بأن دماء الضحايا تسر الآلهة الذين كانوا من غير شك على صورة القوم الذين يعبدونهم . وكذلك جاء فى العهد القديم أن الدين يحتم إبادة الشعوب المهزومة إبادة تامة ، وأن إعفاء ماشيتهم وأغنامهم من القتل إثم من الآثام . وكان المصريون القدماء يعيشون فى رعب مما ينتظرهم من عذاب وآلام فى الحياة الأخرى .

وأوجدت المسيحية طائفة من القديسين المتشائمين امتنعوا عن الملاذ الحسية

واعتزلوا الناس فى الصحراء وحظروا على أنفسهم اللحم والنبيذ وعشرة النساء ، وحسبوا اللذة الروحيـة ، أسمى من اللذة البدنية . وكان من أمتع ملاذهم الروحية أن يتأملوا العذاب المقيم الذى سوف يتعرض له الكفار والزنادقة فى الدار الآخرة . إن من مساوىء التزهد أن الزاهد لايرى فى الملاذ ضرراً غير ضرر البدن . ولكنا يجب ألا نغفل عن أن اللذة الروحية البحتة قد تكون أسوأ الملاذ ، كما قد تكون خيرها . ونسوق لذلك مثالا الشيطان فى الفردوس المفقود لملتن ، فان أسمى ملاذه أن يتدبر مايستطيع أن يلحق بالانسان من أذى ، وفى ذلك يقول شيطان لملتن : «يستطيع العقل أن يجعل من الجحيم نعيما ومن النعيم جحيما . » وهو فى هـذا لايختلف عن الرجل ينعم فى جنته بالنظر إلى عذاب الكفار فى الجحيم . ومن المؤكد أن احتقار الزهاد للملاذ الحسية لم يؤد بهم إلى الشفقة والتسامح أو غير ذلك من الفضائل التى يسوقنا إلى الرغبة فيها عدم الاعتقاد فى الخرافة . بل الأمر على نقيض ذلك ، فان المرء حينما يعذب نفسه يحس أن من حقه من أجل ذلك أن يعذب الآخرين ويدفعه ذلك إلى قبول أية عقيدة تؤكد له هذا الحق .

ولا يقتصر هذا اللون من القسوة الذى يدفع إليه الزهد على العقائد المسيحية الصارمة التى قلما يعتنقها اليوم أحد ، بل لقد أثبت العالم غيرها من طرازها . فقد كان النازيون قبل استيلائهم على السلطة يعيشون عيشة شاقة، مضحين براحتهم ومتعتهم ، متبعين فى ذلك مبادىء نيتشه التى تدعو إلى الشظف والتقشف . بل إن النازيين حتى بعد استيلائهم على السلطة كانوا يرددون هذه العبارة : «المدافع قبل الزبد» وفى هذا الرأى تضحية بمتعة الحس فى سبيل المتعة الذهنية فى النصر المرتقب ، وهى المتعة عينها التى يتعزى بها شيطان ملتن وهو يحترق بنيران الجحيم . وهذا الضرب من التفكير هو بعينه الذى يسيطر على عقول الاشتراكيين المتحمسين الذين يرون أن الترف رذيلة ، وأن الجد فى العمل هو واجبنا الأول ، وأن الفقر الشامل هو الطريق المؤدى إلى العصر الذهبى . إن الجمع بين الزهد والقسوة لم يختف مع ضعف العقيدة المسيحية ، وإنما اتخذ له صوراً جديدة لاتتفق وروح المسيحية ؛ ولا تزال هذه العقلية تسير الكثيرين من عباد الله .

وكلنا يعلم أن الشر لايلحق بالآثم وحده ، ولكنه كثيراً مايلحق كذلك

بالبرىء . ومن أجل ذلك قال الناس فيما مضى : لا بد أن يكون هناك من يحب الشر للشر . ومن ثم نشأت العقيدة فى الشيطان والمشعوذ والساحر . وكانت الساحرة فى العصور الوسطى هى المرأة التى تؤذى غيرها لمجرد الحقد وحب الايذاء لا لرغبة فى فائدة تجنيها . وقد أعطتنا العقيدة فى السحر حتى منتصف القرن السابع عشر منفذاً نطمئن إليه تنفذ منه ميولنا نحو القسوة . وعلى هذا الأساس كانت محاكم التفتيش لا تعاقب الساحرات وحدهن ، ولكنها كانت تعاقب كذلك أولئك الذين لا يؤمنون بالسحر . ولما تقدمت العلوم وهدتنا إلى كثير من الأسباب الطبيعية بددت العقيدة فى السحر ، ولكنها لم تستطع أن تقضى على المخاوف والاحساس بالقلق التى كانت الدافع إليها ، فانتقلنا من خوف السحرة إلى خوف الشعوب الأجنبية .

وأنتقل الآن إلى باعث آخر من أقوى البواعث على بث العقائد الفاسدة . ذلك هو الحسد . فالفقير يحسد الغنى ويتهمه بشدة الحرص والبخل ، والمرأة تغار من المرأة ، والموظف المتخلف يغار من زميله المتقدم ، ويعزو تقدمه إلى ملقه لا إلى قدرته . وقد أدى الحسد إلى نتائج سيئة خطيرة فيما يتعلق بالفوائد الاقتصادية التى تعود على الأفراد والأمم على السواء . والقصة التالية تمثل لما أقول :

كانت هناك فى وقت من الأوقات مدينة متوسطة الحجم بها عدد كاف من القصابين والخبازين ومن إليهم . وقد فكر أحد القصابين المبالغين فى الجد والعمل ذات يوم أنه يضاعف أرباحه لو أن كل قصاب غيره قد أفلس واحتكر وحده سوق اللحم . فخفض من سعر اللحم وأقبل عليه المشترون ، ونجح فيما كان يصبو إليه ، برغم أن خسائره كادت تستنفد كل ما لديه من رأس مال ورصيد . وقد طرأت هذه الفكرة عينها لخباز مجد وحقق بها ما يريد واختفى من السوق كل خباز سواه . وحدث مثل ذلك فى كل السلع التى كانت تباع فى السوق . وكان كل من احتكر صنفاً من الأصناف يسعد بأمل تكوين الثروة . بيد أن القصابين المفلسين لم يعودوا لسوء الحظ قادرين على شراء الخبز . وكذلك لم يعد الخبازون المفلسون بقادرين على شراء اللحم ، وقد اضطروا إلى الاستغناء عن عمالهم ، واضطر هؤلاء العمال إلى الهجرة إلى بلد آخر . فكانت النتيجة أن القصاب والخباز وغيرهما من أصحاب الاحتكار أصبحوا يبيعون أقل

مما كانوا يفعلون فيما سلف من الأيام . إنهم نسوا أن الرجل قد يضارّ على يدى منافسيه ولكنه ينتفع بزبائنه ، وأن الزبائن يتكاثرون كلما ارتفع مستوى العيش العام . لقد جعلهم الحسد يركزون انتباههم فى منافسيهم وينسون تمام النسيان مصلحتهم التى تتوقف على الزبائن .

هذه قصة خرافية ، والمدينة التى تحدثت عنها لم يكن لها وجود . غير أنك لو استبدلت بالمدينة العالم وبالأفراد الأمم ، كانت لك صورة من السياسة الاقتصادية التى يسير عليها العالم فى هذه الأيام . فإن كل أمة تعتقد أن مصلحتها الاقتصادية تتعارض مع مصالح غيرها من الأمم ، وأنها تكسب إذا أفلس غيرها . وكان الانجليز فى أيام الحرب العالمية الأولى يقولون : إن التجارة الانجليزية تفيد من كساد التجارة الألمانية ، ويعتقدون أن هذه النتيجة وحدها من خير ثمار النصر . وبالرغم من أن انجلترا فى الوقت الحاضر تحب أن تجد لها سوقاً فى القارة الأوربية ، وبالرغم من أن الحياة الاقتصادية فى غرب أوربا تتوقف على فحم منطقة الرهر ، فان الانجليز لا يسمحون للصناعات القائمة على فحم الرهر ، بأن تنتج أكثر من جانب يسير مما كانت تنتجه قبل هزيمة الألمان . إن فلسفة الاقتصاد القومى التى تعم العالم بأسره اليوم تقوم على عقيدة فاسدة ، وهى أن المصلحة الاقتصادية للأمة تتعارض مع المصالح الاقتصادية للأمم الأخرى . وهذه العقيدة الفاسدة تولد العداوات والمنافسات الدولية ، فتكون سبباً من أسباب الحرب . وهى بهذه الطريقة تصبح حقيقة ثابتة ؛ لأن تضارب الأمم فى مصالحها يصبح أمراً واقعيا بمجرد نشوب الحرب . ولو أنك حاولت أن تفسر لرجل يشتغل مثلا بصناعة الصلب أن انتعاش الأمم الأخرى قد يكون فى مصلحته ما أمكنك إقناعه ؛ لأن الأجانب الذين يعرفهم معرفة جلية ، هم منافسوه فى صناعة الصلب وحدهم . أما غيرهم من الأجانب فهم أشباح لاتربطهم به صلة عاطفية من أى نوع .

ذلك هو الأصل النفسانى للاقتصاد القومى وللحروب والمجاعات المصطنعة وغير ذلك من الشرور التى سوف تقوض مدنيتنا وتأتى عليها . اللهم إلا إذا اقتنع الناس بعقائد غير هذه أوسع منها أفقاً وأشد منها تعقلا فيما يتعلق بتناول الصلات بينهم .

ومن الأسباب الأخرى التى تولد العقائد الفاسدة المؤذية حب التعالى والتفاخر . يفخر المرء بقوميته ، كما يفخر بعنصره ، وبجنسه ، وبالطبقة التى ينتمى إليها ، وبالمذهب الذى يعتنقه . فما أكثر ما أصاب العالم من احتقار الدول الكبرى للصغرى ، ومن التنافس بين انجلترا وألمانيا ، أو المجر ورومانيا مثلا ! وقد أوذينا من الزهو بالعنصر أكثر مما أوذينا من الزهو بالقومية . فذو البشرة البيضاء يزدرى ذا البشرة السوداء وإن يكن هذا الأخير أرقى منه عقلا وأكثر منه تمدناً . والانجليزى يحتقر الهندى مهما تكن ثقافته . والواقع أننا لا يمكن أن نعتقد فى تفوق عنصر على آخر لأى سبب من الأسباب . ولا تزكو هذه العقيدة إلا إذا عززتها السيادة الحربية . فاليابانيون كانوا يحتقرون الجنس الأبيض عندما كانوا ظافرين فى الحرب ، وهى استجابة للاحتقار الذى كان يحس به الجنس الأبيض إزاء اليابانيين أيام ضعفهم . ولكنا مع ذلك لانتكر أن الزهو العنصرى قد لا تكون له صلة بالعظمة الحربية . فالاغريق كانوا يحتقرون البرابرة حتى فى العهود التى كان فيها البرابرة يبذونهم فى القوة الحربية . وكان المستنيرون من الاغريق يعتقدون أن الرق جائز مادام الرقيق بربريا والسيد يونانيا . وأما إذا انقلب الوضع فان ذلك يكون مضاداً للطبيعة . وكان اليهود فى الزمان القديم يعتقدون بتفوقهم على غيرهم من العناصر الأخرى . فلما أصبحت المسيحية دين الدولة اعتقد المسيحيون أنهم أرقى عنصراً من اليهود . ولامراء فى أن الضرر الذى يلحق بنا من أمثال هذه العقائد لاحد له . ويجب أن تتجه التربية إلى إزالتها . ولكنا نأسف أن نقرر أننا لا نفعل ذلك ولا نحاوله .

ولا ننسى أن نذكر هنا نظام الطبقات فى الهند ، ذلك النظام الذى نجمت عنه الغزوات المتتالية التى قامت بها العناصر «الراقية» من أهل الشمال ، وهو نظام لايقره العقل السليم ، كما لا يقر مايزعمه ذوو البشرة البيضاء لأنفسهم من تفوق وارتقاء .

ومن الأمثلة العجيبة للتفاخر مايعتقده بعض الناس —بل أكثر الناس— بتفوق الذكور على الاناث . وهى عقيدة لا تعترف بها الهيئات المسئولة اليوم فى بلدان الغرب . ولم يكن هناك فيما أرى مايدعو إلى الاعتقاد بالتفوق الطبيعى للرجل على المرأة غير قوة عضلاته . وقد رتب الرجل على

ذلك أنه لابد أن يكون أقوى عقلا وأقدر على الابتكار وأقل تأثراً بالعواطف من المرأة وغير ذلك . وتحت هذا التأثير قرر علماء التشريع أن ذهن الرجل يتميز على ذهن المرأة . ولما ظفرت المرأة بحق التصويت تلاشت كل البراهين العلمية على تفوق الرجل ، وأخذ النـاس يعتقدون بالمساواة العقلية بين الجنسين .

وقد كان لسيطرة الرجل على المرأة آثار سيئة ؛ فقد جعلت أشد العلاقات الانسانية إخلاصاً — أعنى الزواج — علاقة سيد ومسود بدلا من أن تكون علاقة بين شريكين متساويين . ومن ثم ترى الرجل يتغزل فى كل امرأة إلا زوجته . وقد فرضت سيطرة الرجـال على الزوجات شيئاً من العزلة جعلهن غبيات لا يؤنسن أزواجهن . بل ان المجتمع لينبذ المرأة المؤنسة المغامرة . ولما كانت المرأة التى تريد أن تحتفظ بشرفها — كما يرى الرجال الشرف — مملة لا تسرّى ولا تلهم فان أرقى الرجال مدنية فى أرقى البلدان مدنية كثيراً ما يمارسون العـادات الجنسية الشاذة . ولما كان الزوجان فى أكثر الأحيان غير متكافئين ، قويت عند الرجال شوكة السيطرة وعانى المجتمع من جراء ذلك ماعانى .

هذه التفرقة بين الرجال والنساء وما ترتب عليها قد انتهى عهدها فى أكثر البلدان المتمدنة ؛ غير أنه لا بد أن ينقضى وقت طويل قبل أن يتعلم الرجال والنساء على السواء كيف يكيفون سلوكهم تكييفاً يلائم الحالة الجديدة تمام الملاءمة . ومن الثابت أن تحرير المرأة كثيراً ما تعقبه فى بادئ الأمر آثار سيئة . فانه يبعث الحقد فى نفوس الرجال لفقدانهم سيادتهم ، كما يبعث النساء على التبجح كى يعوضن ما سبق لهن من نقص . ولكنا نرجو أن يسوى الزمن هذه المشكلة كما فعل فى غيرها من المشكلات .

وهناك ضرب آخر من ضروب التفـاخر أخذ يختفى فى أكثر البلدان . غير أنه ما يزال قائما فى روسيا السوفيتية ، وهو تكبر طبقة على أخرى . فان الولد من أبناء طبقة العمال فى روسيا يتمتع بميزات لا يتمتع بها غيره من أبناء طبقة البرجوازى . والواقع أن فوارق الطبقات لم تزل كل الزوال من جميع البلدان . ففى أمريكا مثلا يعتقد الفرد أن ليس فوقه من يعلوه اجتماعيا مادام الناس جميعاً سواسية ، ولكنه لايعترف أن ليس هناك من ينحط

عنه . لأن المساواة بين الفرد ومن يعلوه سادت فى أمريكا من عهد جفرسن ، ولم تسد المساواة بين الفرد ومن ينحط عنه . والحقيقة أن موضوع المساواة بين الناس ينطوى على نفاق عظيم ويشوبه كثير من الغموض . ويستحيل أن يتلاشى التميز بين الطبقات ما دامت هناك هذه الفوارق الشاسعة بين الأفراد فى الثروة . ولا شك أن المساواة الاقتصادية تعمل للتسوية بين الطبقات . وأثر الحرب الكبرى فى هذا واضح لايحتاج إلى تنبيه . غير أن ضربا من ضروب النعرة مافتئ سائدا عند بعض الانجليز ، إلا أنها نعرة مردها إلى التربية ولهجة الكلام ، لا إلى الثروة والمركز الاجتماعى بالمعنى القديم .

والتفاخر بالمذهب ضرب آخر من ضروب التعالى . فكثير من الأمريكان يعتقدون أن الصينيين قوم بغير فضائل ؛ لأنهم ملاحدة لا يؤمنون بما يدين به الأمريكيون . وكذلك كان المسيحيون والمسلمون فى العصور الوسطى يتباهون بعضهم على بعض بالعقيدة الدينية .

كل هذه وسائل مختلفة يتخذها الناس لارضاء كبريائهم وشعورهم «بالعظمة» . لأن الانسان لايسعد إلا إذا كان لديه مايسوّغ به احترامه لذاته . نحن بشر ، فالبشر إذن هم الغرض من الخليقة كلها . ونحن أمريكيون — مثلا — فأمريكا إذن هى بلد الله المختار . ونحن بيض ، فلعنة الله إذن على حام وذريته السود . ونحن كاثوليك أو بروتستانت ، وإذن فغيرنا ممن ليسوا بكاثوليك أو بروتستانت يستحقون غضب الله . ونحن ذكور ، فالنساء إذن ناقصات عقل . أو نحن رجال ، فالرجال إذن وحوش . ونحن شرقيون ، وإذن فأبناء الغرب كلهم جشع وطمع . أو نحن غربيون ، فالشرقيون إذن قوم لارجاء فيهم . ونحن نعمل بأذهاننا ، وإذن فالطبقات المتعلمة هى أرق الطبقات . أو نحن نعمل بأيدينا ، وإذن فالعمل اليدوى وحده هو الذى يكسب صاحبه الكرامة . وأخيرا —وفوق هذا كله— أن لكل منا ميزة خاصة هى شخصيته التى يتميز بها من غيره ، وإذن فهو خير عباد الله .

بهذه الآراء التى تملأ أذهاننا نخرج إلى النضال فى العالم . وبغير هذه الآراء قد تخوننا شجاعتنا . وبغيرها — فى الظروف الراهنة — نحس بالحطة . لأننا لم نتعلم الاحساس بالمساواة . وإذا أحسسنا حقا أننا مساوون لجيراننا لانتميز

منهم ولا نقل عنهم فى شئ ، فلربما أمست الحياة أقل نضالا ، وأصبحنا أقل حاجة إلى هذه الخرافات نخدربها عقولنا لنستمد الشجاعة فى الكفاح .

ومن العقائد الخداعة الضارة التى يتعرض لها الأفراد كما تتعرض لها الأمم ، أن تتخيل طائفة من الطوائف نفسها أداة خاصة لتنفيذ إرادة إلهية معينة . فبنو إسرائيل كانوا يعتقدون عندما غزوا أرض المعاد أنهم إنما ينفذون إرادة السماء . وأهل روما كانوا يحسبون أن الالهة أرادتهم على غزو العالم . وكان كرمويل يؤمن إيماناً صادقاً أن العناية الالهية أرادته أداة عادلة لهزيمة الكاثوليك . وهاهم أولاء الماركسيون يحملون اليوم سيف الله . وتقديس هذه العقائد يسوّغ القسوة التى لايسوّغها عقيدة من أصل دنيوى .

إن العقيدة فى رسالة سماوية صورة من الصور العديدة لليقين الثابت الذى يتصف به الجنس البشرى . وكثير من الشرور التى يصيب الناس بها بعضهم بعضا ، منشؤها عقيدة يقينية بفكرة خاطئة آمن بها قوم من الناس .

إن معرفة الحق أشق مما يظن الكثيرون . ومن أسباب الكوارث الكبرى التى تلم بنا أن يؤمن أحدنا إيمانا ثابتاً لا يتزعزع أن الحق وقف عليه دون غيره . ولذا وجب علينا أن نرتاب فيما يزعمه لنا بعض أصحاب الرأى من أن الرضا ببعض الشر واجب إن كانت من ورائه فائدة مرجوة مرتقبة . وذلك لأن العلم بما يخبئه لنا المستقبل مستحيل . ومن العسير حتى على أحدّنا ذكاء أن يتكهن بما سوف يحل بنا حتى بعد فترة وجيزة من الزمن . ومن ثم كان التسامح لزاماً علينا فى حياتنا الخاصة والعامة . كما أنه حتم علينا ألا نزعم لأنفسنا قدرة خارقة على قراءة المستقبل .

ولقد كنت أستطيع أن أسمى هذا المقال «الآراء تؤذينا» لأننا إذا أدركنا أن معرفة المستقبل مستحيلة ، وأن الآراء بشأنه كثيرة ، علمنا أن الرأى الذى نعتنقه قد يرجح فيه الخطأ على الصواب .

إن كل ما تتصور حدوثه بعد عشر سنوات خاطىء يقينا ، اللهم إلا إن كان شيئا من قبيل أن الشمس ستشرق غداً مما لايتصل بالعلاقات الانسانية .

ولرب معترض يقول : كيف إذن يمكن السياسى أن يتدبر الأمر دون أن تكون معرفة المستقبل ممكنة ولو إلى حد ؟ وأنا لا أقول إننا

نجهل المستقبل جهلا تاما ، بل إنى لأقول إن بعض التكهن بالمستقبل ضرورة لا بد منها . فمن التكهنات الصادقة أنك إن وصمت شخصاً بالدناءة والسفالة كان جزاؤك منه المقت والكراهية ، وأنك إن وصمت الناس جميعاً بهذا فانهم جميعاً يمقتونك . ولك أن تتكهن بأن المنافسة الدنيئة تولد سوء العلاقة بين المتنافسين . ومن المؤكد أنك لو سلحت أمتين تسليحاً حديثاً وسمحت لها أن يحشدا الجند على الحدود بينها ثم ساء الشعور المتبادل بين زعماء الأمتين ، توترت الأعصاب وبادرت إحدى الأمتين بالهجوم خشية أن تسبقها الأخرى إلى ذلك . ومن المؤكد أن حرباً كبيرة حديثة لن ترفع مستوى العيش حتى بين القوم الظافرين . مثل هذه القواعد العامة لا تصعب معرفتها ، وإنما يصعب علينا أن نتكهن تفصيلا بالنتائج البعيدة لسياسة مرسومة . فبسمارك — مثلا — انتصر فى ثلاث حروب ووحّد ألمانيا ، فكانت النتيجة البعيدة لهذه السياسة أن ألمانيا منيت بهزيمتين كبيرتين كانتا نتيجة أن بسمارك علم الألمان ألا يأبهوا بمصالح أية أمة غير ألمانيا . فخلق بين الألمان روح عدوان ألّب العالم فى النهاية على خلفائه .

إننا لا ننكر أن الآراء الاجتماعية التى يمكن أن نفيد منها كثيراً جداً ، ومن أمثلتها الايمان بالحكومة العالمية ، وتحاشى الحروب ، ومعالجة البطالة ، وإزالة أحياء الفقراء القذرة وإقامة غيرها مما تتوافر فيه الشروط الصحية ، وما إلى ذلك ، آراء فى الاصلاح . غير أنا لا نستطيع تحقيق أغراضنا لسوء نظام الحكم . فالحكومة إما مستبدة متحيزة أو ديمقراطية عاجزة .

فنحن إذن فى الوقت الحاضر فى حاجة إلى أمرين : أولها التنظيم —التنظيم السياسى للتخلص من الحروب ، والتنظيم الاقتصادى لتمكين الناس من العمل المنتج وبخاصة فى البلاد التى خربتها الحرب ، وتنظيم التعليم حتى نخلق فى الجيل الجديد عقيدة ثابتة بضرورة الحكومة العالمية . وثانيهما أن نتخلق بصفات خلقية خاصة— هى تلك الصفات التى نادى بها علماء الأخلاق منذ زمان بعيد ، ولكنها لم تؤت ثمارها بعد . وأهم هذه الصفات حب الخير ، والتسامح ، والتخلص من التعصب الذى تدفعنا إليه الآراء السائدة .

وهذان الغرضان — التنظيم والأخلاق — متشابكان متداخلان ، يؤدى

أحدهما إلى الآخر . ومن واجبنا أن نرمى إلى الغرضين فى آن واحد . فلا مناص من التخلى تدريجاً عن الأخلاق الوضيعة التى تعقب الحروب عادة . ولا بد من زيادة تدريجية فى المؤسسات التى بوساطتها يستطيع الانسان أن يتعاون مع أخيه الانسان . ولا بد لنا من أن ندرك عقلا وخلقاً فى آن واحد أننا أسرة واحدة ، وأن سعادة فرع من فروع هذه الأسرة لا يمكن أن يتوقف على تدهور فرع آخر .

إن عيوبنا الخلقية تعوقنا عن التفكير السليم ، وتفكيرنا الشائك يشجعنا على التمادى فى عيوبنا الخلقية . وإنى لأرجو أن تبعث القنبلة الذرية الهلع فى نفوس البشر فترشدهم إلى التفكير السليم وتهديهم إلى التسامح . وإن حدث هذا فقد استحق مخترعوها منا أطيب الثناء .

محمود محمود

فى الأدب التركى

شاعر فيلسوف

ولد رضا توفيق بولاية أدرنة بالروميلى ، وتلقى العلوم الابتدائية والثانوية فى مدارس ومدن مختلفة تبعاً لتنقلات أبيه الموظف ، حتى تخرج فى مدرسة الطب باستانبول ، بعد أن فصل منها ومن غيرها من المدارس عدة مرات لشقاوته وعدم خضوعه للنظام ، وتلاوته كتب نامق كمال الحماسية وأشعار عبد الحميد ضيا باشا من المعارضين للحكم الاستبدادى ، على زملائه من الطلبة . ثم وضع دبلوم الطب فى جيبه — كما قال لنا ذلك — وشرع يدرس الفلسفة ، وقد تعلم من اللغات العربية والفارسية ، والفرنسية ، والانجليزية ، والألمانية ، والاسبانية ، وأجاد معظمها بما له من حسن الاستعداد لتعلم اللغات فوق ذكائه الحاد ، واشتهر بالفيلسوف .

كان الدكتور رضا توفيق ينشر آراءه الفلسفية بعناوين جذابة : كعلاقة الفن بالعلم ، ومبحث اللسان ، وفلسفة ابن رشد الأندلسى ، وابن خلدون وحكمة التاريخ وغيرها ، فى المجلات العلمية والأدبية المعروفة فى ذلك الوقت ، ثم نشر المحاضرات التى ألقاها على طلبة الجامعة بعنوان «دروس الفلسفة» وألف قاموساً للفلسفة ظهر منه أجزاء ، ولكنه لم يتمكن من إتمامه لاضطراره إلى ترك وطنه على أثر انتصار الحركة الكمالية فى الأناضول . وقد أظهر لنا أسفه الشديد لبقاء كتابه هذا ناقصاً ، حين قدم إلى القاهرة سنة ١٩٢١ ، وكان معقد آماله فى عمله الفلسفى . ودرس كتاب الـ «مقبر» ، وهو رثاء الشاعر عبد الحق حامد لزوجته التى توفيت ببيروت ، وكتب عنه مجلداً كبيراً بعنوان «ملاحظات حامد الفلسفية» وهو خير ما كتب عن ذلك الشاعر ، وكتب مقدمة فلسفية قيمة لترجمة رباعيات عمر الخيام إلى التركية . والدكتور رضا توفيق يبحث عن المجهول ، ويحن كثيراً إلى الماضى . فلا تكاد تخلو منظومة من شعره من هذا الاحساس ، سواء كانت فى موضوع فلسفى ، أو أدبى محض .

هكذا اشتهر الدكتور رضا توفيق بالفيلسوف ، وإن لم يكن له مذهب خاص فى الفلسفة ، وقبل هذه الشهرة بارتياح ، وطرق موضوعات فلسفية مختلفة بأسلوبه الشائق . ولكن فلسفته لم تؤثر فى الشعب التركى ، ولم ينشأ من يقتفى أثره لأسباب لعل من بعضها أن الطبقة المثقفة لم تكن قد تهيأت بعد لقبول تلك الآراء الحرة وهضمها . فقد كان أساتذة المدارس الدينية وطلبتها يرمونه بالالحاد فيكرهون الناس فى آرائه . ومن أهم أسباب ذلك أيضاً اشتغاله بالسياسة ، والسياسة كثيراً ما تجنى على الناس ولا سيما العلماء الاخصائيين . وقد نشط الفيلسوف فى السياسة ، بعد أن رفع عنه ضغط الاستبداد باعلان الدستور ، نشاطاً انتهى به ، مع الأسف الشديد ، إلى مغادرة وطنه فى خير وقته ، وحرمان الأمة التركية علمه الغزير الناضج . لم يبلغ الدكتور رضا توفيق إذن ما طمح إليه كفيلسوف ، أو لم يمكن منه ، ولكن له ميداناً آخر نجح فيه نجاحاً حسنا . ذلك أنه شاعر ، وقد بدأ يقرض الشعر تلميذاً فى المدارس الثانوية وظهر فيه نبوغه بسرعة .

كان الشعر التركى القديم على الأوزان العربية التى نقلت إلى الأدب التركى عن طريق الأدب الفارسى ؛ واستمر هذا النوع من الشعر الذى بدأ منذ القرن الرابع عشر الميلادى حتى أواخر القرن التاسع عشر . وكان إلى جانب هذا الشعر الأرستقراطى الذى يمدح به السلاطين والأمراء والوزراء شعر من نوع آخر وهو الشعر الصوفى ، يترنم به رجال الطرق الصوفية فى مجتمعاتهم فى زواياهم مذ تسرب التصوف إلى الشعب التركى ، ويذيعون به آراءهم الصوفية فى الطبقات الشعبية . ولهذا الشعر أوزان وقوالب خاصة . ولكن هذا الشعر كان يعد كلاماً عاميا لايعتد به ولا يعد من الأدب فى شئ .

ولما أعلن الدستور العثمانى ، ونهضت الحركات القومية والأدبية فى العناصر المؤلفة لتلك الدولة ، أخذ كتاب الأتراك «يترّكون» اللغة العثمانية بتخفيفها مما بها من الكلمات العربية والفارسية ، وأحس الشعراء حاجة إلى أوزان للشعر تتفق وبيئة اللغة التركية التى زادت نسبة الكلمات التركية فيها عما كانت عليه من قبل . ففكروا فى العودة إلى الأوزان التركية المستعملة فى الشعر

الصوفى والشعبى . وكان الشاعر محمد أمين من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، على رأس المنادين بهذه الفكرة . إلا أن الشعراء الذين درجوا على قرض الشعر على النظام القديم لم يجدوا فى شعر محمد أمين وشيعته ما يجدونه من اللذة والجمال فيما ألفوه من الشعر القديم ؛ فاتهموهم لميلهم إلى هذه الطريقة الجديدة بالجهل بالعروض. وفى هذا الوقت انضم الدكتور رضا توفيق إلى صف المجددين وغيّر الموقف .

كان رضا توفيق يقرض الشعر على أصول المتقدمين ويجيده . ولما انضم إلى المجددين درس الشعر الصوفى المسمى شعر التكايا دراسة جيدة، وابتدأ ينظم قصائد فى كل أنواعه وقوالبه . فبعد أن كان الشعراء ينظرون إليه نظرة استخفاف ويحسبونه غير صالح لأن تنشأ فيه قصائد محتوية على موضوعات طويلة ظهر فى قصائد رضا توفيق أنه صالح للتعبير عن الاحساسات والشعور كالشعر الأرستقراطى الموزون بالأوزان العربية دون أن ينقص منه شئ من الخيال الشعرى . وقد بذ شعره المؤلف على الأوزان التركية شعره الأرستقراطى القديم ، من ناحية الخيال وجمال الشعر ، مع سهولة اللغة وصدق التعبير . وفى هذا الوادى وجد الشاعر رضا توفيق من يقدره ويقتفى أثره دون نظر إلى مذهبه السياسى وهو مع نجاحه فى هذا الوادى الجديد ، لاينكر فضل الشعر القديم إذ قال :

«إنى لست معارضاً للشعر الأرستقراطى . ولا ينبغى التورط إطلاقاً فى الحكم على الأمور الخاصة بالفن سواء أكان كلاسيكيا أى وجدانيا Romantique أو رمزيا Symbolique فان أربابه يأتون بالبدائع . وقد اكتسبت هذه العقيدة بالتجارب . هل الوزن والقافية يحولان دون قرض الشعر الجميل ؟ وهذا إنما يتوقف على استعداد الشاعر . لأن الشعر يحتاج إلى الاستعداد ، والكتابة إلى القدرة .

« ومن الممكن قرض جميع أنواع الشعر ، لأن لنا شخصيات مختلفة ، ولحياتنا القومية صفحات متنوعة . فمن الطبيعى والضرورى أن يكون لنا لسان حال متنوع . ولكن يجب أن يكون شعرنا القومى الأصلى على الأوزان التركية، ويجب أن يكون هذا الشعر القومى أهم أشعارنا ! »

كان الدكتور رضا توفيق ينشر قصائده فى المجلات الأدبية المعروفة فى ذلك العهد ، ثم جمعها فى ديوان سماه «سراب عمرى» وطبعه فى مدينة لفقوشة بجزيرة قبرس سنة ١٩٣٤ ، ثم نشر الأديب كوك آلب آركين باذن منه

بعض أشعاره المبعثرة مع ترجمة حياة الشاعر ، فى استانبول سنة ١٩٣٩ . ومن هذا الكتاب الأخير ننقل إلى القراء نثراً ، قصيدة من شعره يصف فيها باسهابه المعروف رجلا قرويا قد بلغ من الكبر عتيا ، وهى قصة :

الخال حسن الأكبر

طوَّفت فى ناحية من بلاد الروميلى من أولها إلى آخرها ، واجتزت جبالا خالية وأحراجاً كثيفة ومياهاً جارية . كان الوقت صيفاً . وفى الصباح بلغت قرية خربة فى حفرة ، مستدلا بمقابرها . هى بضعة من الأكواخ سودها الدخان ، على سفح جبل يعلوها الضباب ، مستغرقة فى النوم فى ظل غابة . قرية صغيرة فقيرة . مبنية من سعف وحصر يجول فيها ليلا ذئاب تهبط إليها من الغابات . وليت شعرى ما الحكمة ! إن فى تلك الجبال والبرارى والبساتين جمالا مبعثرا لا يسأم المرء النظر إليه ؛ فالمياه تنحدر ، والريح تنتحب ، ولا تسمع من الجداول غير الأنين والنحيب ؛ تشاهدها فى ظلال أشجار القسطل (أبى فروة) كأنها خيال ، يغرد البلبل على أغصان الشجر اللينة وترى فى حمرة الأزهار الباسمة فى الحقول ، وجوه العرائس الوردية ، ذات العيون الزرق .

وإذ تمر مستغرقاً فى الحيرة بشاطئ نهر رملى ومعابر كثيرة الالتواء ، تستأسر عينك فلا تستطيع فراقها ؛ فقد غدت شقائق الغابة السوداء الوحشية ، حمراء قانية ، كأن يد القدرة الالهية نقشتها بدماء الشهداء . وإذا كان المساء فكأن حداداً يلف تلك الجبال ويغطى الدخان قمم الصخور الجرد الشاهقة ، وكل شقيقة نعمانية تبدو من بعد كأنها قطرة من الدم ، وتحسب ترابه وصخوره موضع غزوة !

يسير الظل مداعبا القرية ويحيط بالأفق ، وتحدث الصخور الوعرة التى فوق الجبال ، أصداء فى المياه الجارية . وفى كل ليلة ينثر الظلام درراً على المراعى . وإذا كان الصباح سفرت الشمس عن وجهها كأنها ملك !

سررت بتلك البقاع كأنى حالم ، واهتديت إلى طريق ذاهبة إلى الأجران فبلغت قرية ، ولم أكن منفرداً ، بل كنت مرافقاً لقلبى من زمن بعيد . ولست أدرى فيم فكرت ، ولم استغربت السفر ؟

كنت قد بلغت مفترق الطرق الأربع ، ودنوت من المسجد . ووقفت هنيهة متلفتاً حولى ولمحت شيئاً : شجرة دُلب باقية من عصور ، بأسفلها شيخ أبيض ناصع البياض ، عليه عمامة خضراء . إنه أمير اتكأ على شجرة على عين ماء ، ونظرته القاتمة المستغنية ، الخالية من الغم والشعور ، تروى الأساطير ! شيخ تركمانى مسن ، حديد صدئ ! لم يبق له قرين . وإذا كان له فى هذه القرية من قرين ، فهو هذه الشجرة العظيمة الباسقة التى يستظل بظلها ! وشمس القرية المشرقة صباحاً تلثم لحيته البيضاء النقية وتداعبها . كانت بسمات الشمس البهجة تسطع على هذا الوجه ، ولكن الزهور لم تعد تتفتح على الجبل العظيم المغطى بالبرد ! فهو ثابت لا يريم ، كأنه جذع شجرة قد هوت ، ولا يتحاشى عن هذا الشيخ الوديع حتى الطيور .

تقدمت قليلا قليلا واجتزت جدول ماء ، ووصلت إليه بعد خطوات قليلة دون إحداث ضجة . فحييته ورد التحية ، وقدمت إليه الدخان فابتهج ، واستيقنت أنه مسلم . قدحنا الزناد ، وأشعلنا الشبوق ودخنا قليلا ، وتحدثنا وتبادلنا الأكاذيب . وامتد بيننا الكلام من حديث إلى حديث ، وسألنى من أين أنت ؟ فقلت من استانبول .

وقال : «هل السلطان محمود على قيد الحياة ؟» ثم جاش فجأة وقال : «خدمته خمسة أعوام خدمة عسكرية وأكلت من خبزه . ما أعظمه سلطاناً ذلك الأسد ذا الجلال !... كان يحضر على جواد أشهب فتحسبه نسراً ، وتميزه فى لحظة بين ألف من الأبطال ! فقد كان وزيره ذو اللحية البيضاء يرتعد أمامه ، وتسير خلفه فيالق كالبحر الخضم . ويقال إن سبعة من الملوك يطيعون أمره ! كانت له قوة الأولياء ويقال إنه وصل إلى الله . ما أسعد تلك الأيام وما أسعده عهداً ! كنت شابا إذ ذاك وجاويشاً ببابه . ولما أتممت خمسة أعوام عدت إلى القرية ، ولم أغادرها مرة أخرى . فقد اتخذت مزرعة وأعددت لها ما يلزم من عدد . وذهب أبنائى إلى الجندية ، ولم يعد منهم أحد ، ولم يأت نبأ أحد منهم حتى اليوم . ثم ماتت الزوجة ! فأنا وحيد منذ زمن بعيد وعبد ضعيف فى براثن الشيخوخة .» كان يتحدث إلى بتلك الكلمات وأصغى إليه بعناية تامة . وقد أحسست ألماً فى نفسى وانبعثت آهة من قلبى .

أثرت فىّ قصته تأثيراً شديداً ، وأذّن فى قلبى الجريح آذان الماضى !...

فبكيت بكاء ساكتاً واغرورقت عيناى بالدموع ، إذ علمت مسكنته وعيشه وحيداً ! ولكن زاد فىّ حب الاستطلاع ، فسألته عن حياته وعن عمره ، باحثاً منقباً عن شاهد القبر الحى هذا ! فقال :

«ولدت فى هذه القرية ولم يبق لى أولاد ، ولعلى بلغت الخامسة والثمانين وليس لى أحد فى هذه السن! ولم يبق فى العين نور، ولا فى الركبتين قوة ولا فى الروح نفس ، أقضى ليلى ونهارى فى هذه السن كالبوم . لاتدقق فى السؤال. فقد كانت لى أيضاً أيام سعيدة . ويدعونى حسن الأكبر . وإذا قيل الخال حسن عرفتنى نساء القرى السبع وبناتها وأكبرن شأنى . وقد يحضرن لزيارتى أيام دراس الغلال.»

قلت : «يا عماه ! إنى عائد إلى استامبول ، فهل لك أن ترافقنى ؟ سأخدمك خدمة الابن لأبيه ، فتفضل ضيفاً علىّ ، إنك ستخدم عندنا ويعتنى بك . ففى الصيف يقدم إليك البن الطازج وتوقد النار فى الشتاء ، ولعلك تستجم !»

صار وجه الشيخ ناراً واتقدت جمرة عينيه الذابلتين وقال :

«ما هو أملى فى هذه الدنيا بعد اليوم ؟ رضى الله عنك وأنا راض عن قريتى . كم سرور وبهجة رأى قلبى وعيناى فى هذا البلد ! وكله كذب وقد ذهب كما جاء . وما هذه الدنيا الفانية إلا حلم ! ومن جاء إليها ذهب منها، وقد ارتحلت القافلة وتخلفت ، وعقد لسانى من الوحدة ، وخرفت من العزلة ؛ فكل موضع بعد الآن قبر لى . فأين ذلك المكان الذى ينجو فيه المرء من براثن الموت ؟

«انظر !إنى ورق قد اصفر وجف ، وإذا هبت ريح الأجل فهذا المكان قبرى ! بكيت من ماتوا قبلى لكى أموت هنا مستريحاً . فكم من روح فارقتها هنا ، وكم من مرة لبست الحداد !... لقد ضحيت فى سبيله بثلاثة من أبنائى كالضراغم . وفى سبيله بعت المزرعة وخربت الدار . ولعله مضى سبعون عاماً لم أخرج من هذه القرية ، ولم أسأم غاباتها ولا طيورها وأنهارها .

«هذا هو أما تمناه يا بنى : إنى أريد الموت هنا ، ماذا أفعل فى بلاد الغربة ؟ أريد أن أدفن هنا !...»

حمزة طاهر

تفـــاؤل

سأضحكُ يا سماءُ فلا تَغيمى ... وأهزأُ بالمتاعبِ والهمومِ

فؤادى جَنَّةٌ حفلَتْ رباها ... بمختلف المشاهدِ والرُّسومِ

مُنَضَّرَةُ الأزاهرِ والدَّوالى ... مُعَطَّرَةُ الجداولِ والنسيمِ

حمَاها أن يُلِمَّ بها خريفٌ ... ربيعٌ من فراديس النعيمِ

تَبَسَّمُ للشتاءِ إذا احتواها ... وتُوحِى الصَّحْوَ للصيف النَّؤوم

إذا انبلجَ الصباحُ جلا سناهُ ... كؤوسَ الزهر بالنُّور العميم

وإنْ هبطَ المساءُ أسَرَّ كنَّا ... تعبِّرُ عن هوى الليل الرحيم

على جنَباتها ابتسمتْ زهورى ... وفى حلقاتها انعقدتْ كرومى

وفى ضحواتهـا ائتلفتْ شموسى ... وفى ظلمائها انتثرتْ نجومى

وفوق غصونها انتظمت طيورٌ ... تُهَدْهِدُهُنَّ بالنَّغَم الرخيم

نفى البَغْضاءَ عنها نورُ حُبٍّ ... يشعُّ علىَّ من مَلَكٍ كريم

ففى ظُلاَّتها ائتلفتْ قلوبٌ ... نَعِمْنَ بذلك الظلِّ المُقيم

يراوِح طِيبُها الذاكى رفاقى ... وينفحُ فى تخطُّرِهِ خصومى

سأضحك يا سماءُ فلا تَغيمى ... فقد يُطْوَى الجمالُ مع الغيومِ

تبلَّدَ خاطرُ الدنيا ، وطارت ... على قَسَماتها سِمَةُ الوُجوم

وخيّمت الكآبةُ واستباحت هياكلَها لمُضْطَغِنٍ وخيم
مَشَتْ فيها الا بالسةُ اُختيالاً على الأشلاءِ ترقصُ للجحيم
وعَرْبَدَ في مآتمها حيارى ، تراءَوْا في بقايا من جسوم
لقد قطف الطغاةُ بها جناها وبئسَ ختامُ حصَّادِ الهشيم
أثاروا نارَها ، وسقَوْا لظاها بمشبوبٍ من الشرِّ الأثيم
وصبُّوا جامَ غضبتهم عليها بمنفجرٍ من الويل الأليم
زبانيةُ الجحيم ... وكم تسامَوْا إلى أعتاب أسلاكِ النجوم
هَوَت أبراجهم منها حطاماً وتاه حطامهم بين الرسيم ...!

سأضحك يا سماءُ فرَدِّدي لي غنائي يا سماءُ ، ولا تغيمي !
مضى ليلُ الخطوب فلا تُعيدي إلى ذكراك أيَّام الحُسوم
ولا تَدَعي الغيومَ مُجَمَّعاتٍ فقد بدَّدْتُ من أُفُقي غيومي
سأحلُمُ بالسلام على رُباها وما حلْمي سوى فَجرٍ قسيم
هتفتُ له وراءَ الليل حتى أحاط الفجرُ بالليل البهيم
وبان على مدار الأُفْقِ خيطٌ يُشارُ به إلى الأملِ الوسيم

حسن كامل الصيرفي

THE SPIRIT OF DENMARK DURING THE OCCUPATION AND THE YEARS OF RECOVERY

HENRY BAERLEIN

الدانيمرك أثناء الاحتلال الألمانى وبعده*

عند ما تم لهتلر غزو الدانيمرك صدرت الأوامر للجنود الألمان كى يظهروا للناس أفضل ما لديهم من سلوك ؛ إذ كان فى عزم الفوهرر أن تبدو الدانيمرك أمام العالم مثلا للمصير الرائع الذى ينتظر كل دولة تلقى بنفسها فى أحضان ألمانيا ، كما كلف أفراد الجيش وجنود فرق الصاعقة بملاطفة الأطفال والاكثار من الظهور معهم فى الصور الفوتوغرافية ، كما كان عليهم أن يقدموا إليهم فى سخاء قطع الشيكولاتة التى سرقوها من فرنسا . بهذا ظن الألمان أن شعب الدانيمرك سوف يطرح جانباً عداوته للألمان ، وينسى الهجوم الذى شنته ألمانيا على بلادهم سنة ١٨٦٤ دون ما سبب ، ويصفح عن جريمة إغراق عدد من سفنه التجارية فى خريف سنة ١٩٣٩ وشتائه فى حين كان الوزير الدانيمركى فى برلين يتلقى تأكيداً حاسماً بأن لا خوف على الدول المحايدة من ألمانيا النازية . كان على الجيوش الألمانية فى الدانيمرك أن تعامل كل فرد — ويستثنى من ذلك اليهود طبعاً — بالاحترام والتقدير الكافيين لجعل هذا الشعب الشمالى يحس بالبهجة تملأ شعاب نفسه لدخوله تحت جناح ألمانيا حامية شعوب الشمال .

بيد أن خطة الصداقة هذه لم تدم طويلا ؛ إذ لم تصادف هوى فى نفوس الدانيمركيين ، فسرعان ما هدمت المصانع التى أرغمت على العمل لصالح الألمان ، ونسفت القطارات المحملة بالجنود الألمان . ولم يستطع الألمان أن يعرفوا السبب الذى من أجله يساء فهمهم إلى هذا الحد ، ولكنهم أعلنوا أن المسئول عن ذلك قلة شريرة هم اليهود الدانيمركيون الذين يتمتعون بقسط وافر من الحرية وقالوا إنهم اليد الخفية وراء كل حوادث النسف والتخريب . قال الوزير الألمانى للملك كرستيان مسائلا : « يخيل إلىّ أن ليس فى هذه البلاد مشكلة

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة «الكاتب المصرى» .

يهودية فكيف حدث ذلك؟» أجاب الملك، وكان يمثل أفراد جنسه خير تمثيل: «السبب هو أننا لانحس حيالهم بالنقص.» وظن الألمان أنه إذا أمكن التخلص من اليهود فسيصبح كل شئ على ما يرام. ولكن بعد أن هربوا كلهم تقريباً إلى السويد تاركين فى كوبنهاجن السيدة تيكسيير العجوز، وهى أم القصاص الشهير الذى وضع حكايات أندرسون الخرافية، التى لم تستطع الرحيل لبلوغها المائة، لم تنقطع حوادث التخريب، وأصبح من عادة أهل كوبنهاجن أن يقولوا عند كل انفجار: «إصغوا إلى هذا الصوت، إنها السيدة تيكسيير مرة أخرى!»

وأخيراً أدرك الألمان أن أسلوبهم الرقيق فى المعاملة أصبح عديم الجدوى وأنه لامناص من اتباع طرائق أخرى، فأرسلوا إلى الدانيمرك أوتو سكورتسينى وهو الشخص الذى خاص موسيلينى من الأسر، نقام بتأليف فرقة من الجنود المخاطرين الأشداء هدفهم إلقاء الرعب فى قلوب السكان؛ فكانوا يختارون ضحاياهم حيثما اتفق؛ فذات مرة فتكوا بفاكهى عديم الحول وذنبه أن كان يعيش فى شارع بند حيث تخلص الوطنيون فى اليوم السابق من نمام شهير. وعندما أطلق الرصاص على سائق سيارة الوزير الألمانى، وكان السائق دانيماركيا مارقاً، ألقيت فى اليوم التالى قنبلة شديدة الانفجار على سيارة عامة مكتظة بالركاب، وكانت تخترق المنطقة التى قتل فيها السائق السابق الذكر. وعقب خمس حوادث من حوادث الاعتداء على القطر الحربية الألمانية انفجرت قنابل داخل قطارات الركاب المكتظة بالمسافرين، أحدها يحمل فوجاً من أطفال المدارس أثناء عودتهم إلى بيوتهم، وتسبب عن ذلك ضياع أرواح عدة. وأخيراً اضطر أفراد هذه العصابة إلى ترك هـذا الأسلوب الجهنمى عند ما وجدوا أن حطام القطر يسد الطريق أمام القطر العسكرية الألمانية بتلك الدرجة الناشئة عن حوادث التخريب.

كان لابد لأى فرد لديه أقل فكرة عن طبيعة الشعب الدانيمركى أن يتكهن باخفاق سياسة التخويف هذه، حتى عندما قطعوا الماء العذب والتيار الكهربائى والغاز عن مدينة كوبنهاجن وكذا المواد الغذائية فلم ينتج عن مثل هذه الاجراءات الشديدة فائدة تذكر؛ إذ هب الدانيمركيون جميعاً لمساعدة بعضهم بعضا. وفى نهاية الأمر اضطر الوزير الألمانى إلى الموافقة على ما عرضه ممثلو الشعب من شروط. واستمر الكفاح ضد المعتدين بلاهوادة حتى استسلم

الألمان فى الخامس من مايو سنة ١٩٤٥ ، ومن بين العديد من الأمثلة يكفى أن نذكر هنا مثالين لهذا الكفاح ؛ فذات مساء وقف السيد كى فريز ميللر يتحدث أمام المذياع وكان كاتباً معروفا انتخب بصفته رئيساً لنادى القلم الدانيمركى رئيساً لمؤتمر أندية القلم فى مدينة زيورخ ، كما أنه قام بترجمة الكثير من الشعر الانجليزى إلى اللغة الدانيمركية – تحدث ذلك الكاتب فذكر بالانجليزية كلمات الشاعر كبلنج وهى : « عد أيها الجندى البريطانى ! » ولم يذكر بقية البيت : عد إلى مندلاى ، فابتهجت الدانيمرك من أقصاها إلى أقصاها . وفى اليوم التالى جاء إلى دار الاذاعة ضابط ألمانى فى حالة حنق شديد وسأل عن الكلمات التى تفوه بها الكاتب أهى نفسها الكلمات المكتوبة على الورق ؟ وهل أعقبها نقطة وقف ؟ وعندما علم أن نقطة الوقف هى من عند السيد فريز ميللر منع هذا الأخير من الاذاعة حتى نهاية الحرب . هذا مثل للطريقة التى اتبعها الدانماركيون لامتاع أنفسهم على حساب غزاتهم الذين يقلون عنهم فى الذكاء . وعندما حشد الألمان فى الميدان الرئيسى لكوبنهاجن عدداً كبيرا من الدبابات بقصد القضاء على روح الشعب المعنوية كان الأطفال الصغار يقتربون من الجنود ذوى السحن المخيفة وهم جالسون فى أماكن القيادة ويسألونهم عن ثمن تذكرة الدخول .

عانت الزراعة وصناعة السفن ، وهما من الصناعات الأساسية فى الدانيمرك ، أثناء الاحتلال عناء شديدا فى حين توقف استيراد الفوسفات اللازم للزراعة توقفاً تاماً ، كما ساءت حالة الأغنام ، وأثر نقص البروتينات بوجه خاص فى ماشية الألبان . ومع ذلك فقد أقبل الفلاحون إقبالا شديداً على المساهمة بنصيبهم فى تخفيف أزمة الغذاء فى العالم ، فأبحرت سفن عظيمة محملة بالطعام دون مقابل إلى بلاد الريخ ، وهولندا وفرنسا ، وفنلندا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وهولندا ، والنمسا ، وهنغاريا ، كما أرسل مائة ألف من طرود الطعام إلى الجنود الانجليز .

ليس من بين الدول الأوربية جميعاً من يفوق الدانيمرك فى الاعتماد على تجارة ماوراء البحار سوى انجلترا ، ويعزى الارتفاع المطرد فى مستوى المعيشة الذى بدأ قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية إلى الازدياد فى استيراد المواد الخام يوازيه ازدياد مساوله فى تصدير منتجات المزارع والمصانع . ومن الثمانية والخمسين وخمسمائة سفينة التى كونت أسطول الدانيمرك التجارى فى سنة ١٩٣٩

ضاع مالا يقل عن مائتين وأربع وستين سفينة ؛ إذ تجاهل الدانيمركيون أوامر هتلر ووضعوا كل سفينة فى أسطولهم التجارى فى خدمة بريطانيا وحلفائها دون اعتبار لما ينجم عن ذلك من أخطار. ومن الأشياء التى تدخل الرضا إلى النفس أن بريطانيا والولايات المتحدة قامتا بدفع مبالغ طائلة على سبيل التعويض عن الخسائر التى عانتها الدانيمرك ، كما يسرنا أن نسمع من رئيس اتحاد أصحاب السفن الدانيمركية أن أسطول الدانيمرك أصبح الآن على أهبة الاستعداد لأخذ مكانه بين أساطيل العالم العاملة . ولقد أنزلت إلى البحر سفن جديدة ، مثل كرنبرنس فردريك التى أصبحت عروس خط هارويتش — اسبجيرج ، فى حين لم يعد هناك نقص فى عدد المعابر الممتازة التى تسير فى المياه الداخلية للدانيمرك — وهى دولة تتكون من خمسمائة جزيرة — ويقوم بعض هذه المعابر برحلات بحرية تستغرق ساعتين . وقد تكون المعابر الضخمة التى تحمل قطراً بأكملها عابرة الحاجز العظيم هى أفخم ذلك النوع من المعابر فى العالم . بيد أنه لازالت السفن القديمة الطراز تعمل ؛ ففى منطقة سيلكبرج الجميلة ذات الأنهار والبحيرات الكثيرة الأشجار توجد سفينة من ذوات الدواليب المائية يبلغ عمرها تسعين عاما ، وتذكر بفخر أنها اعتادت أن تحمل على ظهرها الملك المرح فردريك السابع مع صديقيه هانز أندرسون الذى ظل فترة طويلة يعتقد أن قصصه الخرافية لم تزد على أن تكون شيئاً تافهاً ، وميكل دروش وهو شخصية جريئة أنشأ فى سلكبرج مصنعاً للورق ، كما أنه أسس المدينة المعروفة باسمه .

هناك شخص آخر يوازى ميكل جرأة وإقداماً ، ويدعى أنريكو ميليوس دالجاس وقد أقيم لذكراه نصب متواضع فى مدينة براند الصغيرة الواقعة فى غرب جزيرة جوتلند . وفى حديقة صغيرة نقشت على صخرة هناك جميلة تصف والجاس بأنه ملك نبات الخلنج البرى ، صديقنا المخلص ، وتذكر الكتابة أيضاً أنه كان يحض مواطنيه على استغلال خيرات وطنهم إلى أقصى الحدود ، وذلك بعد أن تناقص الوطن عقب نكبات الحرب التى وقعت عام ١٨٦٤ . هذا الجزء من جوتلند هو أقل أجزاء الدانيمرك خصوبة ، ولطالما قبض نبات الخلنج وقطع الصخر على عنق البلاد بيد من حديد ، على حين أغارت أكوام الرمال بتأثير رياح الغرب المتسلطة فزادت فى شقاء البلاد . وبعد عمل

متواصل وصبر عظيم أزيلت مساحات كبيرة من النبات البرى وغرست الأشجار لصد الرياح ، وأصبح الآن ما يقرب من الألفين من الأميال المربعة أرضاً صالحة للزراعة كما أعانت الدولة المشروع . وإن ما قام به أهل جوتلند الشداد لشبيه بما قامت به الدولة كلها منذ انتهاء الحرب . وعلى ذكر هذا من السار جدا أن نقرر هنا أن بعض المناصب العليا فى الدولة أصبحت من نصيب أهل هذه المنطقة الوعرة الواقعة فى غرب جزيرة جوتلند ، وإن قصة بعض أولئك الفلاحين الفقراء لتشبه القصص الخرافية ، وهى جديرة بقلم هانز أندرسون .

والسائح فى الدانيمرك يقتصر فى العادة على زيارة كوبنهاجن ومدينة إلزينور فى جزيرة زيلند ، وأحياناً يقوم برحلة إلى أرينز بقصد زيارة المنزل الذى ولد فيه أندرسون ، وهو مكان غاية فى البساطة والتواضع ؛ إذ كان أبوه حذّاءً وأمه غسالة أمية . وبجوار هذا البيت الصغير أقيم متحف أنيق لضم آثار أندرسون التى تتضمن مرآة صغيرة داخل إطار معدنى أخضر أرسلتها إليه جنى لند التى كان يهواها ، وقد طلبت منه أن يطيل النظر فيها كى يعرف مقدار بشاعته . إن جوتلند لا تتمتع بشهرة فى عالم الجمال ، بيد أن السائح اللبيب لن يترك هذا الجزء دون أن يتجول فيه ، فقد يبحر من تورنج فى قارب لمسافة مائة وستين كيلومتر خلال مناظر خلابة ، ولن تكلف هذه الرحلة أكثر من أربعة فرنكات سويسرية فى اليوم الواحد ، كما يكون قد أحسن الاختيار لو تابع السير إلى ألبرج حيث أحرز مهندسو تخطيط المدن نصراً كبيراً إذ بينما أنشأوا عدداً كبيراً من الشوارع الحديثة الجميلة احتفظوا بكثير من الطرقات الباقية من العصر الوسيط ، وهى شديدة الضيق إلى حد أنك تستطيع أن تلمس فى الوقت نفسه البيوت القديمة المواجه بعضها لبعض ، وكانت بعض هذه البيوت خارج حوائط المدينة القديمة ؛ إذ كانت تشتغل بصنع ساعات الكنائس . ولقد صيرتها اليتران المكشوفة التى لم يكن من الميسور الاستغناء عنها فى تلك الأيام جيرة غير مرغوب فيها . ولاتزال صناعة الساعات فى ألبرج مستمرة إلى يومنا هذا ، غير أن طرائق صنعها قد تغيرت وأصبحت أبعث على الطمأنينة . و «الاكفافيت» أشهر منتجات ألبرج وهو مشروب أبيض برئ المظهر غير أنه شديد المفعول ، وتبلغ نسبة الكحول فيه ٤٥ فى المائة ،

ولقد بلغ عدد المقطرين المرخص لهم من قبل الحكومة فى الدانيمرك مائتين وستين شخصاً كما يوجد غيرهم غير مرخص لهم . ومن هؤلاء قسيس شهم يعيش فى جزيرة لاتسو اعتاد أن يقدم لسكان منطقته ما كان يدعوه بالدواء الذى لا يمكن الاستغناء عنه ، ولم يكن ليستفيد مالا من هذا العمل . كان كلفه بهذا العمل شديداً إلى درجة أنه استمر يقوم به حتى بعد أن اعتزل وظيفته وعاد إلى ألبرج حيث يخضع أكبر مصنع لمشروب الأكفافيت لاشراف الدولة ورقابتها الشديدة . واستمر هذا القسيس يقوم بصنع مشروبه الخاص ، وكان من غير شك أقل جودة ، ولكنه أقل فى التكاليف ، وقد خضع أخيراً لرقابة الحكومة .

لألبرج مكتبة أطفال آية فى الجمال ، وبها مكتب البريد القديم وكذلك بناء أحمر وأسود نصفه من الخشب وقد أزيل من مكانه الأصلى وألحق بالمكتبة العامة وهى مجانية وخاصة بالأشخاص بين العاشرة والسادسة عشرة الذين يستطيعون أن يقرءوا داخل الدار الكتب القصصية وغير القصصية ، وهناك مئات من كل نوع ، أو يأخذونها إلى بيوتهم ، ولكن إذا احتفظوا بالكتاب أكثر من أسبوعين فعليهم ان يدفعوا بنسا واحدا لكل ثمانية أيام إضافية . ولقد أخبرتنى السيدة الجذابة التى تشرف على هذه المكتبة أنه أثناء أمسيات الشتاء الطويلة يهرع إلى المكتبة عدد من الأطفال يربى على السبعين على حين لا تزيد المقاعد على الثلاثين ، ومع ذلك فإن القراء الصغار يرضيهم أن يجلسوا على الأرض أو فوق أنابيب التدفئة التى تمر حول القاعة الرئيسية .

ومعظم بيوت ألبرج من طابق واحد ، وهى على طراز أبنية القرون الوسطى ، وقلما تكون من طابقين . ولكن جينز بانج أغنى تاجر وأكبر بناة السفن فى القرن السادس عشر شيد لنفسه بناء على طراز عصر النهضة شامخاً بقدر ما هو رائع الجمال ، وهو اليوم يضم عيادات العديد من الأطباء ، ولقد كان النهر يجرى بحذاء هذا المنزل وبحذاء منزل آخر يخص ابن عم بانج ؛ أما الآن فيجرى النهر فى جوف الشارع فى طريقه إلى الميناء المجاور . وفوق بيت ابن العم تمثال نصفى لامرأة عارية وهو مصنوع من الخشب ؛ ومن المحتمل أن يكون ذلك التمثال لزوجة صاحب البناء . ويشكر المرء لأسراب النحل البرى طريقتها الرائعة فى حفظ كيانها ؛ إذ عندما أخرجت منذ بضع سنوات من تحت غصون

اللبلاب وجد أن أجسامها قد اكتست كلها بطبقة من الشمع . ولقد بلغ رئيس دير ألبرج ، وقد أصبح الآن ملجأ للرجال والنساء ، من الفطنة مابلغته أسراب النحل هذه ؛ إذ وجدت فى أقباء الدير غرفة صغيرة استعملت سجناً لراهب من رهبان الدير كان قد أساء التصرف ، ولقد انتُزع قالبان من الآجر من الحائط الذى يفصل مابين الحجرة والمطبخ ، لا بقصد توصيل الطعام إلى السجن بل بقصد السماح لرائحة الطعام الشهية أن تصل إلى خياشيمه ، ولم يمض وقت طويل حتى أعلن الراهب توبته وعزمه على ألا يرتكب ذنباً آخر ملتمساً فقط السماح له بالعودة إلى حظيرة الرهبان .

والدانيمركيون شعب ذكى ، وهم وإن كانوا يشتركون مع الألمان فى حدود أرضية طويلة فانهم لا يشبهونهم إلا قليلا ، على أنهم يشتركون مع الانجليز فى الفكاهة الناشئة عن التقليل من قيمة ما يقومون به من أعمال مجيدة . ولقد اعتاد البحارة الدانيمركيون أن يقولوا : «لقد أصبنا بالطوربيد ثلاث مرات ، وانفجرت السفينة أربع مرات ولم يحدث لنا شئ .» وذلك أثناء الحرب عند ما كنت أحاول دائماً أن أحصل منهم فى نيوكاسل على قصص مثيرة .

ومن الأشياء التى أعلمها جيداً أن ببلدة إبردين هيئة مهمتها اختلاق القصص للاساءة إلى سمعة أهل أيقوسيا . ومن المحتمل جداً أن سكان مول — وكانت قديماً شبه جزيرة بعيدة تقع إلى الشرق من جوتلند — هم الذين يؤلفون القصص المعروفة لدى كل دانيمركى ، وهى التى تصور غناء سكان مول. إحدى هذه القصص عن فلاح كان يشكو من أن مالك الحزين يكثر من ارتياد حقله وكان به حنطة ، فنصحوه بأن يرسل رجلا لاخراجه ، فاعترض على هذا بأن الرجل سوف يطأ القمح بقدميه ؛ فأشاروا عليه بأن يقوم أربعة رجال آخرون بحمل الرجل على أكتافهم ! وأراد ذات يوم بعض سكان مول أن يغرقوا فى البحر ثعباناً مائيا فأخذوه فى قارب وساروا به إلى وسط البحر ولكى يعلموا البقعة التى أغرقوا فيها الثعبان ثقبوا ثقباً فى جانب القارب !

جاء ذكر إسبجرج فى سياق الحديث ، وهى الميناء الكبير الواقع على الجانب الغربى من جوتلند ، ولم يكن هـذا الميناء الذى يضم أربعين ألفاً من السكان منذ سبعين عاماً سوى مزرعة صغيرة وحيدة . وفى الجهة المقابلة لاسبجرج تقع جزيرة فانو الجميلة ويبلغ طولها عشرين ميلا ، ويقع على طرفيها

الشمالى والجنوبى قريتان قديمتان غاصتان بالمنازل الجميلة التى نصفها خشبى من حمراء وصفراء . وفى القرية الشمالية يوجد متحف تمثل إحدى معروضاته المزرعة المنعزلة التى كانتها البلدة منذ سبعين عاماً . ولو أن الانسان كان حيا حينئذ وكان بعيد النظر لكان من الميسورله شراء كل ذلك الشريط من الساحل بثمن بخس ، ولكان فى مقدوره أن يبيعه الآن بمبلغ كبير ! كم من الفرص يفقدها الانسان لأنه لم يولد فى اللحظة المناسبة ! وفى الجانب الغربى من فانو يستطيع المرء أن يسوق سيارته فى الرمل ميلا بعد ميل بالسرعة التى يريدها . فالرمال متماسكة تمام التماسك ، وهى بذلك تجعل من الميسور التمتع بتجربة منعشة للغاية .

قد لا تخلب إسبجرج لب السائح الذى يبحث عن الجمال ، ولكن إذا نهض المرء مبكراً وذهب إلى سوق الأسماك التى تعقد فى حظيرة كبيرة من السابعة كل صباح ، فمن المؤكد أنه سيرى شيئاً خليقاًأن يُرى ، فهناك بضعة مزايدين يأخذون أمكنتهم على حافات صناديق السمك وكذلك يفعل المشترون. وعند ما تبدأ المزايدة يجدر بك ألا تومىء برأسك عند ما يكون الدلال ناظراً إلى ناحيتك ، وإلا فستجد نفسك قد اشتريت كمية كبيرة من السمك . ولقد حدث مرة فى ميناء آخر أن كان ملك الدانيمرك السابق كرستيان العاشر يتلهى برؤية المزاد ، فأومأ برأسه مصادفة فأخبر بعد ذلك أنه أصبح مالكا لمائة وأربعين كيلو مربعا من السمك . أما إذا كنت تفضل أن تحصل على السمك بنفسك فهناك عدة أنهار قريبة من إسبجرج حيث يستطيع الانسان أن يصطاد طول اليوم مقابل جُعل بسيط .

وإلى الجنوب الشرقى من إسبجرج تقع مدينة ريب القديمة ذات الشهرة الكبيرة ، وهى تشبه متحفاً كبيراً ، فالكثير من منازلها يُغرى الرسام برسمها . ولقد جاء ذكر مدينة ريب فى القرن التاسع ، وفى القرن العاشر ؛ فقد أخذ تجارها الأغنياء يرسلون سفنهم إلى الأقطار البعيدة ، أما اليوم فالميناء لا يصلح إلا للسفن الصغيرة جدا . وفى ريب وُلد أندرز يوردنج عام ١٦١٩ وكان رئيس تحرير أول جريدة دانيمركية ، وكذا ولد فى هذه المدينة الجميلة عدد من أشهر رجال الدانيمرك ، يدعى أحدهم جاكوب ريز الذى هاجر إلى الولايات المتحدة وأصبح مالكا لجريدة كبيرة ، وقام هناك بالكثير من

أعمال الخير لكل من وطنه الجديد والقديم . وعند ما اتخذ ملوك الدانيمرك كوبنهاجن عاصمة لهم كما أصبحت ميناء الدانيمرك الرئيسية ، اضمحلت سيطرة ريب ، ولكنها لا تزال تضم كاتدرائية رائعة وكنيسة تحوى أبدع أروقة أنشأها فى الدانيمرك الرهبان الدومينيكان .

وفى الدانيمرك أماكن أخرى عدة تستحق اهتمامنا ، وليس فى استطاعتنا أن نذكر إلا القليل منهـا . إن كثرة الأشياء التى يجب أن تُرى فى ذلك القطر الصغير لما يثير الدهش ، مثال ذلك : أى شئ يمكن أن يبعث السرور فى النفس أكثر من رحلة فى جزيرة فن الحصينة حيث يتجه المرء إلى أسنس وطن ويلمرز ذلك البطل البحرى الشاب الذى حارب سفينة نلسون من سفينة صغيرة الحجم جداً إلى حد أن اضطر نلسون إلى أن ينحنى على حافة سفينته كى يتمكن من رؤيتها ، وعند ما تعشى فى تلك الليلة مع الأمير رئيس مجلس الوصاية الدانيمركى التمس منه أن يرق ويلمرز لشجاعته ؛ فاحتج الأمير على ذلك قائلا : « إذا رقيت ضابطاً لشجاعته فيتحتم علىّ أن أرقى كل ضابط فى بحريتنا . » ويستطيع المرء من أسنس أن يتجه نحو الشرق ويذهب إلى فابرج ، وهى مدينة تحوى عدةمنازل من العصور الوسطى معتنى بها جيداً ، وبها متحف للصور أهداه أحد السكان الخيرين وهو مملوء بآثار الفن الحديث . ومن الأفضل الذهاب بوساطة المعبرة من فابرج إلى سوبى فى جزيرة إيرو حيث توجد قرى أخرى قديمة تنتظر منا الاعجاب بها . وفى هذه الجزيرة يعيش مثال معروف يدعى هومرك وهو الذى يحافظ على آثار الفن هناك ، وهو أيضاً يهتم بالريف المحيط به ، ويمنع إقامة أى مبنى قد يشوه من جمال المواقع البديعة التى تلتقى عندها الأرض والمياه .

أما أولئك الذين يحبون رياضة اليخوت فلن يجدوا لهوايتهم جزءاً من العالم أفضل من هـذه المنطقة الواقعـة إلى الجنوب من فن حيث يستطيع المرء أن يبحر إلى مينـاء جديد كل يوم ويجد دائماً الترحيب القلبى الحار . أما سفينزج فهى مزيج أخاذ من القديم والجـديد ، كما أنه من الميسور العبور سريعاً إلى تاسنج الجميلة ، حيث توجد قلعة فلاديمير سلوت التى التى تبعث الرهبة إلى النفوس . وجمـال الطبيعة فى هـذه النـاحية التى تختلط فيهـا المياه مع الأرض غاية فى القوة والتأثير ، إلى حد أن

أى إنسان أوتى رقة فى الشعور لا يقوى على منع نفسه من قــول الشعر .

والجزر الواقعــة على خليج الـكاتيكات أكثر وعورة من بقية الجزر ، وواحدة منها ، وتدعى اتهزلت ، استمرت مدة خمس سنين ، من سنة ١٨١٠ إلى سنة ١٨١٤ ملكاً للانجليز الذين استولوا عليهـا . لأن الدانيمركيين تعاونوا مع نابليون على حين بقيت السويد حليفة لبريطانيا . وكان لابد من بقاء المواصلات مفتوحة خلال هذه البحار الضيقة . وتقص الآن الأقاصيص المتعددة عن الـكابتن موريس الذى تولى حكم الجزيرة أثناء الاحتلال البريطانى لها ، وكان دمث الطباع . ولقد استطاع بمعاونة عدد قليل من الخيول أن يجعل عدداً من السكان المحليين يسحبون عربة كبيرة من الميناء إلى أحد المنازل ، وبعد أن فرغوا من سهمتهم أراد أن يحييهم بتقديم شراب الجرج إليهم ، ولـكنهم أجابوه قائلين : «كلا ! نشكرك فالخيول لا تشرب الجرج ! » وذات مرة أوشكت حركة تمرد على أن تنتشر بين رجال الحاكم ، وسُمع أحدهم يقول : «لعنة الله على الحاكم !» فحكم على الرجل أن يُضرب إلى أن صرخ قائلا : «حفظ الله الحاكم !» ولقد أثرت هذه الطريقة فى نفوس الناس كثيراً

هنرى برلين

نقلها عن الانجليزية سامى ناشد

جولة مستطلع

فى المسرح

انقضى الآن الدور الافرنجى فى دار الأوبرة الملكية ، فحق النظر وجاء وقت المراجعة . وقبل أن أعرض لذلك أحب أن أذاكر قارىء هذا الباب فى شأن قضية لا تخلو من فكاهة . فقد بلغنى أن بعضهم يرى قدوم الفرق الأجنبية القاهرةَ والاسكندرية عبثاً وتكليفاً فى غير ثمرة ، ففى حسبانه أن ليس بثقافتنا حاجة إلى الاتصال المباشر بأسباب الرقى الفنى ... عجيب أن يذهب أحد هذا المذهب ، وأعجب منه أن تصغى أذن من الآذان إلى هذا اللغو . عبثاً أتلفت حولى لعلى اصيب فرقة من هنا سواء فى باب الغناء أم الرقص أم المسرح تستطيع أن ترضى الذوق وتغذو الروح وتعمر الفكر . فجميعها ، ماعدا فرقة الريحانى إذا شئت - وفيها الفرقة التى ترعاها وزارة الشئون الاجتماعية فى استخفاف أو عجز - لا تعدو مرتبة التلاهى . وليست الثقافة التى نبتغيها من معدن اللهو . فخير لأصحاب ذلك اللغو أن يصلحوا أمورهم ويهذبوا طرائقهم ويكسروا من غلوائهم فيسيروا فى طريق الكمال . ومن المستظرف أن سخطهم على الفرق القادمة يميل بهم عن مشاهدتها . ويلحق بهذا أن برنامج المعهد العالى لفن التمثيل العربى (ولا أدرى كيف يتصف بالعلوّ وهو على الحال التى أعرفها) لا يتضمن إقبال الطلبة على تلك المشاهدة .

على أننا لا يغنى عنا شيئاً أن نستقدم الفرق من أوربة ارتجالا . فقد أتت السنةَ أربع فرق إلى دار الأوبرة . اثنتان للتمثيل والثالثة للغناء والرابعة للرقص . وهن على تفاوت عظيم . فكأن إدارة الأوبرة لا ترجع إلى عيار صحيح فى التخير . وهذا أمر يجب أن تصلحه وزارة المعارف ، ولا يكون الاصلاح إلا بفضل لجنة توجه وتراقب ، إذ تضم رجالا رسخت درايتهم بألوان الفنون . ومهما يكن من شىء فان إدارة الأوبرة تسعى ، بقدر ما تتحلى به

سن الكفاية ، إلى تقريب الثقافة الافرنجية من مداركنا ، وحسبها ذلك .

أما الفرقة الايطالية للغناء فقد قلت فيها قولى فى غير هذا المكان . ويتلخص القول فى أنها عدوان على الذوق السليم ، ولك أن تلصق بها متزايداً ما قلته هنا فى فرقة السنة الماضية (الكاتب المصرى ، مجلد ٦ ، عدد ٢٢ يوليو ١٩٤٧) . وأما الفرقة الفرنسية-الروسية للرقص فقد تحدث عنها لعددين مضيا الأستاذ حسن محمود وأجاد ، ولا يسعنى إلا أن أعدها عنواناً للطاقة الفن .

بقيت فرقتا التمثيل الفرنسى . أما الأولى وصاحبتها السيدة بوبسكو E. Popesco فدعنى أدهش من اعتلائها خُشُب الأوبرة الملكية ، فليس هذا المكان مكانها . والحق إن فرقة بوبسكو فى المراتب الدنيا للمسرح الباريسى ، ولا يقبل على مشاهدتها سوى أهل المجون والتفكه السوقى ، ومسرحيات هذه الفرقة من سقط التأليف ، وأداء رجالها ونسائها متخلف عامى ، وبوبسكو نفسها لا تجذب سوى المترخصين من النّظارة ، وهى لا تقوى إلا على التمثيل الذى سداه ولحمته تهريج ، فان خطر لها أن تهجم على المأساة — وقد هجمت فيما أدت هنا — فبئس التعبير تعبيرها . وما أبطأت فرقة هذه الممثلة أن تنحدر من مسرح الأوبرة إلى مسرح آخر فى القاهرة كان بها والله أليق وألصق . ولست بناظر فى عملها .

هذا وشاء الله أن تستدرك إدارة الأوبرة ما فرط منها ، فجاءتنا بفرقة لويس جوفيه Louis Jouvet . وهنا يحسن الكلام ويطول :

أخذ المسرح الفرنسى ينفض عنه غبار التقليد ويتسلل من جمود الاصطلاح فى العقد الأخير من القرن الماضى على يد انطوان Antoine الذى حاول أن يرد إلى المسرح حريته وإلى الأداء صدقه ، ولكنه أسرف فى محاكاة الواقع فنزع اللواسع واللطائف من التمثيل ورضى أن تكون اللغة مبتذلة والموضوع مسفاً والتفكير صلباً . ثم أقبل لونى-بو Lugné-Poe فلقّن الفرنسيين أسرار المسرح الشمالى . وبعدهما نبغ كوبو J. Copeau وكان أديباً كاتباً ، وإليه يرجع الفضل فى تجديد المسرح الفرنسى منذ سنة ١٩١٣ ، لا المسرح الذى تنتسب إليه فرقة بوبسكو تلك ، ولكن المسرح الذى ينضم تحت جناحه أمثال Jouvet وباتى Baty ودولان Dullin وبيتوف Pitoëff وتلاميذهم . علم كوبو

هؤلاء كيف ينفرون من التهريج والتلبيس والتكسب والجهل والحمق ، ثم دربهم على خدمة الفن لكى يعيدوا إليه الروعة والنقاء ، مستخفين بالجمهور البليد أو الرذيل ، ثم شق لهم آفاق التأمل والتصور فأرشدهم إلى تأويل الواقع أو إلى الفرار منه بدلا من نسخه أو مسخه . وهو بهذا يلتقى بأكبر حضنة الفن المسرحى المتأخرين أمثال جريج الانجليزى وفُكس الألمانى . وبهم وبغيرهم كأصحاب جوقات الرقص الروسى تأثر . ومجمل انقلاب القوم أنهم رجعوا بالفن المسرحى إلى الهزة الباطنة .

ومن بين يدى كوبو خرج لويس جوفيه الذى قدم مصر . والحق إنه دون رفيقيه باتى و دولان ودون ضريبهما بيتويف القوقازى ، فى الاخلاص للفن والاستبسال فى سبيله . وأذكر أننا كنا نلازم مسارح هؤلاء الثلاثة ، على حين أننا كنا نقصد إلى مسرح جوفيه مرة ثم مرة : كنا نقصد إليه إذا أدى مسرحية نفيسة ، فعنده تعرفنا المؤلف الكبير جيرودو وأنسنا إليه . غير أن جوفيه لم يتورع من تطلب النجاح المبين ، فكان يخرج مسرحيات يمالىء فيها ذوق الجمهور الأكبر بدلاً من أن يختار ما يفجأ ويرهف أو ما «يجعل المسرح يمضى إلى المشاركة فى الحياة الروحانية بأن ينهض من جديد وبغير غضاضة بمهمته الثقافية فيؤدى رسالته» على حد قوله فى كتاب أخرجه سنة ١٩٣٨ عنوانه *Réflexions du comédien* . هذا ، ولم نسمع قط أنه عانى الضيق الذى عاناه دولان و باتى و بيتويف الذين آثروا الاخفاق الحسى على الاخفاق المعنوى .

ويبدو لك هذا التطلب للنجاح فى أكثر المسرحيات التى جاء بها إلينا ، وهى سبع ، ثلاث منها فى فصل واحد . وهذا مسردها : «مدرسة النساء» *L'École des Femmes* و «دون جوان» *Dom Juan* كلاهما لموليير Molière و «أندين» أو «جنية البحر» *Ondine* . و «أبولون مارساك» *L'Apollon de Marsac* (فى فصل واحد) كلاهما لجيرودو Giraudoux . و «اليوم الجنونى» *La Folle Journée* (فى فصل واحد) لمازو É. Mazaud . و «الكوب المسحور» *La Coupe enchantée* (فى فصل واحد) للافونتين و شامسليه La Fontaine et Champmeslé « وكنوك أو انتصار الطب » *Knock ou le Triomphe de la Médecine* لروماں J. Romains .

وأنا أرد هذه المسرحيات إلى أربعة أضرب . فى الأول تدخل مسرحيتا موليير ومسرحية لافونتين ، وفى الثانى مسرحيتا جيرودو ، وفى الثالث مسرحية مازو ، وفى الرابع مسرحية رومان . أنت تعلم رأيى فى الضرب الأول ، فقد صارحتك السنة الماضية هنا أن فن موليير مهما يعظمه الفرنسيون ويقدسوه ليس فى المرتبة الأولى إذا خرج إلى المسرح ، لأن المسرح فى جوهره يأبى التصنع والبهرجة والمنطق المتصلب والموضوع التفه ! وأظننى رجعتك إلى كتاب Stendhal فى ذلك . على أنك إذا جلست إلى موليير متفكهاً لا متفكراً تمتعت بقدر ماترضيك المشاهد المتهزلة والمواقف المفارقة . وإذا صح ذلك فى مسرحية «مدرسة النساء» فلا يصح كله فى مسرحية «دون جوان» . فالأولى تدور على حب رجل كهل لفتاة نشّأها يظنها ساذجة مخدَّرة مخلصة ، فاذا بها تعشق فتى من وراء نافذتها وتسخر بالكهل . وأما الثانية فعلى شئ من الخطر ، ولعلها فريدة فى أدب موليير . والقصة أن «دون جوان» عند موليير ليس إياه فى العرف الأدبى ، إذ هو لا يقنع بخلب النساء وغوايتهن بل هو فاسق كل الفسق يعذبهن عمداً ويلهو بهن قسوة . و يزيد على هذا السوء فى الخلق بشاعةً فى العقيدة إذ يتحدى الله ويجدف ويترفع عن التوبة . إن «دون جوان» هذا إبليس ، إنه عدو الله مجسداً . هكذا اختلق موليير بطله فأنشأه متصلباً متطرفًا متصنعاً لا ينفضه إحساس بشرى ولا يلف ضميره قلق ولا يتطرق إلى قلبه نضال ، كما هى الحال عند أبطال شكسبير مهما شطوا ومهما غلظوا . وإن استخلصنا فكرة مستوية من هذه الفصول الخمسة مع مافيها من دلائل التسرع فى التأليف والتكلف فى الاثارة خرجنا بأن «دون جوان» عنوان التحرر من القيود الاجتماعية ، ومشعل الثورة على قوانين الفضيلة ، لذلك ما طال تمثيل هذه المسرحية أول ما خرجت سنة ١٦٦٥ .

و «الكوب المسحور» للشاعر لافونتين صاحب «الأمثال» المشهورة والمثل شاميليه من نمط «مدرسة النساء» . نرى فيها رجلا خانته زوجه فأراد أن يربى ابنه بعيداً عن النساء ، ولكن القدر شاء أن يسوق إلى الشاب فتاة فأحبها وتزوجها . وليس فى المسرحية سوى خفة الملهاة .

وأما الضرب الثانى فمسرحية «اليوم الجنونى» . وهى ترجع إلى المذهب «الطبيعى» naturalisme الذى شاع فى حدود مفتتح هذا القرن ، ومعدن

هذا الأسلوب فى التأليف مقتطع من صميم الحياة الجارية tranche de vie ، الحياة الواضحة الجافة ، تلك التى أبرزها زولا Zola القصاص . وإنما مدار هذا الأسلوب محاكاة الواقع المبذول واستخراج حقائقه الظاهرة ، فلا تخيل ولا تلطف ولا شعر ولا وهم . وفى وجه هذا الأسلوب الذى ابتدعه أنطوان قام مذهب كوبو . وقصة «اليوم الجنونى» غاية فى البساطة من جهة العقدة والحس واللفظ ، ولكنها صادقة . وملخصها أنّ صديقين اجتمعا يوما فى ضاحية من ضواحى باريس ، بعد فرقة طويلة ، وفى ظنهما أنهما سينعمان بهذا اليوم ، ولكن كلا منهما سئم الآخر ، ولم يولد فيهما تذكار الماضى سوى التوجع فافترقا على حزن دفين .

وأما الضرب الثالث فمسرحية «كنوك أو انتصار الطب» ، وهى ملهاة تجاور التهريج ، ولا تخلو من الظرف ، ولكنها تستدعى الضحك من طرق مفتعلة ، مثل الملبَس والمَنْمَق (أضع هذا اللفظ إزاء décor) وتكلف الممثلين للتصعير والتكشير . ومقصد هذه المسرحية السخرية بأهل الطب مع الانتصار للطب . فهى تتضمن صراعاً بين طبيب متواضع يمارس حرفته فى أمانة وسذاجة وطبيب طموح يرد حرفته سبباً للتكسب وهو ينشر فوائد الطب الحديث إذ يقنع الناس بحاجتهم إلى الاستشفاء المتواصل .

بقى الضرب الأخير ، وهو الأعلى والأقرب من غاية المسرح . ومادته مسرحيتا جيرودو . وجيرودو هذا من ألمع المؤلفين الفرنسين فى العهد الذى عقب الحرب العالمية الأولى . ولا شك أنه أتى بلون من التصوير جديد ، فأسلوبه مستمد من المنهج الحديث فى الأدب الذى يغلب الموهوم على المعلوم ، والرمز على البيان ، والمجاز على الحقيقة ، والمستطرف على المطروق . فأنت تشعر بأن عباراته أدنى إلى سرب من البداوات المجنّحة ، وبأن الواقع الذى يصفه قد طار من بين يديك بفضل الحس الشعرى . فأدبه طاقة من اللطائف والخفائف ، وفيها ما فى اللطائف عامةً من الزخرف ، وما فى الخفائف من الاستهانة . فكأنه لا يبالى بما يعرض عليك من أسباب الروية والاستمتاع .

ومسرحيته «جنيّة البحر» تدور على تفضيل الحب الفطرى الحيوانى على الحب الاكتسابى الانسانى : فالأول كامل شامل ، طاهر أمين ، مستبد بالعاشق والمعشوق جميعًا ؛ والثانى على الضد من هذا قليلا أو كثيراً . فالجنية عشقت

الفارس «هانس» عشقاً يفوت الإنس ويشق عليهم ، فهى لاتعرف المداورة ولاالمخادعة ، وبسبب هذا خانها عشيقها ، ثم مات غمًّا إذ أدرك أنه ماأحبّ سواها حقاً . وأما هى فتعود إلى مغاوص البحر خائبةً لأنها لم تفلح فى تهذيب الرجال . وهكذا ترى أن القصة من روائع الأساطير ، وأن مغزاها لطيف ، وأن سياقها أدخل فى باب التخيل . ولكنها توحى ولا تقنع . وأما المسرحية الثانية «أبولون مارساك» فمغزاها قريب من مغزى تلك ، ذلك أن المؤلف أراد أن يدل على أن حياة الناس قائمة على الكذب فلا ينجح فيها إلا من نافق ! وأسلوبه فى هذا أن يبرز لنا فتاة فى صدر إقبالها إلى الدنيا تنال مآربها من الرجال وهى تقول لكل واحد منهم : «أنت جميل» ، فيصدقها وإن كان هرماً أو قبيحاً .

تلك هى المسرحيات السبع . وقد أدركت أن ثلاثاً منها فى المرتبة العليا من حيث جودة التأليف ودقة المرمى أو بعد المدى ، وهن : «اليوم الجنونى» و «جنية البحر» و «أبولون مارساك» . وأردف بها «دون جوان» لأنها على ما فيها من إسراف ظاهر تطوى موقفاً فلسفياً .

وفى ظنى أن لويس جوفيه كان يجمل به أن يجعل اختياره للمسرحيات أوفى بالمقصود ، إذ أننا نرتقب من مثله أن يقبل علينا بآيات الفن . وإذا نحن ترخصنا معه فى مسرحية « كنوك أو انتصار الطب» لأنها من مبتكراته فلا نوافقه على تمثيل «مدرسة النساء» ولا «الكوب المسحور» . فهذه تفهة وتلك لاتقدم ولا تؤخر ، وإن كانت لموليير ، بل إن كانت تروق الفرنسيين دون غيرهم.

وكان فى المأمول أن يؤدى جوفيه مسرحية بليغة ، بعيدة الغور ، موفورة التأثير ، زاخرة بالمعانى المستعلية ، جياشة بالمواقف الفائرة ، مسرحية من صنف « البشارة لمريم » *L'Annonce faite à Marie* للشاعر الفرنسى كلوديل . فقد أدتها فرقة J. Marchat السنة الماضية فذهبنا بها كل مذهب وعرفنا كيف تكون الخلابة وكيف تكون الفتنة . والذى يميز كلوديل من جيرودو أنه مقتنع بما يعرض عليك مأخوذ به ، وأن أبطاله حق لهم صفات الجواهر الصافية . ولم لم يعرض جوفيه مسرحية *Électre* لجيرودو ، وهى من مخرجاته فى سنة ١٩٣٧ ، وأذكر كيف أولع بها أهل الفكر الثاقب فى باريس . ثم لم لا يؤدى جوفيه أو غيره من الفرنسيين مسرحية إنجليزية أو روسية أو شمالية

أو إيطالية أو إسبانية . فلا يفوت مسرحاً من مسارح باريس عرض أثر من الآثار الأجنبية منذ بدء هذا القرن . وما أظن الثقافة الفرنسية يفيدها أن يؤدى رجالها مسرحية لشكسبير أو لتشيكوف أو لا بسن أو لبيرندللو أو لكالدرون، وهذا جوفيه نفسه ، وهو أقل الممثلين عرضاً للمسرحيات الأجنبية ، قد أدىّ قبل الحرب الأخيرة — على ما أذكر — مسرحية لجوجول الروسى .

وأما التمثيل فى الاجمال فجيد وخير من تمثيل الفرقة التى قدمت السنة الماضية . وإذا عمدتَ إلى التفصيل لم تجد فى ممثّلات هذه السنة من يقرب أداؤها من أداء Michèle Alfa فى المأساة Gisèle Casadesus فى الملهاة ، وقد كنت حدثتك عنهما . وإن كانت Dominique Blanchar التى جاء بها جوفيه على جانب عظيم من الصبا والملاحة والنعومة فلا تزال مفتقرة إلى الاتقان : فقد تتردد فى الالقاء وقد تتسرع فى الحوار وقد تلتزم النبرة الواحدة أو إشارة بعينها . ثم ما استطاعت أن تحرك الأحشاء بقوة فى «جنية البحر» مع تهيؤ الحس لذلك ، كما استطاعت Alfa فى «البشارة لمريم» . ولعل Monique Mélinand أبرع من D. Blanchar فى التنقل على المسرح ، فلها مواقف مستحسنة فى «مدرسة النساء» .

وفى الرجال ثلاثة أجادوا . هم جوفيه و Pierre Renoir و Fernand-René. ولأنهم اجتمعوا دون غيرهم فى «اليوم الجنونى» أعدّ هذه المسرحية خير المسرحيات من جهة التمثيل : صدق وقصد فى تجاوب وتجاور . ولولا الثالث ما استمالتنا «دون جوان» ، فقد خفف من وطأة الكابوس الذى انتشر فى ذلك الجو الشيطانى . وللثانى قدرة على التعبير المتّين الوافى ، فكأنه متخرج فى مسرح إنجليزى . وأما جوفيه فله عيوب ، أظهرها — إلى جانب الصوت الراتب والالقاء المتقطع تارة المرتعش أخرى — جفاء فيه وتباعد عن النظارة كأنه يتهاون بهم . وهو فى الحق لا يتهاون ، ولكنه — فيما يلوح لى — ذو طبيعة لا تنفضها الحمى اللاذعة . لذلك لا يأسرك ولا يتصل بوجدانك إذا مثل مأساة نحو «جنّية البحر» و «دون جوان» ، ولذلك يستهويك ويدهشك إذا أقبل على الملهاة ، فهو حقا فارسها ، ألا ترى إليه فى «مدرسة النساء» و «انتصار الطب» مثلاً : فى الأولى يأخذ بيدك ويجعلها تجس مواطن

الضعف البشرى من غيرة وغفلة وغرور ، تارة متضاحكاً وأنت فى رثاء وتارة باكياً وأنت فى استهزاء . وفى الثانية عمد إلى المبالغة فى الاشارات واللحظات على قدر المبالغة التى تغلب على النص ، فاستثار الضحك ، وقد أعانه على ذلك عيناه البارزتان وعنقه المستطيل .

بقى الإخراج : فالذى بدا لى أن جوفيه كلف «دون جوان» أكثر مما تطيق ، فقد أسرف فى التنميق إسرافاً ينافر جو قصص موليير ، وكذلك أسرف أحياناً فى «جنية البحر» . ولكنه وفق التوفيق كله فى «مدرسة النساء» : فهذا البستان المضموم فى استحياء ما أحلاه إذا انفتح لك سرُّه فى رشاقة . ووفق كذلك فى «الكوب المسحور» ، إذ استطاع أن ينشر الطراءة فى جو يملأه الحب الظمآن . وقد أحسن فى «اليوم الجنونى» باطراحه المُنَمَّق الواقعى اللازم لأسلوب القصة ، فاختصر المنظر اختصاراً مقبولاً . وأما «لإنتصار الطب» و «أبولون مارساك» فليس فيهما ما يستوقف . وإن فاته شئ فى جملة الاخراج فتلك اللطافه المنبثة فى الأجواء الغائمة ، وقد سنحت له الفرصة فى «جنية البحر» . ولكن جوفيه ليس بشاعر . هو ممثل متَـلهٍ comédien بارع .

ذلك حديثى فى شأن الفرقة الفرنسية التى جاءتنا هذه السنة . ولعلنا نلتقى السنة المقبلة ههنا فيكون موضوع الكلام فرقة للغناء جيدة ، وأخرى للرقص كالتى حضرت ، وثالثة للمسرح فائقة ؛ على ألاّ يكون قوام كل منها فنّ بلد واحد ، فبنا ظمأ إلى الألوان كلها .

بشر فارس

من هنا وهناك

معالم النهضة العربية فى العراق

فى العراق نهضة أدبية جديدة لا زالت فى طور التكون والاختمار ، وهى واضحة المعالم ، بينة الأهداف ، تتجه نحو مجاراة روح العصر والخروج عن الأساليب التقليدية القديمة . تسير هذه النهضة الأدبية قدما بالرغم مما يعترض سبيلها من عراقيل وعقبات ، وتزيد قوة ورسوخا كلما تقدم بها الزمن واتسع لها المدى . وهى إذا كانت تستمد وحيها من الثقافة والآداب الغربية المستقاة من المصادر الانكليزية والفرنسية رأسا وعن طريق مصر ولبنان ، فان طابعها العراقى الخاص قد أخذ يبرز ويتضح شيئا فشيئا .

نشأ الاحياء الأدبى فى العراق متأخرا ، فلم يذر قرنه إلا فى مطلع المائة المتمة العشرين ، بعد أن ظهرت بوادره فى القطرين المصرى واللبنانى منذ عشرات السنين . ويعزى السبب فى ذلك إلى بعد العراق عن الغرب جغرافيا والعزلة الفكرية التى فرضها عليه سادته العثمانيون . لكن هذه البلاد لم تخل فى عصر من عصورها من الحركة العلمية والأدبية ، وقد ظهر فيها خلال القرن التاسع عشر والحقب التى سبقته العدد العديد من الشعراء والكتاب ، وكانت حواضرها كبغداد والنجف والموصل والحلة حافلة بالمدارس العلمية والمجالس الأدبية . بيد أن ذلك النشاط الأدبى الموفور لم يكن سوى صلة متصلة بالماضى البعيد يحيا بروحه التى عفى عليها القدم ويستمد عناصره بالتقليد والترديد والمحاكاة . ولذلك لم يكن ليصح اعتبار الأدب العراقى فى القرن التاسع عشر ، حتى فى أجلى مظاهره وأسماها ، سوى صفحة من صفحات آداب عصور الانحطاط التى اتسمت بالجمود الملازم للحياة الراكدة الرتيبة .

بدت طلائع النهضة الأدبية فى العراق على أثر إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ وكانت قبل ذلك تستجمع قواها الواهنة فى الخفاء ، تتوجس خيفة من الحكم الحميدى الصارم الذى أقام سدا منيعا دون تأسيس المدارس وإصدار الصحف والمطبوعات وجلب الكتب والجرائد من خارج القطر . فلم يكد يعلن عهد الحرية حتى انطلقت الألسنة والأقلام ، وأنشئت الجرائد والمجلات ، واندفع الشباب الظامىء إلى مناهل الثقافة والعلم يرتشف نميرها . وقد تميزت النهضة الجديدة فى تلك الآونة بالتحفز وطلب الاصلاح ؛ فكان الناطقون بلسانها من الشعراء — وفى مقدمتهم الزهاوى والرصافى والشبيبى وغيرهم — يدعون إلى الحرية السياسية والانطلاق من الجمود ويحثون على العلم والتمدن ، وذهبت فئة منهم إلى المناداة بتحرير المرأة وتثقيفها . وكانت النهضة الأدبية متينة الصلة بمنابع الثقافة فى قاعدة الدولة والخلافة وفى القاهرة والشام ؛ فكان الشباب المثقف يقبل على مطالعة الآثار التركية والعربية الجديدة ، كما كان الشعراء والأدباء العراقيون ينشرون بنات قرائحهم فى «المقتطف» و «الهلال» و «المقتبس» وسواها من

المجلات المصرية والسورية . ولم يلبث العراقيون أن أصدروا مجلات راقية كـ « لغة العرب » التى حلت محلا مرموقا فى الأقطار العربية الشقيقة وفى محافل الاستشراق فى الغرب .

لقد كانت تلك المرحلة الأولى لنهضة العراق الأدبية ، ثم تلتها مرحلتان أخريان . بدأت المرحلة الثانية فى نحو سنة ١٩٢٠ ، فبرزت مع الثورة العراقية التى طالبت بحرية البلاد واستقلالها . تميزت الحركة الجديدة بالوطنية ، فدوت أصوات الشعراء منادية باليقظة والاستقلال ، واندفعت أقلام الكتاب تشجب الاستعمار والانتداب ، ثم اتسع أفقها بعد تأسيس المملكة وتبوء الملك فيصل الأول لعرشها العتيد ، فشملت مختلف مناحى الفكر والحياة . بيد أن السياسة قد طغت على الأدب فسلبته أقوى عناصره وأنشطها ، فلم تمض سنوات حتى صدف عن الأدب معظم الشبان الذين أمل لهم فى ميدانه المستقبل الزاهر ، ركنوا إلى النيابة أو الوظيفة وملأوا مناصب الدولة الفتية ضاربين عن رسالة الأدب صفحا . ولا ننسى أن العراق كان مجليا فى مضمار السياسة ، فنال استقلاله قبل سورية ولبنان وانضوى إلى عصبة الأمم قبل مصر ، فكانت عوامل تبريزه السياسى هى نفسها علة تقصيره الأدبى .

أما المرحلة الثالثة فقد بدأت قبيل الحرب العالمية الثانية ولا تزال فى دور النشوء والتكامل . وسماتها واضحة فى الأصالة والخلوص ؛ فهى نهضة أدبية صرف لا تتصل بالسياسة ولا تستجيب لغير دواعى الأمة التى تريد الافصاح عن ذاتها . ومن معالمها فى الشعر نبذ الأساليب والمواضيع البالية ، والأخذ بالمذاهب الحديثة من واقعية ووجدانية ورمزية . وفى النثر نرى الاقبال متجها إلى القصة والرواية تقديرا لما للفن القصصى من شأن عظيم فى تصوير حياة الشعب وتحليل العواطف البشرية ومعالجة المشاكل الاجتماعية والنفسية وأداء رسالة النهضة والاصلاح . غير أن هذه النهضة الأدبية لم تستكمل أسبابها ، ولا تزال تعوزها فنون كثيرة منها الأدب المسرحى والنقد الأدبى وسواهما .

إن الأدب العراقى يكافح فى مرحلته الحاضرة كفاحا شديدا فى سبيل البقاء والتغلب على العقبات الكؤد التى تعترض طريقه . وأولى هذه العقبات البؤس الذى يلازم الأديب ، فالأدب لا يمسك رمق صاحبه ، ولا بد للشاعر أو الكاتب من امتهان مهنة أخرى أو ابتذال أدبه والرضا بالفقر والحرمان . والعقبة الثانية فقدان التشجيع وعدم تيسر المقومات الصالحة لنمو الأدب من معاهد أدبية ومجلات راقية وما ماثل ذلك . والعقبة الثالثة الصعوبات المحيطة بالطبع والنشر من كلفة فادحة وقلة المطابع الجيدة . وفى وسعنا أن نضيف إلى كل ذلك طغيان الصحف والكتب والمطبوعات المصرية ، الرفيع منها والهزيل ، واستئثارها باهتمام الطبقات المثقفة وأشباهها فى العراق ، حتى جعلت من العراقيين قراء أكثر منهم كتابا ومؤلفين .

لكن تلك العوامل المثبطة للهمم لم تفت فى عضد الأدباء العراقيين ولم تقعد بهم عن مواصلة طريقهم الشاقة نحو الغاية القصوى التى يتطلعون إليها ، ألا وهى خلق أدب عراقى حى له مكانته بين الآداب العربية والعالمية الحديثة .

[بغداد] مير بصرى

الجنرال الرهيب

[إن هذا الجندى الجبار – الذى كانت صناعته سفك الدماء ونهب الأعمار ، كان فى أعماقه الرجل المسالم النبيل .]

نظر أحدهم فى معرض الصور الشخصية فملكت عليه المشاهدة كل حواسه ، واستخفه الطرب ، فصار يبسم لهذا الوجه وجه الفريد دى موسيه ، وينحنى أمام هذا الوجه وجه فيكتور هوجو ، ويرفع قبعته لمازينى ، وبيوس الحادى عشر ، ومدام دى بومبادور . وفجأة ، اختفت الاشراقة وغاضت الابتسامة ، عند ما أصبح أمام صورة نابليون بونابرت ! فأشاح بوجهه كمن أصابه مس من الشيطان !

ولعل الرجل كان نمسويا تقطعت رقاب أجداده فى استرلتز ، أو ايطاليا دكت أرض بلاده حوافر الجواد الأبيض ، أو إسبانيا خضع أسلافه لقاهر أوربا . حتى إذا رأى صورة مارد الحرب طافت برأسه ذكريات الدم المراق والاشلاء المتناثرة ، فلم يتحمل مجرد النظر إلى صورة الجنرال الرهيب .

ومثل هذا الرجل كثيرون يحكمون على الأشياء بظواهرها ؛ فرجال العسكرية فى نظرهم رجال قساة عتاة ذوو قلوب متحجرة وعواطف جامدة . وصناعتهم هى سفك الدماء ونهب الأعمار وتدمير المدائن وإهلاك القرى ! ولو أنهم وقفوا النظر وأنعموا الفكر لبدت أمامهم أعظم القلوب خلف هاتيك الوجوه الجامدة ، وأرق العواطف تحت ذلك القناع الوهمى من لقسوة والرهبة .

إن رجال الحرب لم ينزعوا أفئدتهم ولم يقضوا على ضمائرهم حين ارتدوا ثياب الجندية وتمنطقوا سيوفهم وغداراتهم ، وهم حين دعاهم الداعى إلى القتال ، ولم تكن من خوض الحرب مندوحة تقدموا إلى ساحة الخطر ومعمعان الموت ، وليست لهم من غاية إلا الدفاع عن الحمى والابقاء على الشرف والكرامة ، دون أن تخامرهم رغبة فى سفك الدماء أو ميل إلى التخريب والتدمير .

وقلما تجد فى تاريخ عظماء العسكريين وفى حياتهم الخاصة غير صور البطولة والعزة والكرامة ، أما قوة الشكيمة وصعوبة المراس فهى من مقتضيات المهنة وحدها ، وفى ظنى أن أكثر العسكريين الاصلاء إنما كانت نفوسهم تنطوى على حب الخير والرحمة والحنان والعدالة ، على ذلك النحو الذى وصف به المتنبى أميره سيف الدولة ابن حمدان :

قسا فالأسد تفزع من قواه
ورق فنحن نفزع أن يذوبا

وهكذا كان نابليون ، المفترى عليه ، كان فى أعماقه الرجل المحب لخير الانسانية والوطنى الراغب فى سلامة الوطن . كان بناء وإن هدم رغم أنفه ، ومسالماً وإن حارب على اضطرار ، كان رجلا ينشر العلم ويوطد العدالة ويحقق الرق حيث أسال دم الفتوح ، وظل يحارب زهاء عشرين عاما متمنيا أن تفىء بريطانيا

لى رشدها فتتفهم أمنيات ذلك العبقرى فى عالم جديد من العلم والنظام والحرية والاخاء. وقد كتب إلى الملك جورج الثالث يقول: « اننى لا أرهب الحرب ، ولكن السلام هو أمنية قلبى. » فلم يرد عليه ملك الانجليز؛ لأن انجلترا لم ترد منافسا فى سبيل سيادتها على سياسة الدول وسيطرتها على أمور الدنيا، فألبت عليه الحكومات وأضرمت فى وجهه الحروب.

ولم يكن نابليون فظا غليظ القلب، كما صورته الدعاية الغاشمة، ولكنه كان انسانا برا ومفكرا حصيفا، يمتلئ قلبه بعواطف الحب والأبوة والوفاء. وإنك لتجد فى رسائله إلى جوزفين وكتاباته عن النسر الصغير وخطبه فى جنوده ومذكراته إلى المجمع العلمى واللجنة التشريعية، ما يفصح عن عواطف نبيلة وأفكار سامية، إلى نظرات صائبة وعبقرية مواتية.

وقد اتهم المارشال لودندورف بأنه رجل فظيع، وأنه بعناده قد جر على ألمانيا البلاء، فقد كان وحده الذى يرفض التسليم ويحرض على استمرار الحرب، ويطالب بالقتال إلى النهاية، إلى الموت! ولكن قلب لودندورف ما كان يتوق لأمنيات شخصية؛ فقد حقق أعظم ما يتطلبه الانصاف من أى فرد وبلغ أعلى الدرجات العسكرية. ولكنه كان أمينا على شؤون أمته التى ألقت بها بين يديه، حريصا على استعادة مجدها الذى أخذ ينهار أمام ناظريه، تواقا إلى انتزاع النصر، ولو كان بين براثن الموت! أما هواتف قلبه فقد سجلها فى مذكراته إذ يقول: «إن حياتى كلها كانت وقفا على خدمة الوطن والامبراطور والجيش، وما كنت أعمل فى سنوات الحرب الأربع إلا لانهاء هذه الحرب.»

وكان جورج وشنطن مزارعا مسالما لا يعنيه سوى تنمية زراعته وتنظيم حياته الريفية، فلما دوى نفير الجهاد انقلب رجل السلم محاربا مغوارا وأصبح جندى أمريكا الأول الذى قاد جنوده مهلهلى الثياب حفاة الأقدام وشاطرهم آلام البرد والجوع والألم والويلات. وظل سبع سنوات عجاف قائداً عاما للجيش الامريكى بغير أجر. فهذا المحارب الباسل، الذى كانت صناعته القتل والتدمير، كان فى أعماقه الرجل النبيل المسالم.

وعرف عن الاسكندر المقدونى أنه كان محاربا جسورا لا يرهب الموت ولا يحجم عن ارتياد الأهوال، ولكنه كان رجلا رقيقا مهذبا لا يضرب خصمه بعد المعركة ولا يتشفى من غريمه المتجرد من سلاحه. فلما انتصر على داريوس ملك الفرس عامل الشعب معاملة طيبة ورفض أن تحمل إليه زوجة داريوس، وقد كان جمالها مضرب الأمثال، بل إنه حرم ذكر اسمها فى مجلسه، وقال: «اننى لم أحارب لتعذيب الناس، ولكن لتأدية رسالة عليا.» وكان هذا الرجل الذى نكل بالجيوش وقوض الممالك وغزا الدنيا القديمة محبا للعلم والثقافة والحكمة، وكان يقول: « لو لم أكن الأسكندر لوددت أن أكون ديوجين.»

وعند ما انتصر تيمورلنك — المحارب الهمجى — على بايزيد قائد الترك «الملك الصاعقة» أقامه فى ضيافة خاصة معززا مكرما وعامله معاملة الملوك، فلم تعن قسوته

ولم تنسه شدته فى الحرب عاطفته كانسان . ولم تستطع شهوة الانتقام أن تنفذ إلى قلب القائد الرهيب الذى قيل عنه إنه كان أفاقا همجيا ، كما تحكمت فى كثير من رجال السياسة وأقطاب الدول فى أيامنا هذه !

وكان إبراهيم باشا شديدا فى تصرفاته الحربية ، كثير التدقيق فى سير الأمور حسب الخطة الموضوعة ، فكان لا يرحم المخطىء ولا يعفو عن المسىء ، وعزى إليه أنه كان يهوى بالسيف على من يتراجع من عساكره أو يسلم أثناء احتدام القتال ، وبذلك أنقذ النصر من الهاوية فى أكثر من معركة .

وقد روى المؤرخ لين بول أن إبراهيم باشا كانا شجاعا رحيما لين العريكة. غير أنه كان مقاتلا ذا بأس شديد اثناء حصاره لمدينة سولونجى ببلاد اليونان ، حتى أطلقت عليه الدعاية الأوربية لقب «أتيلا» شارب الدماء.

وقد عرف عن القواد العظام الذين اشتهروا بالعنف والقسوة فى حروبهم أنهم كانوا على جانب كبير من روح الفكاهة وعاطفة المرح والدعابة ، وقد روى أن المارشال فوش قائد الحلفاء فى الحرب العظمى الأولى زار الولايات المتحدة فندبت وزارة الحربية أحد ضباطها لمرافقته فى تجواله فاغتبط الضابط المنوب أيما غبطة بهذه الفرصة السانحة التى ستتيح له الوقوف على نظرات وآراء القائد العظيم والاستماع إلى كلمات وملاحظات تضاف إلى خوالد الكلم . فلما بلغ قمة عالية بين الصخور والمرتفعات ، ألقى المارشال بنظره إلى هوة عميقة تحت أقدامه . واستجمع الضابط أنفاسه وتأهب لتسجيل كلمات المارشال العظيم ، فسمعه يقول :

«ياله من مكان مناسب ليلقى المرء فيه بحماته !»

السيد فرج

بين شروق الشمس وغروبها

[حياة فنان خلد بريشته جمال المرأة وأنوثتها ، فحطمته المرأة وسحقته بغدرها وخيانتها !]

فى عام ١٧٢٥ ولد أشهر فنان فرنسى عرفه القرن الثامن عشر . وكان هذا الفنان هو جين باتيست جروز Greuze الذى اشتهر فنه ، وذاع صيته ، وتميز من غيره بتصوير الأطفال ، وإظهار جمال الطفولة ، فى الوجوه الناعمة ، والأجساد الغضة .

التحق جروز الفنان الصغير بمرسم من المراسم البسيطة لرسام يدعى كروندن . وفى هذا المرسم تعلم جروز مبادىء الرسم ، وسرعان ما نبغ فى فنه ، حتى استطاع أن يلفت إليه الأنظار . وابتسم الحظ لكروندن ، فعهد إليه بعض أغنياء الريف تصوير نسائهم وبناتهم ، ولم يفت جروز أن يرافق أستاذه ، وينتقل معه من ريف إلى ريف ، ومن قرية إلى قرية .

ولقد وجد الفتى فى هذه الرحلات متعة

ولذة ، فضاعف جهده ، وأقبل على نماذجه يصورها باتقان ودقة ، يبرز معـالمها ، ويظهر محاسنها ، ويجتهد فى أداء عملـه حسب أصول الفن ، حتى كسب ثقـة أستاذه وإعجاب أصـدقائه . وقد بلغ من إتقانه لرسومه أنه كان يبرز للعين نسيج الثياب ، كما كان يظهر جمال الحسناء التى ترتديها .

وانتقل إلى باريس وهو واثق من نفسه ومن فنه ، معنى بمظهره كل العناية .

لم تكن طريقه فى باريس ممهدة مستوية يشقها من غير عنـاء وصعوبة . وسرعان ما استكشف أن باريس المرحة ، العابثة ، اللاهيـة ، لم تكن على شئ من الرأفة به والعطف عليه ، وأنه لم يكن يعرف من أهل باريس من يكون عونا له على هـذه المدينة الظالمة . كما لم يكن يحمل فى يده بطاقة من البطاقات التى تسهل الأمور .

والتحق بالاكاديمية ، وراح يحضر دروس الرسم بانتظام . ولشد ما كان يكره النقد البـاطل فى خصومه وحاسديه . وحدث ذات مرة ، أن انتقد رسومه أحد مدرسيه ، فرد عليـه جروز بخشونة واعتـداد : « سيـدى ، انك تتمنى لو استطعت أن ترسم مثل هذا الرسم ! »

وخرج وهو ثائر كالبركان ، ودخل على مدير الاكاديمية ليشكو إليـه الأستاذ الفضولى . فلما قابله المدير ، أثنى على رسومه ، وأظهر إعجابه بفنه ؛ فبدت على شفتيـه ابتسامة الارتيـاح وعلت وجهه أمارات النشوة ، فانتهز جروز الفرصة وسأل مديره أن يسمح له بتصويره ، فأجابه إلى طلبـه مسرورا ، فأجاد جروز فى رسمه وأبدع غاية الابداع .

ونقطة التحول فى حياة هذا الفنان ظهرت يوم رسم صورة « رب الأسرة يقرأ الكتاب المقدس لأطفاله » هذه الصورة التى تنافس لشرائها أغنياء باريس حتى ظفر بها أحدهم وهو من هواة جمع التحف النادرة .

وأقبـل عام ١٧٥٥ فـكان جروز فى ايطاليا ، وقد ذاع صيته ، واشتهر أمره بتلك الصور اللطيفـة التى كان يرسمها للفتيات الايطاليات الناعمات .

ورمى القدر بين يديه الأميرة لوتيسيا الأمينة الجميلة للدوقة دللور العضوة فى مجلس النبلاء الرومانى ، وراح يعلمها الرسم ، وهو يعانى فى حبها وصدودها . ولما صار لا يحتمل ضغط الحب المكتوم فى قلبه أخـذ يقلل من زيارتها لعـله ينساها وينسى حبها . وخشى أن يندفع فى حبه ، فيسوقه هذا الحب إلى ما لا يرغب فيه ، وايطاليا فى القرن الثامن عشر لم تكن بالبلاد التى ترعى الحب والمحبين . فترك ايطاليا ، وعاد إلى باريس عام ١٧٥٧ .

وعلى الضفة اليمنى من السين ، كانت تقوم مكتبة كبيرة ، يديرها رجل يدعى بابوتى والظاهر أن هذه المكتبة كانت تتمتع بشهرة عريضة ؛ إذ أن المؤرخ الفرنسى الشهير ديدرو كان يتردد عليها بكثرة ، ويستعين بكتبها .

ولم تكن شهرة هذه المكتبة هى التى جذبت جروز إليها ، وانما جذبته ابنة صاحب المكتبة ، فتاة لها فى الجمال والأنوثة ، ما كان ينشدها كروز لوحيه وإلهامه .

وخلد جروز آن جابريل ألف مرة على الكتان الأبيض ؛ فقد صورها أكثر مما صور رومنى الليدى هاملتون ، ولم تكن الليدى هاملتون بما تملك من شعر ذهبى وجمال ساحر لتفوق آن جابريل ، أو فتاة جروز كما سميت من بعد فى الجمال والسحر والأنوثة .

وغابت الشمس ذات مساء فسمع جروز فى شفتى معبودته السؤال الذى لم يكن

يتوقعه : « جروز ... أتتزوجنى إذا رضيت بك زوجا لى ؟ »

ولم يكن باستطاعة العاشق المتيم أن يقول لمعبودته «لا» . وفى اليوم التالى اشترت لنفسها زوجين من الأقراط الماسية المزيفة ، وراحت تقول لمن يسألها عنهما إنهما هدية الخطبة من جروز الذى ستتزوجه .

ودامت الخطبة سنتين ، راح جروز يعمل فيهما ليل نهار ، ليوفر معدات الزفاف ، وشغل بعمله شغلا عظيما ، فلم يكن له فى الوقت ما يتسع لمعرفة أخلاق خطيبته التى بدأت تظهر عليها علائم السعة مما لم يستطع جروز أن يفهمه !

وجروز لم يعرف حقيقة حبيبته قط ، وما كان يعرف منها إلا جمال وجهها الطاغى ، وجسدها الذى يموج بالفتنة . وكانا يتطلعان إلى يوم الزفاف بصبر نافد ، ولهفة عظيمة ، وقبل موعد الزفاف بأشهر أعلنت آن أنها زوجة جروز !

وابتدأ الزوجان يدبران عشهما الصغير ، وليس لديهما إلا دنانير معدودة .

كانا سعيدين بحبهما . أحب جروز زوجته كل الحب ، وأحب أن يصورها فى كل وضع ، وهى بدورها أخذت بحبه وإخلاصه وفنه . وكانت هذه الفترة فى حياة هذا الفنان ، هى الفترة التى قدم فيها جروز للعالم الرءوس اللطيفة للفتيات الشابات الفاتنات.

وذاعت شهرته فى الأوساط الباريسية ، وشغل عن الناس بالعكوف على التصوير ، فكان يعرض فى صالونه أكثر من عشرة رسوم مرة واحدة .

كان جروز قليل الاهتمام بالمسائل المالية ، فأخذت زوجته على عاتقها الاهتمام بهذه الناحية ، حتى إنها صارت تعين أثمان الصور التى كان يرسمها . وطمعت بما يتدفق بين يديها من مال ، فأسرفت فى الانفاق على نفسها . وكان الأثرياء يزورونها ويتملقونها ، فراحت تنفق بسخاء على زينتها وثيابها ، ونزلت ميدان المقامرة ، فكانت تزور فى حسابات زوجها لتسد خسارتها الفادحة . ومع ذلك فقد كان جروز يحبها ويعبدها .

وذاعت فضائحها فى المدينة ، وأخذ الناس يتناقلون قصصها المخزية . وكان جروز ذات مساء جالسا فى داره ، يستعرض ذكريات الماضى ... ماضى حبه لزوجته ، وماضى جمالها الذى سحره ، فرأى شابا صغيراً على وشك أن يدلف إلى مخدع زوجته ، فأمره بالانسحاب ، ولكن الزائر المعجب بنفسه وبشبابه رفض أن ينسحب وهدد الزوج المسالم بوقاحة ، وانجلت المعركة عن انسحاب الزوج وانتصار العشيق !

وبصمت وسكون طلب الطلاق ، فتم له . ولكنه لم ينس آلامه ، وعذابه النفسى ، فرسم صورة الابريق المكسور ؛ فكانت فى هذه الصورة مأساة حياته مجسمة .

وعلى الرغم من خيانتها وغدرها ، فانه لم يحفظ لها فى قلبه إلا براءتها وطهرها وحبها ، وقد وضع إبريقا مكسورا محاطا بقيد متين للدلالة على سقوطها وسوء حظه .

وقضى أيامه الباقية مع ابنتيه ، يحلم بالماضى ، ويصور حياته بما فيها من حب وغدر وعذاب . وفى عام ١٨٠٥ غابت الشمس فودع جروز العالم إلى الأبد .

ولما سمع نابليون بوفاته ، قال معلقا : لم لم يخبرنى عن بؤسه وشقائه ! إذن لكنت أملأ إبريقه المكسورة ذهباً وفضة.

[البصرة : عراق] يوسف يعقوب حداد

شهرية الفن

A PROPOS DE L'EXPOSITION SAAD EL KHADEM

HENRI EL KAYEM

على ذكر معرض سعد الخادم*

حين دعتنا جماعة الصداقة الفرنسية بالاسكندرية إلى ذاك المعرض ، رمت بهذا إلى أن تدعونا إلى النظر فى الآثار الماضية ، لهذا المصور الشاب . فما أثمره من عمل ! إنه يبشرنا بمعارض لمصورين مصريين آخرين . وهكذا يستطيع الجمهور المهتم بالفن أن يكون لنفسه رأيا عن الهموم الفنية ، للمدرسة الحديثة .

منذ عشرين عاما والتصوير المصرى يسير مع محمود سعيد منقبا فى حقول النهضة الشاسعة ومبرزا طابعه الأصيل فى عدة لوحات يبدو فيها الشعور البدائى فى قالب مأخوذ عن كبار أساتذة الفن . ولم يكن مناص من ذلك . ومما لا شك فيه أن بين تلك الآثار الفنية لوحات رائعة : الدعوة إلى الرحيل ، صورة فوستا ترنى ، بعض صور لناديه ، وهى لحظات هامة فى تاريخ النهضة التصويرية بمصر . وفى الوقت عينه كان ناجى يحاول الوصول إلى مرتبة جوجان ويحاول اتخاذ المذهب الانطباعى ، وبذلك انطوت صفحة أخرى فى الفن المصرى . وهذه المحاولة الثانية لادماج الفن المصرى فى الفن الأوربى ، كانت أقل نجاحا .

فآثار ناجى لا تنهل البتة من معين الروح الشرقى . إنها لوحات رجل مثقف ، تطغى عليها الذكريات الفكرية أكثر من العاطفية . وإن صور ناجى ليمكن أن تحمل اسم أى مصور أوربى ؛ وذلك هو أخطر ما يؤخذ على هذا العمل الفنى الذى يعتبر فيما عدا هذا ، من الآثار النادرة .

أما سعد الخادم فمن نسيج مختلف عن السابقين . رسمه يمتاز بما فيه من قصد بين (وهو تلميذ أوزنفان Ozenfant ولم ينس شيئا من دروس أستاذه) ، وقد بدأ عمله التصويرى بلوحته : حمام تركى .

وفيهايستوحى محمود سعيد، ولكنها تشمل فى بعض أجزائها — مثل الاريكة — شيئا مما سينشده المصور فيما بعد . فالشرق بكليته موجود فى هذه اللوحة الفنية الثقيلة التى تخاطب الحواس . ذلك لأنه إذا كان هناك شرق تسوده أضواء أغسطس ، شرق صحراوى الطرق ، صافى السماء ، فهناك أيضا إلى جانب ذلك ، الشرق الملئ بالمخادع ، والغرف المظلمة ، والطنافس الحمراء .

وفى لوحته : حنين - وهى تمثل شابة

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة «الكاتب المصرى» .

زنجية تحلم ببلدها مثل ذلك الطائر الذى يقف فوق قفصه ويتكلم عن الحرية — يعزف سعد الخادم عن ركم الألوان ، ويبتدع لنفسه خطة ، ويهيئ لنا بذلك عملا فنيا مفعما شعرا وحلاوة ، عملا لا يشبه أى شئ مما ألفنا رؤيته . فما سر ذلك النجاح؟ فى رأيى أن طبيعة بسيطة كطبيعة الخادم تؤتى أعظم الثمرات حين تتاح لها الصنعة الفنية .

ولم يعرض علينا سعد الخادم شيئا آخر من عمله فى الفترة التى أنتج فيها : حنين ، وحمام تركى (عام ١٩٤٣) . وحملت اللوحات التى بيعت فى مختلف المعارض سرها معها. ولم يبق منها إلا منظر لمقابر العباسية ، تلك اللوحة التى تغمرنا فى شقوق أرض تولد فيها المأساة - لا من الموضوع - وإنما من شقوق تلك المادة التى تسيل منها الدماء فى عدة أماكن كأنها جسم ضخم ضحى به . وحين تؤدى شدة الانفعال باللون فحسب لا بعون رسم دقيق أو موضوع قوى فعندئذ نستطيع القول إن الفنان قد نجح فى لوحته ، وإن تعبيرا جديدا قد خلق .

ومنذ سنة ١٩٤٤ أخذ الخادم يسلك نهجا آخر . فهو يهتم إلى أقصى حد بالمنظر وبضوئه وبقصة ذلك الضوء . فهو تارة ضوء يحاكى الفصفور يبدو وكأنه ينبعث من تلك المنازل (مدينة القاهرة) ، أو من تلك القوارب (فيضان فى المعادى) ، وتارة أخرى يبرز ذلك التعارض بين الظل والضوء ويعمل جهد استطاعته لتأدية ذلك التعارض فى وضوح كما يبدو فى لوحاته : البيت الأحمر ، الأرجوحة ، البستانى الصغير ، البستانى ، سيدى بشر ؛ فهى كلها من ذلك النوع . كما أن نظرته تقتصر أحيانا على التقاط خطوط المنظر الطبيعى ، وهو عندئذ يسير إلى نوع من الانسجام المعتدل كما ترى فى لوحته : رصيف بحيرة الفيوم (وهى لوحة ما كان ماركيه يجد غضاضة فى أن يذيلها باسمه) . وإذا كانت هذه اللوحة شديدة التلوين ، فلا عجب لأن الشمس تشرف على توزيع هذه الألوان الصارخة . وفى اللوحة : الفنان فى المرسم ، يحمل الخادم رؤياه إلى عالم داخلى وينجح فى هذه اللوحة نجاحا باهرا ، (وربما كانت هذه اللوحة خير ما أنتجه التصوير المصرى فى بضع السنوات الأخيرة) . وإذا كان الفنان يصل إلى تأدية الغموض بفضل حذقه فى استخدام الابهام والظلام ، فان سعد الخادم يقدم هنا غموضا من نوع جديد ؛ ذلك لأن إشراقه لا يكشف قط عن سره . وربما أمكن تفسير روعة هذا الأثر الفنى بالتقاء عنصرين متضادين : الضوء والغموض .

وفى الأيام الأخيرة ، أخذت عبقرية سعد الخادم تسير نحو ضروب من الانسجام أكثر رقة ودقة . وهكذا نلتقى مرة ثانية فى الديوان الأصغر ، بشئ مما أثار متعتنا فى حنين ، ولكنا نجد فيها فضلا عن ذلك ، حدة فى علم الرسم ، وشيئا من النضج فى الشعور . مضت أربع سنوات ، وزادت خبرة الفنان، بيد أنه ما برح يذكر ماضيه؛ فهو يحدثنا الحديث نفسه ، ولكن فى قوة أعظم وعاطفة أعنف . والديوان الأصغر آخر لوحاته تقع على السفح الشامخ لآثاره .

ولقد أتى وقت أضل فيه الجمهور نوع من النقش اتخذ المبالغة الزائدة كما يتخذ البعض الكلمات اللاذعة الضخمة للتعبير عن آراء تافهة ، أتى على ذلك الجمهور وقت أراد فيه أن يخفى جهله الفنى فاتهم المدرسة الحديثة فى النقش بفقرها فى فن الرسم .

وذلك مأخذ لا يستطيع أحد أن يأخذه على الخادم . فالاستيلاء على عكا ، وصور الطبيعة الميتة بالقلم الرصاص ، natures mortes au crayon هى بمثابة الأساس لعبقرية ما برحت تبهر عقولنا . وبفضل الخادم الذى استوحى مبتكراته من اتصاله اليومى برسم الأطفال (١) وهو الفن الشعبى الوحيد الذى بقى لمصر (ويجدر أيضا أن نذكر هنا اسم الأستاذ عفيفى الذى كان أثره عظيما فى هذه المادة) ، أقول بفضله استطاع النقش المصرى أن يتصل بالنقش الفرنسى المعاصر. وإذا لم يكن بد من أن يكون المرء نبيا ليستأهل النقاش ، فانى أقول إن الجيل الحديث سيطرق السبيل التى رسمها لنفسه لا تلك التى اختارها أسلافه : «لقد اخترت النور» .

هنرى القيم

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) كان فى مصرفيا مضى فن ما زلنا نصادف بقاياه فى بعض المنسوجات . وإنا لنلمس حولنا الميل الطبيعى لشعب وادى النيل الهادئ إلى حب الألوان وإلى سرد أقاصيص ملونة . ولنرجع إلى رسوم الأطفال .

فالطفل إذن هو الحفيظ - دون وعى - على تقاليد الاسلاف . وما تلتقطه عيناه هو اختيار عشرات الأجيال الذى انطبع فى دمه ، وليس من العسير الكشف عن ذلك .

والمدهش أن ذلك الغوص فى نفس الطفل لم يكن بلا جدوى . فالطفل المصرى جهاز مسجل حساس إلى أقصى حد ، إنه مخلوق منح خيالا حلوا وهو يجد فى الرسم وفى اللون وسيلة للتعبير تفضل اللسان الذى تبقى أسراره مستغلقة عليه وقتا طويلا . وما ينقصه ليصير فنانا حقيقيا هو دراسة الصنعة الفنية ، وافتقاره إلى بيئة تتقبله فى وسطها وتسمح له بالحياة . لقد مات الفن فى مصر منذ ثلاثمائة عام لانعدام طلبه .

شهرية السياسة الدولية

تقاطع الكتلتين

يصح أن نسمى الشهر المنقضى فى ميدان السياسة الدولية شهر تقاطع الكتلتين ؛ فقد تميز فى الحق بمظاهر التنابذ فى جميع الملابسات التى اكتنفت الاتصالات أو المفاوضات أو الاجتماعات أو مجرد العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، أو بين الكتلة الانجلوسكسونية والكتلة السلافية فى تعبير ، و بين الغرب والشرق فى تعبير آخر .

ففى ألمانيا شاء البريتانيون والاميريكيون أن يكونوا من منطقتى احتلالهم ومنطقة الاحتلال الفرنسى وحدة إدارية فى حين كان الاتحاد السوفيتى يرمى إلى تأليف حكومة ألمانية شاملة ؛ فقامت السلطات السوفيتية فى برلين تعلن انسحابها من لجنة الاشراف الرباعية المستندة إلى أحد قرارات مؤتمر بوتسدام ، وراحت تعلن حل بعض الهيئات المتفرعة من هذه اللجنة ، بل لجأت إلى الحيلولة دون حرية انتقال البريتانيين والاميريكيين والفرنسيين من مناطق احتلالهم إلى منطقة الاحتلال السوفيتى وإلى برلين ذاتها وهى لا تتصل بتلك المناطق إلا بممرات فى المنطقة السوفيتية .

وفى تريستا رغبت الدول الثلاث أن تعيد المنطقة التى قضت معاهدة الصلح بدوليتها إلى إيتاليا ، فأثار الاتحاد السوفيتى فى وجه هذا الاقتراح نوعا من الدفع الفرعى يستند إلى أن معاهدة الصلح قد أقر نصوصها مؤتمر ضم إحدى وعشرين دولة فلا يجوز تعديل حكم من أحكام هذه النصوص بارادة تصدر عن الثلاث أو الأربع الدول العظمى وحدهن ، بل يجب الرجوع فى شأنه إلى كل تلك الدول الاحدى والعشرين جميعا .

وفى لجنة المستعمرات الايتالية بينما يلوح الاتجاه عن بريتانيا والولايات المتحدة وفرنسا إلى توزيع هذه المستعمرات ولا سيما ليبيا بين انجلترا عن طريق استقلال برقة وربطها بمعاهدة سنوسية بيقينة ، وفرنسا عن طريق تعديل حدودها الغربية بحيث تضم فزان إلى تونس أو إلى الجزائر أو إلى أفريقيا الاستوائية ، وإيتاليا عن طريق انتقالها للوصاية على طرابلس ، إذا بالمندوب السوفيتى فى تلك اللجنة يغادرها إلى موسكو ليتلقى تعليمات قد تتنافر مع ذلك الاتجاه اللائح .

وبالنسبة لفلسطين تميل تلك الدول الثلاث إلى عدم مسايرة فكرة التقسيم وإلى الأخذ بفكرة الوصاية ، على أن تكون آيلة إليهن بالذات عن طريق الارث من عصبة الأمم فى حين يلح الاتحاد السوفيتى فى الاستمساك بمبدأ التقسيم ويكيل لهن التهم مسندا إليهن النيات الاستعمارية والاستغلالية .

رد روسيا إلى حدودها

ويرجع تلك المظاهر لتقاطع الكتلتين إلى ما بيتته الولايات المتحدة من خطة ترمى إلى رد الاتحاد السوفيتى إلى حدوده التى كانت له قبل قيام الحرب العالمية الثانية ، وهى إلى الآن لم تعترف بضم دول البلطيق إليه ، وهى إلى الآن لم تعترف بقيام الحدود السوفيتية الغربية فيما بينها وبين بولونيا عند الخط الذى كان معروفا بخط كرزون ، وانما يكمن وراء تلك الخطة المبيتة حرص أصحاب المصالح المالية الأميريكية على استرداد المناطق التى كانت توظف فيها أموالهم فى أواسط أوربا وفى البلقان ، أو على كسب مناطق جديدة لتوظيف هذه الأموال ، وهم يعرفون أنه حين يمتد النفوذ السوفيتى إلى منطقة من المناطق ، أو حين تسودها النظرية الشيوعية بفعل هذا النفوذ أو بمجرد ملابساته ، فانها يبطل فيها الأخذ بنظام الاقتصاد الفردى ويحل محله النظام الجماعى عن طريق التأميم والتعاون القومى ، فلا يكون هناك مجال لاستثمار أموال فردية ، ولا يكون هناك مجال لتوظيف مال أجنبى أو إقامة صناعات مستندة إلى مال أجنبى .

ولذلك فقد هال الولايات المتحدة أن رأت الاتحاد السوفيتى يضم إلى جمهورياته دول البلطيق ويربط بمعاهدات وثيقة معه دول أوربا الوسطى والبلقان ، فقامت تناهضه بشتى الوسائل الاقتصادية منها والسياسية أملا فى تحويلها عند الحاجة إلى وسائل حربية .

مشروع مارشال

وكان أول ما لجأت إليه الولايات المتحدة فى ذلك السبيل مشروع مارشال ، وقد قدمته فى قالب المعاونة على الخروج بالانتاج القومى فى البلاد الأوربية من الأزمات العسيرة التى حلت به من جراء الحرب وتدميراتها ، ولكنها كانت تقصد به إلى هدفين اثنين : توظيف مالها الأمريكى فى مختلف ميادين تلك البلاد ، والحيلولة بين هذه البلاد وتسرب النفوذ السوفيتى إليها وما يجره وراءه من نظام التأميم الاقتصادى الذى يحول دون توظيف الأموال الفردية أو أموال الجماعات والشركات .

والحق أن الولايات المتحدة حين تقدمت بمشروع مارشال لم تكن واقفة تمام الوقوف على طبيعة الأرض التى تستند إليها أقدامها . فعرضته على دول أوربا كلها وبينها الاتحاد السوفيتى بالذات ، فلما رفضه الاتحاد السوفيتى ورفضته معه بولونيا ويوجوسلافيا ، وترددت تشيكوسلوفاكيا بين قبوله ورفضه أول الأمر ثم انتهت إلى رفضه ، ولم تكن الأمور — من وجهة نظر الولايات المتحدة — مستقرة فيما بقى من بلاد أوروبا ولا سيما فرنسا وإيتاليا اللتين لاح فى أفقهما النشاط الشيوعى بصفة جدية ، حسبت إذا هى مضت فى سبيل تحقيقه أن تروح أموالها إلى حكومات يشترك فيها الشيوعيون أو قد يتحكمون فيها تحكما ، فأخذت هى تتردد فى

تنفيــذه إلى أن وقعت الواقعــة فى تشيكوسلوفاكيا ، فخشيت أن يكون مصير فرنسا ومصير إيتاليا مصيرها إذا هى لم تمد إليهما يد المعونة العاجلة ، فبادرت إلى اتخاذ إجراءاته ، وقررت أولوية تطبيقه على انجلترا وفرنسا وإيتاليا ، وشاء بعض أعضاء مجلس الشيوخ فيها أن يذهب إلى حد خص أسبانيا ذاتها بمنافعه .

وقد شهد الشهر المنقضى إقرار مشروع مارشال فى الولايات المتحدة واجتماع مندوبى الست عشرة دولة التى قبلت تطبيقه عليها بباريس ، وأخذهم إجراءات تنفيذه .

الاتحاد الغربى

وكذلك شهد الشهر المنقضى قيام الاتحاد الغربى بين انجلترا وفرنسا وبلچيكا وهولندا ولوكسمبرج ، لا على القواعد الاقتصادية وحدها بل على القواعد السياسية التى تحاول أن تتاخمها قواعد عسكرية أيضاً .

وتستند القواعد السياسية إلى مناهضة الشيوعية والوقوف فى وجه اتساع دائرة النفوذ السوفيتى ، كما تستند القواعد العسكرية إلى قيام محالفة بين أعضائه تنطوى على محاربة الاتحاد السوفيتى عند الاقتضاء ، وإن لم يذكر ذلك صراحة ، وإن لجىء إلى التعبير بالدفاع ورد الاعتداء بدل التعبير بالهجوم الذى قد يكون مقصوداً فى ذاته .

وتود الولايات المتحدة أن تنضم إلى هذا الاتحاد الغربى وقد بدأت تلوح بأنها على استعداد لتشجيعه بجميع أنواع التشجيع ومنها وسائل المد بالسلاح والذخيرة بخاصة. وكذلك تبذل المساعى فى سبيل ضم أكبر عدد ممكن من البلاد التى لا تزال بين الكتلتين . والمعقول أن إيتاليا ستكون أولى الدول المنضمة ، كما أنه معروف أن وزير الخارجية اليونانية يوجه جهوده نحو انضمام بلاده ومعها تركيا ومصر والبلاد العربية .

الانتخابات الايتالية

على أن حادث الشهر الدولى كان هو بلا مراء حادث الانتخابات الايتالية . وقد كان محدداً لها اليوم الثامن عشر من شهر ابريل المنقضى . وقد اتجهت إليها أنظار العالم كله لما اكتنفها من ملابسات الواقعة التشيكوسلوفاكية من ناحية ، والتكتل الغربى من ناحية ثانية . فقد آلم الوضع الجديد الذى مكن الشيوعيين من أمور تشيكوسلوفاكيا الدوائر الأمريكية الايلام كله ، وهى إنما كانت تهيئ لنفسها النفوذ فى ذلك «الجسر» بين الشرق والغرب ، فاذا به ينهار ليقع فى قبضة الشرق . فخشيت الخشية كلها أن يكون هذا النصيب ذاته نصيب إيتاليا .

وقد جرت المعركة الانتخابية الايتالية بين العناصر المكونة لحكومتها الراهنة ، وهى عناصر الديمقراطيين المسيحيين ، والاشتراكيين المعتدلين ، والجمهوريين من ناحية ، والشيوعيين والاشتراكيين المتطرفين من ناحية ثانية ، مع مساهمة عناصر الملكيين

والفاشيين ومن إليهم من المستقلين . وتميزت تلك الانتخابات باشتراك أكبر عدد من الناخبين وقد قارب فى ذاته التسعة والعشرين مليونا ، وتجاوزت نسبة المشتركين منهم التسعين فى المئة . كما تميزت بمساهمة عنصر النساء اللائى لايزال لرجال الكنيسة الكاثوليكية عليهن سلطان كبير .

والحق أن المعركة قد دارت بين الشيوعيين وغير الشيوعيين فى عموم ؛ فقد كان للبابا نفسه نشاط وكانت للملك السابق أمبرتو هو الآخر تصريحاته . وانتهت الحملة إلى فوز الديمقراطيين المسيحيين بكثرة مطلقة تزيد على الثلاثة والخمسين فى المئة فى مجلس النواب ، وبكثرة نسبية تزيد على السبعة والأربعين فى المئة فى مجلس الشيوخ .

والمفهوم أن يجتمع البرلمان الجديد فى الثامن من شهر مايو ، لانتخاب رئيس الجمهورية الذى يرفع إليه رئيس الوزارة الحالى استقالته ، ويجىء بعده رئيس الوزارة الجديدة . والمفروض أنه سيكون هو الرئيس دى جاسبيرى ، لأنه زعيم الكثرة .

ويبقى التساؤل عن موقف الشيوعيين من الوضع الايتالى الجديد . وقد اذيع أخيراً أنهم قد عرضوا الاشتراك فى الحكم مساهمة منهم فى حركة النهوض القومى ، وقد قيل إن الرئيس دى جاسبيرى لايمانع مساهمة الشيوعيين فى وزارته ، ولكنه يشترط لهذه المساهمة شروطاً يغلب على الظن أنها ستكون ثقيلة فى نظر الشيوعيين .

والمقول كذلك ، أن الديمقراطيين المسيحيين يودون الانضمام من الآن إلى الاتحاد الغربى . وقد يكون فى هذا الانضمام قطعاً لخطوط الاتصال بالشيوعيين الذين يؤثرون البقاء على الحياد بين الكتلتين المتنافرتين .

ترى هل ستترك الأمور تسير فى إيتاليا سيرها الطبيعى بين أصحاب كثرة - غير ساحقة ، وأصحاب قلة - غير ضئيلة - أو ستطرأ عليها مضاعفات التدخل الأجنبى ، من جانب واحد أو من جانبين ؟

ستبدى الأيام القريبة فى ذلك رأيها .

محمود عزمى

شهرية السينما

أحسن سنوات حياتنا إخراج وليم وبلر (ر. ك. و)(1)

يعالج هذا الفيلم مشكلة اجتماعية نشأت حين عاد كل مجند إلى بلده وقد نال القتال شيئا من نفسه أو شيئا من جسمه ، فعانى كثيرا من المشقة واليأس فى أن يجد لنفسه مكانا فى هذا المجتمع الجديد الذى صهرته سنو الحرب فبدلت منه وغيرت نظامه وتفكيره . فهذا أب عاد من الميدان فوجد مصاعب جمة ليحتل مكانه بين أسرته وليقوم بأعماله فى المصرف . وهذا شاب كان ضابطاً فى الطيران يشق عليه أن يعود إلى مركزه المتواضع فى بلدته حيث كان يعمل بائعاً فى أحد المتاجر . وهذا بحار قد بترت يداه فلم يجد من أسرته أو أصدقائه عونا يشجعه على أن يرتد مكانته إنسانا .

فى الحالة الأولى يعود الأب إلى أسرته بعد أن قضى سنين بعيداً عنها ، فيشق عليه أن يحيا معها حياة رب الأسرة فيجوب بها أنحاء المدينة متنقلا من حانة إلى حانة كأنه جندى فى إجازة قصيرة ، ويعود إلى عمله وقد نسى أن الأعمال المالية تستنكر كل الاستنكار شعور الشفقة والانسانية، فيترتب على ذلك مشاكل عدة بين هذا الموظف الانسانى الشفيق وبين إدارة المصرف .

وفى الحالة الثانية نجد شابا كان ضابطاً يتمتع بسلطة مطلقة يأمر فيطاع ، يعود إلى عمله بائعاً يتحكم فيه مديرو المتجر ويتحكم فيه عملاء المتجر وهو مذعن لنزوات أولئك وهؤلاء . وهذه الحال التى تبدلت فجعلته مأموراً بعد أن كان آمرا ، مطيعاً بعد أن كان مطاعا ، وهذه النقود القليلة التى يكتسبها من هذا العمل المتضع ، كل هذا قد نال من نفسه وأشقاه شقاءاً مبرحا .

وأخيرا هذا الشاب البحار الذى فقد يديه فعاد وقد استبدل بها يدين صناعيتين تتيحان له أن يقوم بما يريد من الأعمال ، فلم يجد من أسرته إلا إشفاقا عليه . وهذا الاشفاق لا يساعده على أن ينسى عاهته بل يزيده بؤسا ويأسا ، فينطوى على ما فى نفسه من ألم ، وتنطوى نفسه على ما فيها من عذاب . ولذلك يشقى من عطف أبويه وحب خطيبته إلى أن تجود الأقدار عليه فتهيئ له سعادة يسيرة هادئة .

كل هذه المشاكل الانسانية عرضها المؤلف ودرسها دراسة وافية ، وحللها تحليلا دقيقا ؛ ولكن تفاؤله قد أضاع من واقعية القصة ، فاصطنع لها خاتمة حسنة تدل على هذا التفاؤل الذى لا حد له ؛ فالأب يعود إلى واجبات أسرته ، والشاب يستأنف الكفاح ليحقق آماله ويصيب شيئاً من طموحه ، وذو العاهة يتزوج بمن أحب . كأن الحياة لا هم لها إلا أن تسعد الناس وترضيهم ...

لقد نال هذا الفيلم جوائز عدة للتمثيل والاخراج والقصة ، وجعلت الدعاية منه إنتاجا فنيا يثير الاعجاب . ولكنه فى الحقيقة لا يزيد عن أنه إنتاج موفق عادى قد امتاز عن الأفلام الأمريكية الأخرى لأنها ذات

---

(1) The Best Years of Our Lives *(R. K. O.)*

قيمة فنية ضئيلة . فالانتاج الأمريكى قد أخذ يهمل المشاكل الانسانية والاجتماعية — ما عدا قليلا من الأفلام التحليلية — ويتجه إلى الملهاة الخفيفة العابثة ، أو إلى قصص المغامرات الحربية والبوليسية . فحين يفكر مخرج أمريكى فى تحقيق قصة إنسانية أو فى معالجة مشكلة اجتماعية يعد ذلك حادثاً خطيرا فى تاريخ الصناعة السينمائية وتأخذ الدعاية تمهد له سبل النشر . كذلك كانت حال فيلم «أحسن سنوات حياتنا» . وهذا الحديث لا ينقص من قيمة الاخراج الذى ابتعد عن تصوير الحياة الانسانية تصويرا سطحيا ولا من قيمة التمثيل الذى امتاز فيه فردريك مارش خاصة فى منظر كان ثملا فيه ولا من قيمة قصته التى تجعله فى مقدمة أفلام الموسم .

الدخيل (مترو جلدوين ماير)(١)

هذا فيلم ثان يعالج مشكلة اجتماعية وليدة الحرب ولكنها أقل خطرا وعمقا من المشاكل التى يعالجها الفيلم الأول . «فالدخيل» يتجه نحو مشكلة عاطفية خالصة يعرضها علينا عرضا دقيقا لا يهمل فيه أى تفصيل . فهذه امرأة قد ذهب زوجها إلى الحرب وتركها وحيدة فى قريته ، ثم تعلم أنه قد قتل وهو يحاول أن يهرب من معسكر الاعتقال . عاشت وحيدة فى منزلها وهى معتقدة أن زوجها لم يمت حقا وأنه عائد إليها ما فى ذلك ريب . وفى ذات يوم يصل إلى المنزل صديق من أصدقاء الزوج كان فى الأسر معه وسمعه يتحدث عن زوجه ومنزله مرارا فشغف بالزوج دون أن يراها . (ويبدو هنا أن المؤلف حين وضع قصته كان قد فرغ من قراءة مسرحية «الرسول» لبرنشتين .) يصل فيعلن للمرأة حبه بعد أن أكد لها كاذبا أنه رأى زوجها يموت برصاص الألمان . وأخذ يستعطفها ويلح عليها ويزيد فى إلحاحه حتى أشفقت عليه فسمحت له بالاقامة فى المنزل إلى أن يهيئ لنفسه سبل العيش . ولكن لم تكن هذه الاقامة خالية من إلحاح الشاب على الزوجة واعترافاته بما يكنه لها من حب صادق . وأخيرا أمام هذا الالحاح العنيد وهذه الاعترافات المحمومة لا يسع المرأة إلا أن تمتثل له وتقبله زوجا . وهنا يقع ما لم يتوقعاه قط : يعود الزوج وهو على يقين أن زوجته تنتظر عودته فى لهفة شديدة ، وأنها ما زالت حريصة على حبها له وفية لما يكن لها من عاطفة . وكم كان مبلغ دهشته حين رآها قد قبلت أن يكون هذا الدخيل بديلا له . لم يثر بل هدأ من روعه ، وأدرك أن زوجته لم تقبل صديقه زوجا لها إلا وفاء لذكراه . وينتهى هذا الموقف بقتل الدخيل وبعودة الزوج إلى زوجته .

ومما لا شك فيه أن الاخراج قد نجح فى تصوير هذه القصة وتحليل نفسيتها ، وقد اصطنع المخرج لذلك أساليب عدة : إلتجأ المخرج إلى عرض الحوادث بالتقهقر ، فعرض علينا الزوجة وقد فرت هاربة إلى باريس بعد أن قتل زوجها صديقه الدخيل وفى هذا المنظر أخذت تقص علينا مأساة حبها . وكانت قصتها متقطعة ، إذ أراد المخرج أن

(١) Desire Me *(Metro-Goldwyn-Mayer)*

يكون للزوج نصيبه فى عرض هذه المأساة فصوره لنا وهو فى الاعتقال مع صديقه . ولم يقتصر عرض الحوادث على سرد أبطال القصة بل كانت للصورة النصيب الأكبر فى تسجيل هذه الحوادث . وقد يبدو أن هذا الأسلوب فى الاخراج قد يشوبه شئ من الاضطراب : فثمة عدة أشخاص يقصون حوادث الفيلم . غير أن المخرج قد نجح فى أن يجعل كل شخص يتحدث حين تطلب الحوادث أن يقص هذا الشخص ما وقع له من مغامرات . وكذلك نجح المخرج فى ألا يسود الاضطراب أسلوب الاخراج ، وأن ينهج نهجا لا يعوزه الابتكار .

إنه من المؤسى أن تشهد فيلما ولا تجد فيه إلا ممثلا واحدا يدرك كيف يقوم بدوره خير قيام فى حين أن الآخرين يكتفون بأن يسردوا أدوارهم سرداً دون أن يحاولوا أن تعبر وجوههم عن شعورهم الدفين . فالممثلة جرير جارسون وهى انجليزية الأصل كانت الوحيدة التى تمثل دورها تمثيلا صحيحا حيا . أما الآخرون ومنهم روبرت ميتشوم وكان يمثل الزوج وريتشارد هارت وكان يقوم بدور الدخيل ، فانهم لم يمثلوا إطلاقا . والسينما الأمريكية عامة لاتقدم ممثلين قادرين إلانادرا ، فهى تؤثر أن يكون الممثل وسيم الطلعة ، وأن تكون الممثلة ذات جاذبية جنسية شديدة . فليس للفن هناك إلا مجال ضيق وقد استأثر به من المخرجين والممثلين من هاجروا من أوربا إلى مدينة هوليوود .

مركز البوليس إخراج هـ . ج . كلوزو (ماجستيك فيلم) (١)

كان اسم الممثل لوى جوفيه ، السبب الوحيد الذى جعل النظارة تتهافت على هذا الفيلم . فانه بلا ريب ضمان كاف لنجاح أى إنتاج فنى ، وذكره فى الاعلان يجعل الجمهور يجد فى السعى لشهود القصة التى يمثلها . ومن المعروف أن الجمهور ساذج جدا ، وأنه لا يفكر مطلقاً أن ثمة مخرجين يؤثرون التجارة على الفن ، وأن ثمة ممثلين لا يأبون أن يؤجروا أسماءهم وفنهم ليروج ما ينتج هؤلاء المخرجون . وسذاجة الجمهور هذه وعبث المخرجين هما اللذان يهيئان عادة لأفلام تافهة مثل «مركز البوليس» نجاحا لا يلبث أن يزول .

لقد سمعنا عن لوى جوفيه قبل أن يصل إلى مصر أنه رجل دقيق فى عمله وفى فنه وأنه لم يقبل الحضور إلى بلادنا إلا بعد أن ألح عليه من طلبوا منه الحضور واشتدوا فى الالحاح ، فتنزل وقبل أن يمثل أمام جمهور مصر . وهذه الشائعات التى راجت حول هذا الممثل الفرنسى ، قد تدفع المرء إلى أن يعتقد أن فنانا يعتز بمكانته وبفنه لا يقبل أن يشترك فى أية رواية ولا أن يعمل تحت إدارة أى مخرج . ولكن يبدو أن ما تخيلناه شيء وأن الحقيقة شيء آخر ؛ لأن لوى جوفيه نفسه قد اشترك فى فيلم تافه أخرجه رجل يؤثر أحيانا المحاكاة على الابتكار .

وقصة «مركز البوليس» تدور حول جريمة كان ضحيتها أحد مديرى شركة سينمائية ، فيأخذ أحد مفتشى الأمن العام فى البحث عن القاتل . ولم يكن ذلك

(١) Quai des Orfèvres *(Majestic Film)*

بالشيء اليسير . فهناك ثلاثة أشخاص تحوم حولهم الشبهة : هناك شاب تزوج من غانية فلم يهدأ له بال من سوء سلوك زوجته . وكانت تلك الزوجة على موعد بالقتيل يوم الجريمة ، فذهب زوجها لينتقم من الاثنين فلم يجد إلا العاشق وقد فارق الحياة . والشخص الثالث هو فتاة تسكن بجوار الزوجين وتعلم ما بينهما من شقاق ، وقد أرادت ، حين رجعت الزوج من ميعادها الغرامى معتقدة أنها قتلت عشيقها ، أن تمحو آثار الجريمة فذهبت إلى منزل العشيق لتحضر منه الفراء التى تركتها هناك صديقتها . وكذلك نشهد بعد حدوث القتل كل إجراءات التحقيق فى مركز البوليس حتى ينتهى مفتش الأمن باكتشاف القاتل ، ولم يكن من هؤلاء الثلاثة الذين اتهموا فى بداءة القصة .

والمخرج قد لجأ إلى أسلوب أمريكى فى إخراجه . فقد حشد الحوادث المثيرة فى فلمه ، فيجعلك دائماً فى لهفة تزداد عنفا على مصير كل من المتهمين وأنت تدرك تماماً أن ليس من مسئول عن هذا القتل غير الزوجة ! وقد جعل أيضا من الصحفيين عنصر فكاهة للاضطراب الذى يحدثونه كلما خرج أحد المحققين من حجرته وأسرف فى السخرية منهم . أما المناظر الخارجية فكانت مضطربة تحقيقاً وتصويراً ، فالشاهد يشعر أنه أمام مشهد فى الاستديو لم تصل آلة التصوير إلى أن تعطيه طابعاً واقعيا .

غير أنه من العدل أن نعترف لهذا المخرج بعنايته فى بعض المناظر بالتفاصيل الدقيقة مثلا فى منظر هروب الزوج بعد أن اكتشف قتل عشيق زوجته ، وفى منظر اللبن الذى ينسكب بينما الزوج يقبل زوجته ، وفى منظر عيد الميلاد الذى لا يوحيه إلا الثلج الذى يتساقط فى الخارج .

ولم يكن الاخراج وحده الذى لم يصب حظا من التوفيق ، بل كان أيضا التصوير والصوت . فالاضاءة ضعيفة جعلت الصورة رديئة بيضاء ، وتسجيل الصوت ردىء أيضا حتى أن المتفرج لا يفهم الممثل حين يتكلم مهما كان إلقاؤه .

وإن كان الشاهد قد أخذ بحظ يسير من المتعة فقد كان ذلك لتمثيل لوى جوفيه الذى قام بدور مفتش الأمن العام ، فأخرج لنا شخصية الشرطى العنيد الذى لا ييأس من البحث والجد حتى تبدو الحقيقة ولكنه فى الواقع طيب القلب إنسانى الشعور ، ولتمثيل شارل دولان فى دور مدير الشركة السينمائية رغم قصر دوره ، ولاداء برنار بلييه فى شخصية الزوج الذى تعذبه الغيرة . ولولا تمثيل هؤلاء الثلاثة ما كنت لتجد شيئاً تذكره من هذا الفيلم .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

نشر النصــــوص

منذ أربعة قرون أنشأ البابا غريغوريوس فى رومة مدرسة لدراسة النصوص العربية ، يختلف إليها رجال الدين يقرءون فى رقاع قديمة بالية ، وبين أيديهم مقاييس للمساحة يختلفون حينا ويتفقون حينا ، فينقاد إليهم الفهم صاغراً طوراً ، وينصرف عنهم غاضباً طوراً . وما هو إلا أن يعودوا إلى النصوص اللاتينية ينظرون كيف تنشر وكيف تقوم حتى يعملوا للعربية ما عمل زملاؤهم للاتينية سواء بسواء . ولم تنفرد رومة وحدها فى هذا وإنما تبعتها باريس وفينة وغيرها من عواصم الغرب ، فأخرجت كتبنا العربية فى تحقيق علمى ونشر صحيح . وبين أيدينا « تاريخ ابن العميد[1] » و « كتاب تيمورلنك لابن عربشاه[2] » و « أمثال لقمان[3] » ... ... وغيرها من كتبنا نقرأ التعليقات فيها والحواشى والمقدمات والخواتيم فندرك دقة العمل وما عرض له العاملون .

ونستطيع فى كثير من اليسر أن نفهم سبيلهم ذاك ؛ فقد وصفه العلماء بعدهم ، ووقفوا له الكتب ، وأنشئوا له المحاضرات والدروس ، وخصوه بشهادات معينة يقضى لها الغربى سنوات فى مدرسة الآثار ، والدراسات العليـــا ، وقراءة الكتـابات القديمة La Paléographie [4] .

فمنهم من يعنى بقراءة النصوص على الحجر ، ومنهم من يأخذ نفسه بقراءتها على الأقمشة ، ومنهم من ينظر إليها فى الكتب والأوراق . وكلهم متفقون فى أن النص جسم ذو روح يحيا ويموت ويبعث . فاذا بتر منه عضو أو قطع منه عضو استعاده العالم كما كان قبل البتر أو القطع . ونظرة واحدة إلى ما تنشر المعاهد الأجنبية بيننا من كتابات على القبور والمساجد والمحاريب فى مجلدات ضخمة متعددة ترشدنا إلى أن هذا العلم قد أخذ حظه من نفوسهم واستمكن من عقولهم [5] .

---

(١) « تاريخ المسلمين للشيخ المكين » طبع مع ترجمة إلى اللاتينية بعناية إربانيوس Erpenius فى ليدن ١٦٢٥ .

(٢) « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لابن عربشاه الدمشقى ، تصحيح غوليوس Jacob Gollius فى ليدن ١٦٣٦ .

(٣) « أمثال لقمان » طبع فى ليدن بعناية اربانيوس عام ١٦٥٦ .

(٤) للتوسع فى هذه المادة اقرأ : Sylvestre, *Paléographie Universelle*, Paris 1839-1841.

Chassinat, *Paléographie des chartes et des manuscrits du XIe au XVIIe siècle*, Paris 1841

(٥) أخص بالذكر ما نشر فى مصر عن الكتابات العربية فى عدة أجزاء كبيرة :

Van Berchem, *Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum*, Le Caire, IFAO, 1922...

Combe, Sauvaget et Wiet, *Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe*, Le Caire, IFAO, 1931, 13t.

وإنى لأذكر فى كثير من العجب هذه المحاضرات العملية التى استمعت إليها فى باريس ، وبرلين ، وليبزيغ [١] وقد نشر المحاضر بين مستمعيه صوراً لقبر قديم أو لبساط أثرى ، وراح الطلبة يقيسون المقدار المخروم والمقدار المتبقى فى الكتابة وينشئون من جديد رسما للألفباء التى استعملها الكاتب فى تصوير الواو أو الفاء أو الياء مثلا ، ثم يطبقون ذلك على السطور التى بين أيديهم ، فاذا هم يقرءون النص بمقاييسهم العلمية ، وإذا نحن نعمد إلى التخمين أو الظن فنرجع إلى محفوظاتنا فى آية استشهد بها الكاتب أو حديث اعتمد عليه المؤلف ، فربما أصبنا وربما أخفقنا ؛ ونحن فى كلا الحالين لا نعتمد على علم وإنما على ما يشبه الايمان بقوتنا وقدرتنا فى العربية . وشأننا فى نشر الكتب والمخطوطات معهم كشأننا فى قراءة سطر أو سطور . فهم حين يهمون بنشر كتاب من الكتب يبحثون أول ما يبحثون عن حياة المؤلف وعن الأوساط التى قرأت له وانتصرت لمذهبه فى الأقطار العربية ، ويذهبون فى البحث وراء المخطوطات التى انتقلت من هذه الربوع إلى مكتبات أوربة فيرسمون سبيل تنقلها وشجرة نسبها حتى تظهر لأعينهم أم النسخ وبناتها وقريباتها كما بحث أجدادنا العرب فى الأنساب والاسناد سواء بسواء .

وهم إذ يتأكدون بعد الفحص الدقيق من قرابة بين النسخ ونسب يرسمون جدولا يبينون به هذه القرابة وهذا النسب ، وذلك بأن تزيد طائفة منها كلمات فى التشيع مثلا لمذهب أو لحزب ، أو تحذف كلمات من هذا التشيع ، أو تشتد فى التعصب للمؤلف أو تغلو فى التعصب عليه بالحذف والاضافة . ودليل الباحثين فى ذلك كله موطن الناسخ وتاريخ عصره ومذهبه بالنسبة إلى المؤلف . فاذا غاب أكثر هذا فالورق جسم ذو روح - كما قدمنا - يدل على حياته باللون أو الغلظ والكثافة ، ويدل المداد على قدمه ، وتدل الكتابة على موطنها من أقطار العربية . وهكذا يحيا الناشر عاماً أو عامين أو أعواما يسائل عن أصل النص وأمه وعشيرته ، فاذا تبين له الأصل والفرع شرع فى استقصاء التقارب بينها ، فيرد النص كما كان فى حياة المؤلف على وجه التقريب وهو يرسم قاموساً لمفردات العصر ، ومرجعاً لاختلاف المعانى ، فيحدد معلوماته عن القرن نفسه وبيئة المؤلف ذاتها ، فيعزل عن النص ما أضاف إليه الناسخ المتأخر ، ويشك فيما لا يجد لاثباته نصاً واضحاً .

هذا هو النشر العلمى [٢] 'Edition critique درجت عليه مدارس الاستشراق منذ أربعة قرون فأخرج أصحابها كثيراً من كتبنا كما أخرج زملاؤهم فى اللاتينية واليونانية أو اللغات الأوربية القديمة .

وأكبر الظن أن الناشرين فى البلاد

(١) رأيت منذ أشهر خلال إقامتى بدير الآباء فى «به يرون» Beuron بألمانيا ، ما يقوم به العالم الأب آبل Pater Abel من قراءة نصين كتب أحدهما فوق الآخر ، فهو يزيل الكتابة المتأخرة بنوع من المداد فى فحص دقيق وتحضير واسع بحيث لا يمس الكتابة الثانية ، ويقرأ كلا من الكتابتين بعد تصويرهما ، فيستفيد منهما معاً ، وخاصة فى دراسة نسخ من الانجيل أو التوراة وقد علق عليها نساخ أو مالكون للنسخ .

(٢) فى الفرنسية كتاب جدير بالتعريب فى مصر وغير مصر يلقى ضوءا على هذا العلم هو : Louis Havet, *Manuel de Critique Verbale*, Paris (Hachette) 1911

العربية لن يحسنوا النشر العلمي حتى يقفوا على هذا العلم وقوفاً دقيقاً ؛ فالأدباء العلماء والأساتذة المختصون أدركوا أن اللغة علم يهيأ وأن الأدب علم يحضر ، وأن البحث فى هذا وذاك ليس من السليقة فى شىء وليس من الفطرة فى أمر ، ولا يدرك بالمران فحسب وإنما تجب له الطرق العلمية السليمة . ومرد شقائنا فى الشرق أننا فى كل ظروف حياتنا وألوان عيشنا نعرج على الفطرة ونعتمد على السليقة سواء فينا الممثل والموسيقى والمعلم والمتأدب ، فى كثير من الغرور الأعمى والاعتداد المسرف .

ولست أغلو حين أقول إننا لم نصنع كثيراً مما يعتمد على العلم فى نشر نصوصنا . وسأقتصر على مثلين اثنين هما فى كتابين لهما أثرهما وأهميتهما :

أولهما «كتاب الأغانى» ، يعاد طبعه منذ عام ١٩٢٧ ولم يخرج منه أبعد من الجزء الحادى عشر . وقد كان الظن أن ينتهى الجزء فى عام كامل على كثرة العاملين فى القسم الأدبى بدار الكتب المصرية . ولعل من الخير لأبى الفرج أن لا يفرج عن أجزائه الباقية قبل أن يجمع الناشرون مخطوطاته المتفرقة فى أطراف المكتبات العالمية ؛ فليس من الجد فى شىء أن يطبع هذا الكتاب العظيم على اثنى عشر مخطوطاً من مجموع ما فى المكتبة التيمورية ودار الكتب المصرية فى أقل من ثلاثين جزءاً . وأن يقتصر هذا على نسخ مصر وحدها فيصيب الجزء من الأغانى نسخة وبعض النسخة ، وفى أوربة أجزاء كثيرة منه [1] . فقد رأيت منها فى كوبنهاغ ، وفى برلين وفى باريس وليدن ورومة . وهى قديمة فى أكثرها ، تصحح النص المتزعزع ، وتكمل الناقص ، وترد إلى الصواب[2] . وما فى الظن أن الفرصة بين الحربين الماضيتين لم تتح جمع هذه النسخ الثمينة ، فقد كان ورود النسخة آنذاك من كوبنهاغ إلى مصر أقرب من وصول مخطوطات القلعة إلى مكتبة باب الخلق .

وثانيهما «أبو العلاء المعرى» ؛ فقد حرم الرجل الجد فى حياته وحرمه بعد مماته ، فضاعت أكثر مؤلفاته ، وتفرق الباقى فى خزائن العواصم ؛ ولم يغن الناشرين الأفاضل القراءة والتعليق لأن مخطوطات الشراح الثلاثة التبريزى والبطليوسى والخوارزمى ونسخ المتن لسقط الزند فى مكتبات أوربة قديمة عتيقة أثرية على أكثرها شهادات وسماعات حال جد أبى العلاء دون استقصائها واستجلائها ، وقد رأيتها كذلك فى زيارتى الأخيرة لمكتبات أوربة منذ شهور ، فلم أصبر على تركها فى مخابئها كما صبرت على «الأغانى»

---

(١) سأذكر أماكن هذه الأجزاء وعددها فى العواصم من غير ذكر لأرقامها خوفاً من الاثقال ، فهى ستة أجزاء فى باريس ، وخمسة فى برلين ، وخمسة فى لندن ، واثنان فى كمبريدج ، وعدة أجزاء فى مونيخ ، وجزء فى كل من رومة ، وكوبنهاغ ، وفينة ، والاسكوريال ، والجزائر ، وغوطا . ذلك عدا نسخ استامبول فلم أرها حتى الآن ، وهى كثيرة .

(٢) نشرت مجلة Z.D.M.G. للمستشرقين الألمان فى المجلد الخمسين (ص١٤٥ إلى١٠١) مقالا للمستشرق فلهاوزن يكمل فيه الجزء الرابع عشر من الأغانى ؛ من طبعة مصر القديمة عدة صفحات ؛ ونشرت غيرها مثل هذا . فالأمل أن يسعى الناشرون إلى استيعاب هذا كله ، وسد النقص ورأب الصدع .

وإنما استلبتها من المكتبات على أفلام وصور، وهأنذا أحملها إلى أصدقائى ناشرى أبى العلاء فأرد إلى قيصر ما لقيصر. راجياً أن يبسطوا فى ذيل طبعتهم ما فى النسخ المجلوبة من زيادات هامة وتصويب وتصحيح، فهى تسبق نسخهم ستة قرون فى الوجود وتفضل عليها بالضبط، وبذلك يقل الاشكال فى طبعتهم، ويموت الشك فى صحة صنيعهم.

فليس من العلم فى شىء أن تقوم طبعة حديثة على احدى عشرة نسخة لثلاثة شراح ومتن؛ وفى العالم منها ما يقرب من السبعين نسخة خطية فى المكتبات [1].

وإذا كنت أبسط هذا للناشرين فانى إنما أقصد إلى أن النشر العلمى لا يتطلب الرجوع إلى القواميس فحسب أو إلى المراجع اللغوية ليس غير، وإنما يتطلب الرجوع إلى التاريخ وعلم الخط والآثار وفن القراءة، وذلك فيما أرى غريب على أكثر ما تخرجه مطابعنا، حتى ليخيل إلى أن الناشر يعمد إلى مكتوبة صفراء يريدها مطبوعة بيضاء ليس غير؛ يتصرف فى تصحيح النص كما يريده عقله ولغته وأسلوبه وفهمه فى القرن العشرين ضارباً بالأساليب العلمية عرض الحائط. وسبب ذلك فى رأيى أن أكثر النقد فى صحفنا لا ينظر فى الكتب المنشورة إلى أم النسخ وفروعها وشبيهاتها وعمر الناسخ وصلة صناعته بالعلم، وإنما يعرض إلى فتحة سقطت فغدت كسرة، وسكون انقلب فغدا ضما، ونقطة عبثت على الرسم وتنقلت على الحروف فأصبح المعجم مهملا والمهمل معجما، فيخص الناشر بكثير من الكرم فى اللوم وكثير من البسطة فى التعنيف، ويرى أن ظلمه للنشر أكثر من رحمته فى الجهد. وقديماً ألف علماء العربية فى التصحيف والتحريف والأغاليط والاشكال كتباً كثيرة كالعسكرى والأصبهانى والصفدى والبصرى [2]

---

(١) عرض الناشرون فى مقدمة الجزء الأول (ص ط) إلى عدد النسخ التى بين أيديهم. وفى مقدمة الجزء الثانى وصفوا ما وصل إليهم من نسخ بعدها، ولكنهم لم يعرضوا للاصول التى فى العالم على عادة النشر العلمى، فلم يوازنوا بينها وبين نسخهم التى طبعوا عليها، مع أن الفهارس ميسرة. فنحن هنا نذكر فى إيجاز عددها وأماكن وجودها عوناً لاخواننا ومشاركة فى إحياء آثار أبى العلاء.

ا) نسخ المتن ثلاثون: أربع فى برلين، واثنتان فى باريس، واثنتان فى مدريد، وأربع فى أكسفورد، وثلاث فى لندن، ومثلها فى كوبرولى، واثنتان فى الفاتيكان، وأخرى فى الموصل، وكوبنهاغ، وليدن، وكمبريدج، وفينة.

ب) ونسخ التبريزى أربع عشرة: فى كوبنهاغ وليدن واكسفورد وليبزيغ وكمبريدج وفينة والموصل ولندن وكويرولى وفيضى باستانبول.

ج) ونسخ الخوارزمى عشر: فى ليدن وبرلين ولننغراد وبيروت وأيا صوفيا، ويكى جامع، ونور عثمانية والموصل.

د) ونسخ البطليوسى ست: فى اكسفورد والاسكوريال وعاشرو وحامد وفاتح وأياصوفيا.

هـ) وضوء السقط أربع نسخ: فى لندن وباريس وليدن وكويرولى.

فالأمل أن يرجع الناشرون إلى الفهارس فيصفوا هذه النسخ فى خاتمة طبعتهم.

(٢) وعناوين هذه الكتب هى: «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف تأليف أبى أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى» و«التنبيه على حدوث التصحيف تأليف=

وأكثر هذه الكتب مخطوطات فى دار الكتب مصورة عن استانبول أو أصيلة فى المكتبات المصرية ، يستطيع القارىء أن يرجع إليها ، وأن يقرأ فيها : «أن التصحيف والتحريف قلما سلم منهما كبير ، أو نجا منهما ذو إتقان ولو رسخ فى العلم ... فقد صحف جماعة هم أئمة هذه الأمة ، وحرف كبار يدهم من هذه اللغة تصريف الأزمة(١) » ويقرأ عجباً كذلك فى باب « تصحيفات العلماء فى شعر القدماء(٢) » فسيرى أن الخليل ، وأبا عمرو بن العلاء والسجستانى والأصمعى والأخفش والجاحظ والمفضل وابن سلام ، وحماد الراوية والفراء وثعلب وابن السكيت والمبرد ، وأن غيرهم من أعلام النحو واللغة قد ضلوا وأخطأوا ، فصرف المؤلفون حياتهم ستين عاماً أو سبعين فى تسقط أخطائهم وتلقط تصحيفهم واستيعاب تحريفهم، فصرفوا العمر من غير جدوى ، وأنفقوا الحياة فى أعظم البلوى .

وما أرى كثرة الناقدين فى الأقطار العربية إلا مقلدين تقليداً أعمى لهؤلاء المؤلفين ، لا ينظرون إلا إلى الحروف كيف ضبطت وإلى الحركات كيف رسمت وإلى الكلمات كيف صورت . أفلم يعلموا أن هذا وحده مات مع الزمن،وأن اللغة العربية تحتاج معه إلى هذا العلم الجديد لعلها تقف فى نشر نصوصها لما نشر الغربيون من آدابهم أو تنافس طبعات الغربيين لنفائسنا . فليس قليلا أن نحيا عيالا عليهم،نسرق طبعاتهم ونشوه نظامها ، ونبتر مقدماتها ، ونحذف فهارسها ، ثم ندعى أننا وحدنا نضبط الحركات ونقوم الكلمات ونخدم العربية . والله أعلم بما نصنع وبما ندع ...

سامى الدهان

*

[هيئة التحرير] : ليس لنا على هذا المقال القيم للدكتور الأديب ، إلا ملاحظة واحدة يسيرة ، وهى أن علماءنا لم يخطئوا ولم يضلوا فيما بذلوا من جهد لاثبات ما تورط فيه الرواة والشراح ، من التصحيف والتحريف ونقده والدلالة عليه .

وكما أن عمل هؤلاء العلماء لم يغض ، ولا يمكن أن يغض من قدر الأئمة والرواة ، فعمل الذين يثبتون ما فى نشر النصوص حديثاً من تحريف أو تصحيف ، لا يغض ولا يمكن أن يغض من قدر العلماء الناشرين . والمستشرقون أنفسهم يأخذ بعضهم بعضاً بما يتورطون فيه من تحريف أو تصحيف . ويكفى أن يرجع الاستاذ إلى ملاحظات الأستاذ وليم مارسيه على نشر كتاب البخلاء الذى قام عليه فان فلوتن .

والانسان يخطىء ويصيب ، والعصمة لله وحده . ولم ينصح لك أحد كالذى يدلك على خطأ تخطئه أو غلط تتورط فيه . والمهم كل المهم هو أن ينسى العلماء أنفسهم ، ولا يذكروا إلا العلم وحده وما ينبغى لطلابه من التماس الحق والصدق والصواب.

=حمزة بن الحسن الأصبهانى» و «تصحيح التصحيف وتحرير التحريف تأليف أبى الصفا خليل ابن أيبك الصفدى» و «التنبيهات على أغاليط الرواة لأبى القاسم على بن حمزة البصرى» .

(١) «تصحيح التصحيف للصفدى» الورقة الأولى من المخطوطة .

(٢) «التنبيه على حدوث التصحيف للأصبهانى» ص ٦٨ من المخطوطة .

من وراء البحار

الصين ومشاكلها

يظن بعض الساسة أن الشرارة الأولى لأى نضال ينشب بين الروس والأمريكان سوف يبدأ فى الشرق الأقصى . ذلك ما يقوله هؤلاء الساسة و إن كان غيرهم يشير إلى مواقع أخرى قد يحدث فيها الاحتكاك . ومهما يكن من شئ فان الأخبار عن الصين قليلة ، حتى ليسر المرء أية معلومات يعثر عليها فى المجلات تكون مكتوبة بقلم رجل خبير . ولقد نشرت مجلة «القرن التاسع عشر وما بعده» بحثا من هذا النوع بقلم مستر تونى جبسون الذى قام وقتا طويلا بعمل إدارى فى شمال الصين ، وعهد إليه بمهمة المفاوضة مع الشيوعيين فى الصين ؛ فهو إذن يكتب عن خبرة . وهو يقول إن الحياة فى الصين قائمة على المساومة ثم الاتفاق . فاذا أراد التاجر الصينى أن يبيع أو يشترى فان المعاملة تفقد كثيرا من بهجتها إذا لم تقم على المساومة . وما يتفق عليه الطرفان ليس هو ما يؤملان فيه ولكنه نتيجة لجهودهما . ولذلك يحب الصينيون الاتفاق على الأمور، وهذا ما يحدث حتى فى الحروب ؛ فان الحروب فى الصين قد تكون مضيعة للوقت ولكنها لا تؤدى إلى نهك قوى الصينيين . وعند ما يتقابل جيشان متعاديان لزعيمين مختلفين فى تلك البلاد ويكون أحدهما أضعف من الآخر ضعفا ظاهرا ، تقوم بينهما المفاوضة وتؤدى عادة إلى انسحاب الضعيف منهما من ميدان القتال . فترى الفريق الأقوى منهما يترك للضعيف الفرصة كى يعترف بهزيمته وينسحب دون إراقة الدماء .

ولكن يظهر الآن أن الصين دخلت طور التطرف . فقد حدث فى الأشهر الستة الأخيرة أن اصطدم جيشان كبيران ثلاث مرات اصطداما عنيفا ، ولم يحدث فى أية مرة من هذه المرات أن انسحب الجيش الضعيف . ففى منشوريا تقدمت الجيوش الوطنية إلى الشمال على طول خط السكة الحديدية وانتصرت على الشيوعيين فى معركة زبنكاى نصرا كلفها كثيرا . وفى ولاية شانتونج تقدم جيش وطنى فى شبه جزيرة كياوتنج محاولا أن يمنع الشيوعيين من الوصول إلى البحر . وفى ولاية هونان وولاية شانتونج الغربية حاول الوطنيون أن يقتحموا المنطقة ويعبروا النهر الأصفر إلى أن يصلوا إلى مدينة شنجشون التى هى مركز للاتصال بالسكك الحديدية . ولكن الحروب فى الصين لا تنتهى إلى النهاية الثابتة التى تنتهى إليها المعارك فى الغرب . فهذه الهجمات الثلاث من الوطنيين انقلبت إلى حالة توقف عن إتمام العمل الذى بدأت به . ففى منشوريا عاد الشيوعيون إلى استعمال الأساليب التى كانوا يقاومون بها اليابانيين ، فأحاطوا بكل مدينة من المدن التى استولى عليها الوطنيون . فصارت الجنود الوطنية محصورة على حين لا يسيطر الشيوعيون على الأراضى فيما حول المدن . وفى شانتونج تمكن الشيوعيون من اختراق الجيوش الوطنية وعبور النهر الأصفر وقاتلوا فى معركة غير حاسمة

فى ميدان يبعد ثلاثين ميلا عن مدينة هانكاو . وقد أصاب الوطنيون نجاحا أكبر فى الميدان الثالث حيث أبعدوا الوطنيين عن البحر .

ولقد طبل الوطنيون وزمروا باستيلائهم على مدينة ينان عاصمة الشيوعيين فى السنة الماضية . ولكن الأمر انتهى إلى أن أحاط بهم الشيوعيون ، فصارت المدينة كأنها جزيرة فى أيدى الوطنيين يحيط بها بحر من الجيوش الشيوعية .

ويعتقد الكثير من الرقباء أنه ليس لدى أى الفريقين المنازعين فى الصين من القوة ما يستطيع به الوصول إلى انتصار حاسم فى جميع الميادين . ولا ريب فى أن الوطنيين مسلحون تسليحا جيدا بالأسلحة الأمريكية ، ولكن الشيوعيين يعتمدون على تحمس الشعب لهم فى الجهات التى يسيطرون عليها وهو مالا يجده الوطنيون . ويأمل الشيوعيون فى مساعدة روسيا إذا زادت مساعدة الأمريكان للفريق الآخر . ومجمل هذا أن الفريقين عازمان على القتال إلى النهاية .

ففى مساحة تبلغ مساحة أوربا بأكملها لا تجد ضمانا للحياة ولا للمعيشة ، وكل فريق يجند الفلاحين فى وحداته . وإذا كان الرأى العام يميل إلى الشيوعيين فان الذين يجندون لا يقابلون هذا العمل بالحماسة . وتجد كل فريق يرتكب فظائع ضد الفريق الآخر زاعما أنه إنما يفعل ذلك انتقاما . وقد أخذت الصناعة فى تلك البلاد تختنق تدريجيا . وقد حاول الشيوعيون فى منطقتهم أن يمنعوا التجارة مع المنطقة الأخرى ولكن هذا غير مستطاع ما دامت الصناعة فى تلك المنطقة غير متقدمة . وفى منطقة الوطنيين أخل الخصم بالمواصلات حتى صار مرور البضائع صعبا جدا .

وليس هذا القتال القائم هو المسئول وحده عن الأزمة التى تواجه الصين الوطنية . فقد ظلت الحكومة الوطنية عدة سنين نهبا للاستغلال السياسى والاقتصادى على يد رجال الحزب ، ويستعمل الوزراء سلطتهم للربح غير المشروع . وقد رأى الحلفاء فى أثناء الحرب أن يغضوا عن هذه الأمور حفظا للوحدة . ومع ذلك رأى القائد الأمريكى جون ستلول أخيرا أن الاستمرار على هذه السياسة يسئ إلى الأمور أكثر مما يفيدها .

ولم تعمل الحكومة الوطنية لاخفاء الحقيقة على العالم الخارجى وحده بل اتخذت من سلطتها وسيلة لكم أنفاس المعارضة داخل البلاد .

ولكن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذه الحال ؛ إذ أخذت الحقيقة تظهر حتى لأشد أنصار القائد الصينى . ولقد أرسل الجنرال فيدمير الأمريكى فى بعثة إلى الصين لبحث الموقف وكان تقريره خطيرا ، حتى عدل الرئيس ترومان عن إذاعته . ولكن الجنرال نفسه تكلم عند مغادرته للصين عن الموظفين الذين تنقصهم الكفاية أو تعوزهم الأمانة ممن يشغلون مراكز السلطة فى الحكومة الصينية الآن . ولا يمكن لممثل دولة صديقة أن يدلى بمثل هذا القول دون أن تكون لديه براهين ساطعة .

ولقد سارت الأمور الاقتصادية بأسرع من الأمور السياسية خطى فى طريق الخراب . فالتلاعب بالعملة على يد رجال المال فى نانكين وشنجهاى أدى إلى فضيحة ظهرت أخيرا وقد اشترك فيها رجال وزارة المالية . ولقد اضطرت عدة مصانع صغيرة إلى إغلاق أبوابها بسبب التضخم فى العملة . ففى نحو سنة ١٩٢٠ كان الدولار الصينى خمسة أضعاف قيمة الدولار الأمريكى ، وعند ما

شبت الحرب الأهلية هبطت قيمة الدولار الصينى فبلغت فى سنة ١٩٣٧ خمس الدولار الأمريكى ، وفى سنة ١٩٤٥ صار سعر الدولار الأمريكى ألف دولار صينى ، وهو الآن ٩٣ ألفا ، ومع ذلك لا يزال التضخم مستمرا .

ولقد نشر أخيرا أحد الكتاب الصينيين مقالا عن سقوط دولة شنج التى حكمت بلاد الصين قبل ألفى سنة ، وفيه يقول : إن هذه الدولة جمعت السلطات فى يدها ، وإن هذا الجمع للسلطة مع اتخاذ قوانين استثنائية قد أدى إلى النضال والثورات . وقد لفت هذا المقال الأنظار واعتبره الناس سبيلا لوصف الحالة القائمة لا لوصف سقوط دولة تاريخية . ولكن من الملاحظ أن الصين كثيرا ما تتغلب على رجالها الحكمة حين تبدو الأمور فى أشد الخطر ، فتعود الأمور إلى تسوية معقولة .

ومما يلاحظ أيضا أن الطلبة فى الصين مثل زعمائهم يتراوحون أحيانا بين التطرف فى العمل والخضوع مع السكينة ، وكثيرا ما هبوا لانقاذ بلادهم . وفى سنة ١٩١١ أيدوا رسالة الدكتور سان يات سن ونصروه فأثروا بذلك فى الملايين؛ فكانت النتيجة طرد الأسرة المالكة وتولى الدكتور سان زعامة الصين الحديثة . وكان الطلبة هم الذين نشطوا فى سنة ١٩٢٦ ونظموا الجماهير الجاهلة للقضاء على سلطة الحكام فى الولايات الصينية .

والآن تقدم الطلبة مرة أخرى لانقاذ الصين ، فاحتجوا على استمرار الحرب الأهلية والرشوة التى انتشرت فى مصالح الحكومة المختلفة ، وذلك بالرغم من تهديدات الحزب الحاكم وبالرغم من المعسكرات التى حجزوا فيها والاعتداءات التى لاقوها من رجال الشرطة السياسية . ولقد استفادت الحكومة الوطنية كثيرا من الأنظمة التى كانت متبعة فى البلاد الألمانية تحت النظام النازى ، فألفت من الشباب المناصر لها جنودا تتخذهم جواسيس ويكونون أداة لها فى امتداد سطوة الحكومة . ويجد الأجنبى من أنواع الشرطة فى الصين مالا يستطيع تمييزه ، ولكل من هذه الأنواع واجبه المدنى والسياسى . وفى جهات كثيرة مثل شنجهاى التى هى بعيدة عن ساحات القتال تجد الأحكام العرفية قائمة منذ سنين ولا حد لسلطة القواد العسكريين .

ومنذ شهر أبريل الماضى خرج آلاف من طلبة الجامعات فى كل مدينة من المدن الصينية إلى الشوارع وهم ينادون بالرغم من السياسيين بوقف الحرب الأهلية ، ولا يزالون يطالبون بذلك وإن كانت بعض الجامعات تحيط بها الأسلاك الشائكة ويقف حولها رجال الشرطة بأسلحتهم .

وعلى أثر أول صدام بين حركة الطلبة والحكومة الوطنية فى مايو ويونيه الماضيين هدأت الأمور مؤقتا فى حين أخذ كل من الفريقين يجمع جموعه . وقد أرسل القائد العام باقة من الزهر لتحمل فى جنازة الطلبة الذين قتلوا بيد الشرطة ، وظهرت نداءات داعية إلى ضبط النفس والابتعاد عن العنف . ومما يلاحظ أن هذه النداءات كانت موجهة للمعتدى عليهم لا لرجال الشرطة والجيش . ولكن يظهر أن الزمن الذى تذرف فيه دموع التماسيح قد مضى وتجددت الأنباء الآن بعودة المشاغبات وعودة القبض على الطلبة . ولقد أظهر الطلبة شجاعة وإصرارا ، ولكن هاتين الصفتين ليستا كل ما يميزهم بل خير صفاتهم هو الاحتمال . فهم الآن واقفون بين الفريقين المتطرفين اللذين يمزقان الصين تمزيقا . فهؤلاء الطلبة ينادون بأن على الفريقين أن يسويا ما بينهما من خلاف

وهم لا يريدون الصلح بأى ثمن ، وإنما يريدون وقف تلك الحرب التى ستقضى على البلاد كى تستأنف البلاد العمل لاعادة بنائها الاقتصادى وإحياء القيم الاخلاقية .

ومما يسترعى النظر فى حركة الطلاب ما حدث بها من تغير منذ شهر يوليه الماضى . فقد كانت هذه الحركة تجأر بالشكوى من غلاء المعيشة وتدخل الحكومة فى الدراسات وتحويل ميزانية التعليم إلى الامور الحربية والقضاء على الحريات فى كل مكان . ولكن الطلبة الآن لا يهتمون بالشكوى بقدر اهتمامهم بوسائل العلاج . وأول علاج يرونه ضروريا هو وقف الحرب الأهلية وأن يبدل بالحكومة القائمة حكومة تتألف من المعتدلين من رجال اليمين واليسار . ولكن الطلبة يحاولون شيئا أكبر خطرا من ذلك ؛ فقد قرروا أن يقوموا بثلاث واجبات هامة : أولها أن يعملوا لضم الفلاحين إلى حركتهم وأن يحيوا فكرة تربية الجماهير . وأخذ الطلبة يقصدون القرى ليبتدئوا هذه الحركة من أولى درجات السلم ويعلموا الفلاحين مبادئ القراءة . وهم يحملون رسالة أساسية للاقتصاد القومى فى الصين اليوم ؛ فهم يريدون أن يقيموا فكرة الاعتماد على النفس كما نراها فى إحياء الصناعات الريفية بطريقة تعاونية . وهى حركة تعد فى مبدئها بالنسبة لمجهودات الطلبة ، وإن كانت قد انتشرت منذ عشر سنوات لغرض آخر هو إيجاد مصنوعات يستغنى بها الجيش فى مقاومته لليابانيين . وقد أخذ الطلبة يصنعون بأنفسهم مصنوعات يستطيعون بيعها فى الشوارع لمساعدة حركة الطلاب . وهم يتوسعون أيضا فى رسالتهم ، فهم يريدون أن تكون الصين مستغنية بنفسها لا تعتمد على الاستغلال التجارى الأجنبى . وقد ظهرت أكبر النتائج لهذه الحركة فى المدن الكبرى التى بها جامعات فى الأشهر القلائل الأخيرة . فهم لم يكتفوا ببيع المصنوعات التى صنعوها بأنفسهم فى الشوارع ، بل قصدوا التجار الصينيين فى كل مدينة واتفقوا معهم على بيع مصنوعاتهم وتقسيم الربح بين التاجر وبين صندوق الأموال الذى يغذى حركتهم . وقد حدث فى المدن الساحلية مثل شنجهاى أن فقدت الحوانيت الأجنبية عملاءها بين يوم وليلة ؛ اذ صار الناس فى كل مكان يصغون إلى نداء الطلبة : «اشتروا البضائع الصينية ولو كانت من نوع أقل جودة فان ذلك هو السبيل الوحيد لاستقلال التجارة الصينية .»

وكان أثر هذه الحملة عميقا ؛ فلم تمض أسابيع حتى استطاع الطلبة بجهودهم أن يدبروا من الأموال ما يكفيهم للاستمرار فى دراساتهم بالرغم من أن الحكومة قررت معاقبة الذين يعارضونها منهم بالحرمان من المجانية .

وفضلا عن ذلك فان طبقة التجار البعيدة عن السياسة صارت تؤيد قضية قيام حكومة متآلفة .

وإذا كانت حركة الطلبة متجهة فى أساسها نحو الاقتصاد الوطنى فان لها تأثيراً آخر إذ اتجهت نحو الاحزاب الديمقراطية فى الصين . ولقد أخذ الأحرار يتتبعون خطوات الطلبة فى شئ من التردد . فقد كانوا خائفين من بطش الحكومة ، ولكنهم أخذوا يرفعون الصوت تأييدا للطلبة ، وأبدى المعلمون والأساتذة بل موظفو الحكومة أنهم فى صف أولئك الذين يعملون لاحياء الوطن .

هذه هى الحرب القائمة داخل الحرب

الأهلية الأخرى فى الصين وإن كان الناس لا يعرفون عنها كثيرا . فان الصحف توقف ، والصحفيين يقبض عليهم ، والسياسيين يختطفون أو يفرض عليهم الحجز فى منازلهم . ولكن بالرغم من ذلك تتسرب الأنباء بأن النضال مستمر . ولا يزال الفريقان المتطاحنان يمزقان أوصال الصين ، ولكن هذه القوى الحيوية تعمل لاحياء البلاد وإنقاذها من الموت .

بريطانيا وحكومة العمال

فى مقال ساخر - بمجلة « بارتيزان » عدد ٦ - وصف الكاتب آرثر كيستلر حالة انجلترا وصفا طريفا ، بدأه بلغز يسترعى به الانظار سائل فيه ما السبب فى أن الكاتب - أى كيستلر - يعد نفسه سعيداً فى السنة الثالثة من حكم الاشتراكية البريطانية فى انجلترا لو أنه كان كاثوليكى العقيدة وكانت له جدة مريضة ؟ وهو يجيب على هذا اللغز بقوله : إنه لو كانت له جدة مريضة لسمحت له الحكومة البريطانية بما يكفيه من البنزين ليأخذها بسيارته مرة فى الأسبوع للصلاة فى أقرب كنيسة كاثوليكية وهى فى مدينة بنجور على مسافة ٥٠ ميلا، وبهذه الطريقة يستطيع أن يذهب إلى أماكن عدة ويرى العالم من حوله . ولا ريب فى أن الجدة لو كانت تابعة للكنيسة الانجليكانية أو الويزلية لنفعت فى مثل هذا الأمر ، ولو أن الكنائس تكون أقرب فى المسافة وأن البنزين يكون أقل . وهو يقول إنه خال من مثل هذه القرابة ، وليس من الذين يرتادون الكنائس ؛ ولذلك فهو فى موقف صعب ، وهو يعيش فى تلال ويلز وسكنه يبعد عن موقف السيارات العامة فى الريف بنحو ميل . وهذه السيارات لا تعمل بعد الساعة التاسعة مساء ولا تعمل مطلقا فى يوم الأحد . وأقرب بلدة يوجد فيها حوانيت وسينما ومحطة للسكك الحديدية من القرية التى يعيش فيها تبعد ميلين . وهو يكون سعيدا لو منح ترخيصا خاصا بأن يذهب لشراء حاجاته مرتين فى الأسبوع . على أنه لا يسمح له إلا بشراء حاجته وألا يكون له الحق فى أن يستعمل القطرات التى يعطاها من البنزين لهذا الغرض فى زيارة صديق أو الذهاب إلى السينما أو تناول الطعام خارج الدار . وعلى كل رجل من رجال الشرطة أن يبلغ عنه لو رأى سيارته متحركة أو واقفة فى أى مكان خارج عن أقصر خط يصل بين داره وأقرب الحوانيت إليه . ومعنى هذا أن يقضى الشتاء بأكمله هو وزوجته دون أن يستطيع زيارة الأصدقاء أو الذهاب إلى مطعم عام أو دار سينما أو مسرح أو محاضرة أو حفلة موسيقية . ولتفكر فى هذا الأمر قبل أن تستمر فى القراءة .

وهو يدعونا إلى التفكير فى أن هذه حال مئات الآلاف من الناس يعيشون فى الريف ولا يجدون وسائل النقل ، فهم لا سيما فى فصل الشتاء حين تظلم الدنيا مبكرة ، ينقطعون عن الحياة الاجتماعية والثقافية ، وكأنه فرض عليهم الحجز فى بيوتهم ، على أنهم فى يوم الأحد يستطيعون الذهاب بسياراتهم فى موكب إلى الكنيسة . والعجيب فى الأمر أن حكومة اشتراكية

ترى أن الذهاب إلى الكنيسة أهم من المحاضرات والمسارح والاجتماعات . وليس لهذه الظاهرة ما يماثلها غير مقاطعة الحكومة البريطانية لانتاج الكتب . وليست هنالك كلمة أخرى تصف السياسة التى تجرى عليها تلك الحكومة حين تخفض من الورق الذى يعطى للناشرين .

وينتقل الكاتب بعد ذلك إلى البحث فيما يعنيه منع الناس من استعمال سياراتهم من الجهة الاقتصادية ، وهو يقول إن الحكومة البريطانية تزعم أنها توفر بذلك ما قيمته ٤. مليون دولار من البنزين الذى تستورده من الخارج ، ولكن نقادها ومنهم أعضاء فى حزب العمال يرون أنها لن تقتصد أكثر من عشرين مليونا . وقد ظهر حتى الآن أن نقاد الحكومة فى الأمور الاقتصادية كانوا دائما على حق فى حين كان المدافعون عنها خاطئين . ومع ذلك لو أننا قبلنا تقدير الحكومة فان هذا الشلل الذى يصيب المواصلات فى بريطانيا لن ينقص من العجز الناشئ عن قلة الصادرات غير ١٠٫٠٪ من مجموعه . وتعترف الحكومة فضلا عن ذلك أن خسارتها فى ضرائب السيارات تزيد كثيرا على المبلغ الذى اقتصدته ، ولكنها تعتذر عن ذلك بأن الضرائب تدفع بالعملة الاسترلينية لا بالدولارات ؛ ولذلك كانت هذه الخسارة غير مكروهة . ثم تعترف الحكومة كذلك بأن عددا كبيرا من عمال الآلات الخاصة باصلاح السيارات وحاملات البنزين وغير ذلك لا يجدون عملا ، وتقول الحكومة مع ذلك إن هذا الأمر لا يهم ؛ فان صناعات أكبر انتاجا سوف تتشربهم . وكلمة التشرب هذه كلمة موفقة نافعة ، وهى لا تشير إلى الكيفية التى بها تنتقل الأسر من الأماكن التى قل بها العمل إلى الأماكن التى بها نقص فى الأيدى العاملة ، وبها فضلا عن ذلك نقص فى المساكن للأسر الوافدة . هذه الكلمة ولا تشير إلى ما سيحدث فى المستقبل إذا عاد الناس إلى استعمال السيارات ، وكيف يعود هؤلاء الناس إلى عملهم الأصلى وديارهم الأصلية . وعلى الجملة لكى تقتصد الحكومة من خمسة إلى عشرة فى الألف من عجزها فى الدولارات نراها تشل حركة النقل الخاصة وتضع عبئا جديدا على وسائل النقل العامة ، وهى بعد مثقلة بما يكفيها ، وهى تنزل عن باب هام من إيراداتها تفكك أوصال صناعة هامة منتشرة فى جوانب البلاد ، وهى تحول بين طبقة كبيرة من السكان وبين التمتع الاجتماعى والثقافى . وهى تغضب الطبقات الوسطى والتى هى أقل من الوسطى والعليا من طبقة العمال لدرجة رئى أثرها فى الانتخابات البلدية حين حاقت بمرشحى العمال هزائم منكرة ؛ فهى تسير على سياسة إنفاق دينار لكى تقتصد درهما .

وانتقل الكاتب بعدئذ إلى الجانب السياسى من هذا التقييد ثم قال : هكذا تستمر الحكومة فى قتل روح حب العمل . فاذا اختفت هذه الروح نرى ظهور أعراض نفسانية أخرى منها تلك الموجة من الاضرابات التى يصح أن نسميها الاضرابات النفسانية ؛ فهى ليست إضرابات اقتصادية رغبة فى زيادة الأجور ، ولا هى إضرابات سياسية ، بل هى مجرد انفجار فى الغضب من تلقاء نفسه يكون أحيانا لأسخف الأسباب مثل إضراب عمال الفنادق الذى حدث أخيرا . وكثيرا ما يكون الاضراب موجها إلى الادارة السيئة للصناعات التى أممت كاضراب عمال المناجم فى يوركشير ، وهنالك أغراض أخرى . ولكنها صادرة عن المصدر النفسانى ذاته ، مثل ذلك العدد من الانجليز الذين

صاروا بين أولئك الذين لا يحاولون العمل وبين رجال العصابات . وتعلن الاحصاءات الرسمية أن هنالك نحو ربع مليون من هؤلاء يتهربون من تسجيل أسمائهم فى سجلات نقابات العمل ويشتغلون فى السوق السوداء ويشغلون وقت الشرطة المخصصة للمجرمين ، ويزداد هذا العدد باطراد . ولقد كانت بريطانيا منذ سنة تفخر بحق بأنها الدولة المحاربة الوحيدة التى لا تسود فيها السوق السوداء ، ولكن الحالة اليوم قد تغيرت ؛ فقد أخذ الزراع يذبحون ما شيتهم بطريقة غير مشروعة كما يحدث فى فرنسا . واعترفت وزارة التموين أخيرا أنها غير قادرة على منع هذا العمل . وهذه الأغراض وكثير غيرها تدل على ضعف فى القوة الأخلاقية فى البلاد . وهذا ناشئ من أنه حيل بينها وبين فيتامينات روح الابتداع والدوافع على العمل وقوة الآمال . ومن أعجب هذه المظاهر النفسانية ذلك الجنون الذى استولى على العقول ودفع بها فى تيار المراهنات بما لم يكن له مثيل . فقد كان الناس فى بريطانيا يراهنون دائما على لعب الكرة والخيل والكلاب ، ولكنهم انتقلوا الآن إلى أسخف الأمور كالمراهنة على آخر رقم على تذكرة الترام أو الحرف الأول من عمود من أعمدة الصحف المسائية . وقد يكون الرهان تافها ولكن المسألة لا تتعلق بالنقود بل هى الرغبة فى شئ من التسلية القليلة فى بلد حرم التمتع .

ويقول الكاتب إنه يطيل الكلام على هذه العوامل لأنه يعتقد أن مشكلة إيجاد الحوافز على العمل هى أهم وأصعب مشكلة فى الاقتصاد الاجتماعى . وهو يرى أن إخفاق الاشتراكية فى روسيا ناشئ عن انتهاء الحوافز الثورية وما تبع ذلك من ضرورة الالتجاء إلى الحوافز القديمة كالدعوة إلى الجامعة السلافية وعبادة الزعيم والعمل القهرى والقضاء على الاضطرابات وعلى الوراثة وعلى امتيازات الطبقات وغير ذلك. أما بالنسبة للاشتراكية البريطانية وهى اشتراكية اصلاحية وتدريجية ، فان مشكلة الحوافز تتخذ شكلا آخر . وليست بظاهرة الأهمية كما هى فى حالة روسيا بعد الثورة البلشفية الاجتماعية ، ولكنها حاسمة بقدر ما هى فى روسيا فى نجاح هذه الاشتراكية أو إخفاقها . ولما كانت سياسة حزب العمال فى الصناعات التى أقيمت ووضعت تحت إشراف الحكومة هى سياسة أكثر عدلا وديمقراطية وأشد تحقيقا لآراء اليساريين من الوجهة الاقتصادية عن سياسة نظام ستالين فهى لا تلتجىء إلى تلك التفرقة العجيبة بين الأجور وامتيازات نظام الساخونيفين والاستقلال والارهاب الذى هو محور استمرار الصناعة السوفيتية ، ولا هى تقدم تلك الحوافز المباشرة للنظام الرأسمالى ؛ إذ يؤدى العمل إلى التقدم المادى ويزيد هذه الحوافز قوة الخوف من العطلة وهذا ما نراه فى الصناعة الأمريكية .

تلك هى المشكلة الأساسية للديمقراطية الاجتماعية البريطانية ، كما أنها مشكلة لكل نظام ديمقراطى ، وهى ميراث من النظام السابق الذى انتقل إلى يد الديمقراطية من يد الطبقة الحاكمة بعد الافلاس التام . ولا يمكن حكومة العمال أن تحل هذا المشكل إلا بقوة خيال كبيرة تبذل فى سبيل ذلك ، ويجب أن تبعث الوعى الثورى الحقيقى فى نفوس الجماهير ، وأن يزيد الشعور بالمسئولية لا فى النقابات الوطنية ونظامها البيروقراطى ، وإنما فى رجال المصانع أنفسهم وفى أنظمة أندية العمال ومعسكرات النزهة وغيرها من

أنواع وسائل الترفيه . وفى عبارة أخرى تقوية الشعور السياسى والتمتع بالحياة . ولكن الناس لا يجدون الآن فى بريطانيا غير الاعلانات القائلة : إما العمل أو الحاجة ، ولا يجدون غير المواعظ والحكم على استعمال السيارات بالاعدام .

ولو استمر هذا الحال سنتين أخريين لخسر حزب العمال الفرصة التاريخية خسارة لا تعوض ، ويذهب فى الطريق التى سلكتها من قبل الأحزاب الديمقراطية فى ألمانيا والنمسا وفرنسا .

ولقد بدت الظواهر الخطيرة التى حدث مثلها من قبل فى أحزاب القارة الأوربية فى معاملة حزب العمال البريطانى للطبقتين الوسطى والعالية ، فقد أخافت جمهورية فيمار الألمانية أصحاب الصناعات فى الروهر ورجال العسكرية فصاروا أعداء ألداء لها ؛ فقد ظلت تخزهم بالابر ، ولكنها نسيت أن تكسر من شوكتهم فكانت النتيجة محتومة . ومثل ذلك حدث فى النمسا ، ومثل ذلك حدث فى فرنسا زمن الجبهة الشعبية ، وهو مظهر يتكرر مع تعديل بسيط محلى . وكأن مصارع الثيران الشاب قد دخل الساحة وانحنى لجمهوره المتحمس وبدأ يرفع رداءه الأحمر فى وجه الثور حتى جن الحيوان ، ولكن فى اللحظة الحاسمة ظهر له أنه نسى سلاحه فى المنزل ، وحينئذ لا بد أن يحمل على المحفة صريعا أمام جمهوره الذى يلقى عليه الوسائد والبيض إظهارا لسخطه .

وفى عبارة أخرى لا تستطيع حكومة اشتراكية إلا أن تختار بين أمرين : إما القضاء على الطبقة الحاكمة القديمة ، وإما إيجاد وسيلة للعيش معها . وقد حاولت كل حركة اشتراكية ديمقراطية تولت السلطة فى أوربا منذ سنة ١٩١٨ أن تتجنب هذا الاختيار . وفى كل مرة كانت الحركة تخفق ضحية لمحاولة تجنب هذا الاختيار . قد يقال إن تاريخ بريطانيا الاجتماعى هو سلسلة من الاتفاقات وحيدة فى بابها ، ولكن العوامل الجغرافية والسياسية والنفسانية التى أدت إلى هذا ليست قائمة الآن ، وإن الاعتقاد فى القوة السحرية لعلاج المسائل بالاتفاق فى مثل الخلاف بين عمال المناجم ورجال حى المدينة وبين الدولية ووزارة الخارجية البريطانية ، هو اعتقاد لا أساس له كالاعتقاد الراسخ فى قيمة السفن الحربية من طراز المدرعات الكبيرة ، والاعتقاد فى قوة الأعشاب العلاجية بدلا من السحب ذات النشاط الاشعاعى .

ثم أخذ الكاتب يسرد أمثلة على عدم توفيق الحكومة البريطانية فى معالجة الشؤون الداخلية والخارجية .

ظهر حديثا

مشروعات السنوات الخمس للدكتور راشد البراوى (مكتبة النهضة)

أهدى الدكتور راشد البراوى هذا الكتاب الجديد بين كتبه العديدة التى يخرجها متتابعة ، إلى الذين يؤمنون بقيمة النظام وأهمية التنظيم العلمى الدقيق . وهذا هو البرنامج الذى قصد إليه فى وضع هذا الكتاب ؛ فهو يعالج موضوعا فريدا فى بابه وفريدا بصفة خاصة فى عالم الكتب العربية ، وما يزال هذا الموضوع غامضا فى اللغات الأجنبية . عالجته بعض الكتب ولكنها لم تصل إلى نهايته ، ولها العذر فى أنها لم تصل ؛ لأن التجارب الحديثة التى تجرى الآن فى روسيا يحجبها أمران : أولها أن هذه التجارب لاتزال فى تطورها فلم تصل إلى غايتها بعد وإن ظهرت بعض نواحى الفائدة منها . والثانى أن حجب السياسة وغيومها المتكاثرة تأبى إلا أن تلقى ستارا بين الناس وحقائق الأشياء . فالكاتب الذى يتجرد إذن لهذا البحث يجد صعوبات تكاد تقف حائلا فى وجهه دون الوصول إلى الحقيقة وهذا مما يبعث على اليأس . ولكن الدكتور راشد البراوى تعود فى كتبه السابقة أن يهجم على الحقائق باسما غير مكترث مطرحا كل اعتبار إلا خدمة الحقيقة بقدر ما يستطيع . وهذا هو الغرض الذى يرمى إليه من بحوثه الواسعة فى موضوعات لم يطرقها الكثير من كتاب اللغة العربية ، وهم إذا طرقوها لم يوسعوها بحثا كما فعل الدكتور راشد البراوى فى هذا الكتاب المطول وفى غيره من كتب سابقة .

يبحث هذا الكتاب فى الباب الأول منه عن حالة روسيا فى عهد الحكم القيصرى إلى أن وصلت للنظام السوفيتى . فهو يصف حالتها قبيل الحرب العظمى الأولى من الوجهة الاقتصادية ، ثم ما كان للحرب من أثر فيها كانت نتيجته انقلاب نظام الحكم فى سنة ١٩١٧ .

وفى الباب الثانى تناول الكتاب عهد التجارب والأخطاء فى النظام السوفيتى ، فكان الكلام على خواص الاقتصاد السوفيتى والتجارب التى جربها زعماء هذا النظام ، والأنظمة الاقتصادية والمالية العدة التى كانت تجرب ثم تعدل أو تطرح جانبا .

وانتقل الكتاب إلى عهد النظام الاقتصادى المرسوم ومشروعات السنوات الخمس ، فتكلم عن كنه هذا النظام ، وعن الثورة الزراعية الثانية ، وعن الانقلاب الصناعى الحديث ، ثم النقل والمواصلات ومسائل الأجور ، واتحادات العمال والتجارة الداخلية ، ونظام التوزيع بالبطاقات ، وتنظيم التجارة الخارجية والمالية العامة ونظام الائتمان ، ثم مشروع السنوات الخمس الرابع .

وفى الباب الرابع عالج الكتاب المشروعات المرسومة فى البلاد الرأسمالية ، وأفرد فصلين أحدهما لمشروع السنوات الخمس فى الأرجنتين ، والآخر للسياسة المرسومة فى مصر .

فأنت تجد من كل هذا كتابا مفيدا غاية الفائدة ومرجعا طريفا لا يمكن أن يستغنى عنه الذين يريدون أن يسيروا مع الزمن .

الشرق الأوسط للبكباشي عبد الرحمن زكي (مكتبة النهضة)

هذا الكتاب هو أحدث الكتب التى أخرجها البكباشى عبد الرحمن بك زكى فى مختلف البحوث التاريخية . فهو فضلا عن دراسته الحربية قد تعمق دراسات الآثار الاسلامية . وهو رجل دءوب لا يكل عن البحث فى تاريخ مصر والشرق بصفة خاصة . وكتبه العديدة التى أخرجها للناس تدل على مادة واسعة واهتمام بأن يفهم الشرقيون بلادهم .

وهذا الكتاب الأخير أراد به أن يعرفنا ما هو الشرق الأوسط الذى تردد ذكره فى أيام الحرب ، وأى البلاد يصح أن يطلق عليها هذا الاسم . والحقيقة أننا كنا ألفنا إلى ما قبل الحرب أن نسمع كثيرا عن الشرق الأدنى ، ولم نكن نسمع عبارة الشرق الأوسط . حتى إذا أعلنت الحرب وتقسمت الجيوش المقاتلة رأينا عبارة الشرق الأوسط تطلق على تلك البلاد التى كانت تعرف بين الكتاب الأوربيين بالشرق الأدنى ، ورأينا هذه العبارة تتسع حتى تشمل بلادا تعرف فى اصطلاحنا العربى بالمغرب .

فلتكن هذه التسمية ما تكون ؛ فليس من شأننا أن نهتم بما يطلقه الأوربيون علينا من أسماء . ولكن البكباشى عبد الرحمن بك زكى أراد أن يتكلم عن دولنا العربية ، وأراد أن يتكلم عن الدول البعيدة عن العربية ، ولكنها تشاركنا فى الاسلام ، وفى قرب الموقع ، فوضع هذا الكتاب ، وأطلق عليه التسمية التى عرف الأوربيون بها أخيرا هذه الدول .

فهذا الكتاب دراسة شاملة سريعة لمصر والسودان واليمن وإمارات الجزيرة وإمبراطورية إيران ومملكة العراق وجمهورية تركيا وجمهورية سوريا وجمهورية لبنان والمملكة الأردنية الهاشمية وفلسطين وأفريقيا الشمالية وهى بلاد ليبيا وتونس والجزائر ومراكش .

وقد ذكر المؤلف مساحة كل دولة من هذه الدول وسكانها وتقاسيمها وموارد ثروتها وأحوالها السياسية وجيشها وصحافتها وغير ذلك مما يهم كل باحث . فالكتاب مجموعة سهلة للوقوف على طائفة كبيرة من المعلومات عن هذه البلاد من أيسر سبيل .

ثم أفرد المؤلف فصلا تكلم فيه عن ملوك العرب ، وفصلا آخر ذكر فيه مشاهير الرجال فى هذه البلاد ، ثم ختم الكتاب بفهرس الأعلام ومراجع الكتاب .

وقد طبع هذا الكتاب طبعا أنيقا وحلى بالصور والخرائط التى توضح معالم هذه البلدان ، كما أتى بصور ملوكها ورؤسائها .

ويعد هذا الكتاب غاية فى حسن الترتيب الذى يمكن أن يصل إليه المؤلف المتمكن من موضوعه ، والذى جرى قلمه طويلا ضاربا فى فنون الكتابة والبحث .

مشكلة التحليل النفسي في مصر للاستاذ محمد فتحى بك (طبع مطبعة مصر)

قضى الأستاذ محمد فتحى بك زهرة العمر فى القضاء ، وارتقى فى مناصبه حتى صار مستشارا فى محكمة استئناف مصر . ولكنه كان من الذين لا يقنعون بالعمل القضائى ومتاعبه ، بل كان ينفق كل وقت يمضيه غيره من زملائه فى الراحة فى البحث والدرس وعلم النفس . وقد عرف قدره فى هذه المباحث ، فانتدب لتدريس علم النفس الجنائى بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول . وانتهز هو أول فرصة أتيحت له فاعتزل مناصب القضاء وتفرغ للعلم الذى أغرم به ، وانقطع للتعليم بهذه الكلية ، وانقطع أيضاً للتأليف فى علمه المحبوب .

وهذا البحث الذى يضعه اليوم بين أيدى القراء هو خلاصة مجملة للمباحث النفسية والتحليل النفسى وتطور هذه الدراسة فى القرن العشرين ومجال هذا العلم وحدوده وفوائده .

ومنه يستطيع المتعلم أن يقف على قيمة التحليل النفسى وعلى وسائله ، ليقبل بعد ذلك على دراسة هذا العلم فى الموسوعات المختلفة وفى الكتب القيمة التى ظهرت فى اللغات الأجنبية واللغة العربية . ومن خير هذه الكتب الأخيرة الكتاب الذى وضعه فتحى بك من قبل .

ديودور الصقلي في مصر للاستاذ وهيب كامل (دار المعارف)

أراد الأستاذ وهيب كامل أن يهدى إلى قراء العربية وإلى أبناء وطننا خاصة كتابا قديما يهم المصريين الوقوف عليه لأنه مصدر من مصادر تاريخهم ؛ فاستخلص من التاريخ العام الذى كتبه المؤرخ ديودور الصقلى ، وهو المؤرخ اليونانى الذى عاش فى القرن الأول قبل المسيح والذى كان مقيما فى مصر — على تحقيق الأستاذ وهيب كامل — بين سنتى ٥٩ ، ٥٧ قبل الميلاد ، ما يخص تاريخ مصر ، ونقله إلى اللغة العربية نقلا دقيقا ، كى يستطيع المصريون الذين لا يعرفون اللغة اليونانية أن يقفوا على هذا المصدر من مصادر التاريخ المصرى .

وهذا عمل جليل يدل على أن تلك الفكرة الموفقة التى نادت ثم فرضت تعليم اللغة اليونانية واللاتينية فى كلية الآداب بالجامعة المصرية كانت فكرة سديدة . وهذا نوع من ثمارها ، وهو نوع نافع ، يزيده نفعا أن هذا النقل إلى العربية قد التزم فيه الناقل الأمانة . ومما يؤسف لها أن نمتدح ناقلا على هذه الصفة التى يجب أن تكون أولى قواعد النقل .

وقد أظهر الأستاذ وهيب كامل اهتمامه الكبير بالبحث والدرس فى المقدمة التى كتبها عن ديودور الصقلى وحياته وتاريخه حيث عمل لاستجلاء كثير من المسائل الغامضة فى حياته .

نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين للدكتور عطيه مصطفى مشرفه (دار الفكر العربى)

أخذ الباحثون فى التاريخ المصرى يتجهون فى بحوثهم أخيرا إلى دراسة عصر من أزهر العصور التى مرت على مصر وهو عصر الفاطميين ؛ فاتجهت طائفة من المؤرخين إلى البحث فى عقائد هؤلاء ، واتجهت طائفة إلى البحث فى تاريخهم .

وقد أراد الدكتور عطيه مصطفى مشرفه وهو الذى جمع دراسة القانون إلى التعمق فى التاريخ ، أن يعطينا صورة لنظم الحكم فى أيام الفاطميين ، أى فى الفترة ما بين سنتى ٣٥٨-٥٦٧ هجرية ، فوضع هذا الكتاب الذى كان إضافة قيمة للمكتبة العربية .

وقد أراد المؤلف أن يكون كتابه وافيا ، فابتدأ بذكر المصادر التى اعتمد عليها فى كتابه وهى أمهات الكتب التى نشرت فى تاريخ مصر فى تلك الفترة ككتب المقريزى والسيوطى . ولكن ما يميزه بصفة خاصة هو الرجوع إلى العشرات من المخطوطات المختلفة فى مكتبات مصر وأوربا .

فهو لم يدع وسيلة للاستقصاء والبحث لاتمام العمل الجليل الذى اتخذه على عاتقه إلا قام بها . ومن هذه المقدمة يطلعنا على أسرار عمله ، وبذلك نستطيع أن نعرف مدى الجهد الذى بذله فى هذا السبيل .

ثم أتى المؤلف على خلاصة تاريخية للدولة الفاطميه قبل أن يدخل فى موضوع الكتاب.

وبعد ذلك قسم المؤلف موضوعه إلى ثلاثة أقسام توافق الجوانب الثلاثة لنظام الحكم ؛ فتكلم فى الباب الأول على السلطة التشريعية فوصف الخلافة ومميزاتها ، وولاية العهد ، ولباس الخليفة ، ونظام البلاط ، وذكر مسكن الخليفة ومحتويات قصره وحاشيته ، فلم يترك أمرا من الأمور دون أن يذكره ويشير إلى مصدره .

وفى الباب الثانى تكلم عن السلطة التنفيذية ، فوصف الحكومة الفاطمية وتكلم عن الوزارة ورسومها وألقابها . وتكلم عن دواوين الحكومة الفاطمية وكبار الموظفين الاداريين والنظام الادارى ، ثم انتقل إلى النظام الحربى وديوان الجيش وديوان الجهاد ، ثم تكلم عن ديوان الاقطاع والنظام المالى وموارد الدولة وخراجها والاحباس والمكوس ، ثم نفقات الدولة والأرزاق والمرافق العامة وغير ذلك من البحوث الطريفة .

وعاد فى الباب الثالث فتكلم عن السلطة القضائية ، فوصف أهم المناصب الدينية فى عهد الفاطميين . وتكلم عن قاضى القضاة ثم بحث فى آداب القاضى ورسومه وألقابه ، وتعيين القاضى وولايته واختصاصه النوعى والاقليمى وألقابه ، وقضاء ولاية المظالم والمحتسب . ثم ختم بحثه بنظرة شاملة لعصر الفاطميين فتكلم عما نستطيع أن نسميه الحضارة الفاطمية . وأتى المؤلف فى نهاية بحوثه ببعض الوثائق والسجلات الفاطمية وثبت المصادر ، وأتى بخرائط للدولة الفاطمية وخريطة لمصر السفلى وخريطة لطرق البريد .

فهو كتاب جليل يدل على مجهود عظيم وبحث مستمر وتحقيق دقيق ؛ فان المؤلف لا يكاد يذكر عبارة دون أن يبين مصدرها ؛ وذلك يدل على ما فى صدره من تقدير للمهمة التى قام بها ولما يقتضيه البحث من أمانة .

كتاب الكندى الى المعتصم بالله تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (دار إحياء الكتب العربية)

يعمل الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، فى مجهوداته لنشر الثقافة الفلسفية ، لاحياء الآثار القديمة للفلاسفة الأقدمين من العرب الذين حذوا حذو اليونان فى هذه المباحث واقتبسوا منهم ثم زادوا عليه .

ومن أوائل هؤلاء الفلاسفة ومن أشهرهم أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى ، وهو الفيلسوف المسلم الذى اتجه إلى دراسة العلوم الرياضية والفلكية ، والنقل عن اليونانية ، مع أن اكثر الذين عنوا بالنقل من اللغة اليونانية فى الدولة العباسية كانوا من المسيحيين .

وقد وضع الكندى هذه الرسالة للخليفة المعتصم بالله ، تكلم فيها عما أسماه صناعة الفلسفة ، وعرفها بأنها علم الأشياء بقدر طاقة الانسان ، ثم تكلم عن أقسامها ثم عن مباحثها والفرق بينها وبين العلم الرياضى والعلم الطبيعى ، وغير ذلك من المباحث المتصلة بها .

وقد كتب الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى مقدمة بين فيها تاريخ الكندى وما عرف عنه ، وهو قليل ، واستنبط بعض الحقائق عن حياته . وفى هذه المقدمة بحث طريف يدل على الغزارة فى العلم والدقة فى التحقيق .

مقدمة لتاريخ الفلسفة الحديث *An Historical Introduction to Modern Philosophy* تأليف هيو ميلر Hugh Miller (مكميلان بنيويورك)

أصدر الأستاذ هيو ميلر أستاذ الفلسفة فى جامعة كاليفورنيا بلوس أنجليس ، هذا الكتاب القيم باللغة الانجليزية . وهو كتاب يتميز بعدة ميزات لا نجدها عادة فى كتب الفلسفة . فقد كتب هذا الكتاب بلغة سهلة خالية من التعقيد ، وجزلة حتى لتكاد تكون لغة أديب ؛ وهذا غير ما تعودناه فى كتب الفلسفة أو على الأقل فى كتب الكثيرين ممن يعالجون الفلسفة . وكأن الفلاسفة يباهون بنوع خاص ، بتعقيد لغتهم وملء صفحات كتبهم باصطلاحاتهم الخاصة . وكأنهم يأبون أن تتداول علمهم أيدى العامة . أما مؤلف هذا الكتاب فقد سعى لأن يكون كتابه فى لذته لدى القارئ ، أقرب إلى القصة ، ولقد نجح إلى حد بعيد .

ومن ميزاته أيضا أنه عالج تاريخاً طويلا للفلسفة وعلومها وبحوثها فى نظرات شاملة مجملة ، لا يقف فيها إلا عند الأمور الهامة ولا يسجل فيها إلا ما يستحق التسجيل ؛ فهو يرسم لك صورة بارزة حية لذلك التاريخ الطويل ، بحيث تقف على الحقائق الأساسية ، ولا يفوتك من هذه الصورة غير ما لا حاجة إليه إلا عند التوسع والتعمق .

وقد قسم كتابه إلى أربعة أقسام : أولها الابتداء العظيم ، وهو يتكلم فيه عن الفلسفة اليونانية بوجه خاص ، فيذكر نشأة العلوم ، وكيف تطورت النظريات الفلسفية إلى عصر سقراط ، ثم يسهب فى الكلام عن سقراط وأفلاطون وأرسطو والفلسفة فى العصر اليونانى الأخير .

وفى القسم الثانى يتكلم عما بعد ذلك من تطور إلى عصر الفلسفة الحديثة . فيتكلم عن المسيحية وعن فلسفات العصور الوسطى وظهور العلم الحديث . وينتقل إلى الفلسفة العقلية للعلم الحديث، والنظريات السياسية ، وفلسفة كانت ، وتطور الفكرة فى العلوم ، والفلسفة فيما بعد القرن التاسع عشر.

وفى القسم الثالث يتكلم عن الفلسفة الحديثة ومذاهبها المختلفة .

وفى القسم الرابع عالج ما ينتظر للفلسفة فى المستقبل .

وإنا لنرى أن الاطلاع على هذا الكتاب الذى ظهر حديثاً ، من أفيد ما يكون لمن يريد أن يتعمق فى البحوث الفلسفية ؛ إذ هو مقدمة ترغب فى المزيد .

ع . م .

فى مجلات الشرق

من سورية

الدنيا العدد ٧٨ : ٣ (سنة ١٩٤٨)

هـذا عدد خاص بالعراق تصدره مجلة سورية لتنقل إلى قرائها طائفة من المعارف الحديثة عن العراق الحديث توثيقا لما بين أبنـاء العروبة من أواصر الاخاء والمودة . والحق أن الأمة العربية فى طور نهضتها الاتحادية الحديثة ، فى أشد الحـاجة إلى أن يتعرف أبناؤها بعضهم إلى بعض وأن يعرف بعضهم عن بعض ما يحقق معنى الأخوة التى رسخت جذورها منذ أبعد الآماد واتحدت أهدافها على الآباد . وما أحرى مثل هـذا العدد الخاص من مجلة «الدنيا» السورية — من حيث هو فكرة — أن يكون مثالا لأعداد أخرى من مجلات عدة فى مختلف بلاد العربيـة ، تهدف إلى توثيق الأواصر بين أبنـاء العروبة فى مختلف أقطارهم !

إن القارئ العربى فى مصر أو فى سورية أو فى العراق . أو فى غيرها من بلاد العرب ، لا يكاد يعرف من شؤون البلاد العربيـة الأخرى إلا أسماء جغرافية وأعلاما سياسيـة إلى طائفة من الذكريات التاريخية العريقة فى القدم لا تكاد توقظ فيه الوجدان الوطنى الذى يدفعه إلى الأمل والعمل . ولقد وقعت واقعة اليمن منذ قريب ، فاستبدل فيه إمام بامام ونظام بنظام ، وحمل البرق أنباء ذلك الانقلاب إلى بلاد العرب وبلاد العجم ، فأكاد أقسم غير حانث أن أكثرية القراء الذين طالعتهم هذه الأنباء اليمنية على غفلة ، لم يجـدوا عندهم من مقدمات العلم عن تلك البلاد العربية ما يربطون به بين ماضى تلك البلاد وحاضرها ويعينهم على فهم التطورات السياسية والاجتماعية فيهـا ومداها وما يمكن أن تؤدى إليـه ؛ إذ كل ما يعرف القارئ العربى عن اليمن هو حدها الجغرافى على التقريب إلى طائفة من المعـارف الأسطورية عن مملكة بلقيس ، وسد مأرب ، وسيف بن ذى يزن ، أو سيف الاسلام عبد الله ، وزنابيل البن اليمنى والمنـدوب «المستمع» فى جامعـة الدول العربية فك الله أسره وأحسن عاقبته ...! ذلك كل ما هنالك ، أما نظام تلك البلاد السياسى ، وقانونها الأساسى ، وحالة أهلها الاجتماعيـة ، وصلة حكامها بالمحكومين ؟ وعلاقتها بمن يجاورها من الانجليز فى عدن ، ومن السلاطين فى لحج وحضرموت ، ومن السعوديين فى المملكة العربيـة — فتلك مجاهل لا يكاد ينفذ إليها قارئ من كل ألف قارئ فى هذه البلاد العربية ...

وماذا كان يعرف القارئ العربى عن فلسطين قبل أن يخرق صماخ أذنيه دوى الانفجارات الصهيونية فى العهد الأخير ؟ وأين كانت فى خيـاله من مصر ومن شرق الأردن ومن سوريا ومن لبنان ومن مطامع الصهيونيين ؟ أكاد أقسم كذلك أن قارئا

واحداً من كل ألف قارئ — ولعلى مبالغ فى حسن الظن — هو الذى كان يعرف من أحوال ذلك القطر العربى ما يتيح له أن يتتبع أحداثه السياسية بشئ من الفهم . ولو كان جمهور قراء العرب فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ يعلمون عن فلسطين ما يعلم اليوم عنها كل صبى وصبية ، ما جرؤ بلفور على أن يلقى تصريحه ذاك الذى حكم به بالموت على عشرات الآلاف أو مئات الآلاف من أصحاب هذه البلاد ومن الوافدين عليها ، ولما تطورت الحوادث فى تلك البلاد المقدسة هذا التطور الذى ينذر البلاد العربية كلها بشر مستطير !

إن القراء العرب فى حاجة إلى كثير من المعارف عن بلادهم وبلاد إخوتهم وأبناء عمومتهم فى المشرق والمغرب ؛ وليس يرجى هذا العلم — أول ما يرجى — إلا من الصحافة ؛ فهذا العدد الخاص الذى أصدرته مجلة «الدنيا» السورية للتعريف بالعراق هو اتجاه مستقيم نحو غاية موفقة تلائم الهدف الذى يجاهد له العرب اليوم متحدين قلبا وفكراً وعزيمة .

ويعنينى بصفة خاصة فى هذا العدد أن أنوه بالبحوث القيمة عن «الأدب والأدباء فى العراق» لمعالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى ، و « النهضة الأدبية فى العراق » للأستاذ محمد بهجت الأثرى و « الصحافة العراقية اليوم » للأستاذ سلمان الصفوانى .

من العراق

البيان العددان ٤٢ ، ٤٣ : ٢ (مارس ١٩٤٨)

يوالى الأستاذ أحمد مجيد عيسى مباحثه عن «الدراسة فى النجف» . وفى هذا العدد ينشر الحلقة الخامسة من هذه المباحث ، فيتحدث فيها عن المكتبات العامة والخاصة فى النجف ، وعن الجمعيات الثقافية . ويعنينا بصفة خاصة إحصاؤه عن المكتبات البائدة والمكتبات الحاضرة ، فهو يحصى من النوع الأول خمس عشر مكتبة ، كانت فيما يصف تضم أشتاتا من الكتب العربية بين مطبوع ومخطوط ، بعضها نادر الوجود أو معدوم النظير ؛ ثم تفرقت أيدى سبا بعد وفاة أصحابها أو جامعيها ، على أن العهد لم يطل بأكثرها بعد هذا التفرق ؛ فمن الممكن إنقاذ كثير منها بأيدى مشتريه أو حائزيه قبل أن تأتى عليه الأيام فنفقد جزءا مهما من تراثنا العلمى يضاف إلى ما فقدنا فى عصور الجهل المتطاولة من نتاج قرائح الذاهبين من علمائنا ... ثم يحصى من المكتبات الحاضرة — التى لم تزل فى حوزة أصحابها — ثمانى مكتبات عظيمة تضم مخطوطات ومطبوعات شتى . وما أشك أنها — بعد قليل أو كثير من الزمن — ستصير إلى ما صارت إليه مكتبات النوع الأول فتبيد وتتفرق بأيدى من يعرف قيمتها ومن لا يعرف ؛ وإن من الجناية على الثقافة العربية أن تتربص بها هذا المصير جامدين لا نحاول جهداً للابقاء عليها . وما أظن مالكيها الفضلاء يكرهون أن يتعاونوا مع هيئة علمية محترمة على استنساخ النادر من مخطوطاتها أو تصويره أو نقله إلى مكتبة من المكتبات الرسمية العامة حيث يسهل حفظه ويعم النفع به .

لقد طالما غفلنا عن واجب الاحتفاظ بتراثنا العلمى حتى خرج من أيدينا كثير منه إلى أيدى الأجانب من علماء المشرقيات أو عدت عليه الأيام فلم يبق منه فى أيدينا ولا فى أيدى غيرنا شئ. وإنى لأخشى أن نظل فى هذه الغفلة حتى تضيع البقية الضئيلة من هذا التراث فتنقطع صلتنا بمصادر علمنا وتاريخنا ونتاج أدبائنا الذاهبين!

وإنه لمما يسئ إلى قوميتنا العلمية أن نبحث عن كتاب مما ألف السابقون من علمائنا فلا نجد منه إلا نسخة فريدة فى ليدن أو دير الأسكوريال أو أكسفورد، أو ألا نجد البتة. وإذا كان القائمون على شؤون الحكومات العربية فى هذه السنين ليسوا من الايمان بالعلم بحيث نأمل أن نجد منهم معونة فى هذا الشأن فان فى استطاعة المثقفين من أبناء الشعوب العربية أن يتعاونوا على عمل ما لسد هذه الخلة. ولعل مجمع فؤاد الأول للغة العربية، أو المجمع العلمى بدمشق، أو المجمع الملكى الحديث فى بغداد — أن ينتدب أحدها أو جميعها لهذا الغرض، أو لعل جامعتى فؤاد الأول وفاروق الأول ...

إن من ألزم الواجبات الراهنة على المثقفين فى البلاد العربية أن يوجهوا هممهم فرادى أو متعاونين إلى إنقاذ البقية من تراثنا العلمى الذى يوشك أن يأتى عليه الزمن. وإن فى المكتبات الخاصة فى العراق وسورية ومصر، وفى بلاد المغرب العربى بصفة خاصة، مقداراً غير قليل من المخطوطات العربية النادرة لا يكاد حائزوها يعرفون ما هى ويوشكون بغفلتهم أو باهمالهم أن يفقدوها أو يعرضوها للتلف والضياع. وقد حدثنى صديق مغربى منذ قريب عن واحد من مواطنيه كان يملك طائفة من هذه المخطوطات آلت إليه بالميراث، فخشى أن تئول إلى الفرنسيين لشدة رغبة علمائهم فى الحصول على ما تضم من النوادر، فأحرقها ضنا بها وتنزيها!

من لبنان

المعهد العدد ٣ : ٤ (ابريل ١٩٤٨)

فى هذا العدد يعالج الأستاذ عبد الله العلايلى بعض مسائل النقد، فيحاول التفريق «بين الأسلوب والتركيب» وتحديد النسبة بينهما؛ فيرى أن النقدة يخطئون حين يفهمون «الأسلوب» على أنه طبيعة لغوية فيبنون نقدهم على هذه القاعدة الخاطئة، على حين يبدو التباين واضحا — بفضل تأمل — بين اللغة والأسلوب. ولكى يحقق هذا التباين بينهما يتحدث عن منبع اللغة فى النفس ومنبع الأسلوب؛ فيرى أن منبع اللغة هو الضرورة، وأن أهم عواملها الباعثة هو الفكر، «فوجودها وجود الرمز وفيها طبيعة العدد، وبشكل آخر: التهيج إذا طال أجله ينقلب إلى احتياج، وهو فى هذه الدرجة من الاستحالة منبع اللغة؛ ولذا غنى الانسان قبل أن لغا ...» أما منبع الأسلوب — فيما يراه — فهو عضوية الحس، وأهم عوامله الباعثة هو الانفعال، فوجوده وجود الحقيقة الشعورية وفيه طبيعة الحياة. وعلى ذلك فهو يقرر «أن التهيج فى حالة

كونه تهيجاً يشير إلى أسلوب ، أما إذا استحال إلى احتياج فانه يشير إلى لغة ؛ فالانسان حينما غنى كان أسلوبيا ، أى عبر بأسلوب يتفق والا نبغام فى أداة التعبير . »

ثم يمضى على هذه القاعدة فى تعداد مابين اللغة والأسلوب من خصائص ترجع إلى طبيعتين مختلفتين ، ثم يجمل القول بأن « اللغة مثل التصوير الشمسى ، بينما الأسلوب مثل الرسوم الفنية الموحية ؛ ففى الأول طبيعة الرمز والعدد ، بينما فى الثانى الطبيعة الحية ؛ ولذا كان فنا جميلا دون الأول ... »

ويخلص من تقريره هذا بتخطئة النقاد حين يأخذون الأسلوب مأخذ التركيب ويبنون على هذا الأساس نظرية الأدب والنقد ، فلا يعتبرون شيئاً من ذلك إلا من حيث الموضوع أو من حيث اللغة دون نظر إلى الأسلوب من حيث هو إرادة تصوير تستلزم صدق التعبير عن الشعور وحقيقية الانفعال .

وخلاصة الرأى — فيما بدا لنا — أن الأستاذ العلايلى يرى أن الأسلوب غير التركيب اللغوى ؛ فهو فى النقد وفى موازين الأدب ، غير اللغة وغير الموضوع ، ولكنه قسيم ثالث يتصل بالانفعال والشعور والارادة التصويرية — لا التعبيرية — وهو بذلك عنصر ذو شأن لابد من اعتباره بعيداً عن الموضوعية واللغوية ، لقياس الحقيقة الأدبية كما هى فى الواقع النفسى .

الأديب العدد ٤ : ٧ (أبريل ١٩٤٨)

يتحدث الأديب فؤاد الونداوى — من بغداد — عن الأدب بين الحرية والالتزام ، فيرى أن الأدب — وهو فن جميل — يجب أن يحاكى الطبيعة كما تبدو بلا تمييز بين ما هو طيب وما هو خبيث. وعلى هذا الأساس ينكر على الأديب أن « يلتزم » قواعد الأخلاق ؛ إذ كان هذا الالتزام فيما يرى يتنافى مع حرية الأدب .

ولكى يؤيد رأيه ذاك فى حرية الأدب دون التزام المقاييس الخلقية ، يقرر أن قواعد الأخلاق أمور نسبية تختلف باختلاف الزمان وتتباين وتتصادم باختلاف الأجناس والمكان ؛ فليس يضير الأديب فى شىء أن يتجرد من الالتزام بهذه القواعد المتباينة التى لايجتمع عليها الرأى ...

ولعل الكاتب على حق فى بعض مايزعم ؛ فليست قواعد الأخلاق جميعاً مما اتفق الناس عليه فى كل زمان ومكان ؛ ولكن ثمة قواعد ثابتة جاء بها الدين واتفق عليها الناس وأقرتها الشرائع البشرية ؛ فالتزامها حق وواجب فى الحياة وفى الفن جميعا ؛ وليس يتنافى التزامها مع حق الحرية ؛ فان الطبيعة نفسها — وهى المنبع الأصيل للفن — تلتزم — مع الحرص على الحرية — قواعد ثابتة نستطيع أن نسميها « أخلاق الطبيعة » .

والحرية نفسها لون من الخلق يضيق ويتسع على اختلاف البيئات والأزمنة والناس ؛ وقد تكون الحرية غير المقيدة فى أحوال كثيرة لونا من العبودية للشهوات البشرية ونوازع الأثرة التى تسيطر على النفس ؛ فليس فى الطبيعة إذن ولا فى الحياة حرية مطلقة ، والنهر حين لايمسكه شاطئان ليس نهراً ؛ وصورة من صور الطبيعة يمسكها

إطار أجمل موقعا فى النفس من مرآها فى الطبيعة ؛ فبعض القيد إذن جمال للحرية ؛ وبعض الالتزام جمال فى الأدب الحر !

وقد يزعم بعض النظريين من دارسى الأدب أن الالتزام فى أى صورة مفسدة للأدب ، فيقولون : هل يعطل الأديب عمله ليسأل قواعد الأخلاق أولا هل ترضى عنه ؟ فلهؤلاء النظريين ممن لم يعالجوا الأدب الانشائى نقول إن الأدب الحر بضعة من نفس صاحبه ؛ فهو حين ينشئ أدبا لا يسأل ولا يحتاج إلى جواب ؛ إذ كانت نفسه من وراء مادته تملى عليه ما يقول وما يكتب ، ولكل نفس التزامات خلقية واجتماعية تكيف شخصيتها التى تعيش بها فى الجماعة ؛ فمن هذه الشخصية بالتزاماتها ينشئ كل أديب أدبه حر الشعور والتصوير والعبارة فى حدود شخصيته هذه الملتزمة ، كما يتكلم المتكلم ويملى المملى فى حدود شخصيته اللغوية فلا يحتاج فى وسط الكلام أو وسط الاملاء أن يتوقف ليسأل قواعد اللغة أيرفع أم ينصب ؛ وإنما يقول ويملى ملتزما قواعد اللغة من غير قصد إلى الالتزام ، إذ صارت قواعد اللغة فى لسانه جزءاً من طبيعته فلا يخطئ القول ؛ وكذلك طبيعة الأديب حين ينشئ أدبا فيه صورة نفسه بالتزاماتها الخلقية والاجتماعية ...

إن قضية الحرية والالتزام فى الأدب ليست من السهولة بحيث نحاول أن نرسى لها قاعدة ، مادمنا حتى اليوم لم نستطع أن نحدد على وجه قاطع معنى الحرية !

فى مجلات الغرب

من لندن

ناشيونال ريفيو *The National Review* (عدد أبريل ١٩٤٨)

فى أسطر من الدعابة الصادقة ، يقول كاتب أمضى كلمته بحرف «ب» معلقاً على محاضرة ألقيت عن العهد الفكتورى ، موجهاً فى هذا التعليق نقداً لاذعا إلى الصحافة الحديثة : يكفى أن نوازن بين المقالة الأساسية لصحيفة فى عصر فيكتوريا ، ومثيلة لها فى صحيفة حديثة متوسطة ، فسنرى أن المقال الأول قد أنشأه كاتب مثقف ، لقراء مثقفين يحسنون الحكم ، على حين أن المقالات الأساسية الآن إنما هى طائفة من الدعاء والنصح ، يوجهها صبية فى الثانية عشرة من أعمارهم ، إلى صبية فى التاسعة . ولو وجدت الآن صحف تشبه صحف العصر الفيكتورى فى قيمتها ، فلن يكون لها قارئون. ولنعد إلى الموضوع الأساسى للمقال الذى عنوانه : المهن الحرة فى ظل النظام الاشتراكى. فهذا المقال نقد لمذهب الاشتراكيين الذين يفقدون عطف أصحاب المهن عليهم حين يؤممون المهن كلها . يقول الكاتب إن المهن الحرة تهاجم الآن ، بأنها السياج الوحيد الباقى لحماية الحرية الفردية من الدولة . وينقل عن بابوف قوله : لا بأس من التضحية بالحضارة كلها ، فى سبيل المساواة الصحيحة . وتقدم إلينا المجلة نفسها فى شهرية الكتب عنوانات مشوقة : منها كتاب قيم للورد بيفردج[1] يعرض فيه حياة أبويه فى الهند ، يستقيها من رسائلهما . ويظهر أن ما امتاز به هذان الأبوان من قوة النفس ورق العقل ورقة القلب ، يجعل من هذا الكتاب دراسة ممتعة ، ولا سيما وقد كان أبو المؤلف فيما يقول الناقد ، من السابقين إلى الحث على أن تظفر الهند باستقلالها الذاتى فى أسرع وقت . ولم يكن يحاول إخفاء هذا الرأى الذى كان الرسميون يضيقون به ضيقا شديدا ، ولا سيما حين يصدر عن موظف بريطانى .

وكتاب آخر سيجد من غير شك جمهوراً ضخما من القراء ، وهو الذى يجمع وثائق السياسة الخارجية البريطانية من ١٩١٩ إلى ١٩٣٩[2] .

وهذه الوثائق التى استقيت من وزارة الخارجية قد قسمت إلى قسمين ، يكون هذا المجلد السفر الأول من أولهما . ويظهر من هذا الجزء أن عمل المجلس الأعلى للحلفاء إنما كان ما سماه اللورد بالفور ، ممثل بريطانيا العظمى فى باريس حينئذ ، العملية الضخمة لتصفية الامبراطورية النمساوية . كما يظهر منه مقدار الخطورة التى اكتسبتها فى ذلك الوقت شؤون البلقان .

---

(١) *India Called Them,* by Lord Beveridge

(٢) *Documents on British Foreign Policy,* 1919-1939. Edited by E. L. Woodward and Rohan Butler.

القرن التاسع عشر وما بعده *The Nineteenth Century and After*

(عدد مارس ١٩٤٨)

تقرأ فى هذا العدد مقالا تدرس فيه ناحية من أجل نواحى العهد الفيكتورى خطرا ، وهى ناحية القصص السياسى ، قد كتبه الأستاذ و. ل. بورن W. L. Burn أستاذ التاريخ الحديث بجامعة دورهام ، وحلل فيه الآراء السياسية للكاتب القصصى العظيم فى عصر فكتوريا Anthony Trollope أنطونى ترولوب (١) ولاحظ أن المسرح السياسى الذى تناوله ترولوب ، كان يسوده تهالك مظلم على المنافع وراء ظل ظاهر من الارستقراطية . ويظهر كذلك أن ترولوب قد جهل أو كاد يجهل الاصلاح الاجتماعى جهلا تاما ، كما كاد يجهل السياسة الخارجية على رغم العهد الذى عاش فيه ، والذى ثارت فيه حرب القرم والحروب القومية المختلفة . أما السياسة الداخلية فقد أعطانا الكاتب خصائص فكرة ترولوب مستقاة من كتبه . فقد كان من غير شك من الأحرار بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . وهو الذى يقول إن اكتساب الحرية (٢) عسير شاق ممل ، ولكن فقدها رحلة يسيرة تشبه الانحدار من أعلى التل إلى السفح . فما هذه الحرية ؟ يقول الناقد إنها شيء ليس له صلة بالمساواة ، ولكنه شديد الاتصال بانتهاز الفرص . ويصور الكاتب فى خاتمة مقاله مذهب الأحرار الفيكتوريين ، وقد اتخذ ترولوب لهم عنوانا فيقول : إذا أردنا الصراحة قلنا إن الأحرار الفيكتوريين الذين اتخذنا ترولوب لهم مثلا ، كانوا يرون أنفسهم كأنما بدأوا رحلة إلى غاية لا يريدون أن يبلغوها ، واتخذوا لرحلتهم قطارا مبطئا شديد الابطاء ، يقف فيطيل الوقوف فى محطات كثيرة مارا ببلاد جميلة شائقة ، حتى أنساهم ذلك الغاية التى قصدوا إليها ، ولكنهم نظروا فاذا هم فى قطار سريع لا يقف . هذا هو مصدر الضعف العقلى الذى أصاب الحرية الفكتورية فهدمها .

من باريس

عدد من كراسات الجنوب *Cahiers du Sud* (رقم ٢٨٤)

يقدم لنا صحفا قيمة بما بذل فيها من الجهد تردنا إلى العصر اليونانى القديم ، وهى محاولة لتجديد التمثيل اليونانى القديم ، على نحو ما برز فيه جيرودو وكوكتو . وفى هذه الصحف مقطوعات من قصة موضوعها «السست (٣)» ، كتبتها مرجريت يورسونار

(١) *Anthony Trollope's Politics*, by W. L. Burn

(٢) In *North America* (1862)

(٣) Marguerite Yourcenar, *Le mystère d'Alceste*

Marguerite Yourcenar . والأسطورة معروفة كما خلدها أوريبيد ، لم تخرج عنها الكاتبة المعاصرة ، فقد نسى أدمت Admète حينما كان يضحى للآلهة فى يوم عرسه الآلهة ارتيميس ، فقضت عليه بالموت . ولكن أبولون الذى غضب عليه أبوه ذوس فنزل إلى الأرض وعمل خادما عند بعض الناس ، كان عند أدمت فظفر بأن ينجيه من الموت إذا قبل بعض أهله أن يفديه بنفسه . ولم يقبل هذا الفداء إلا امرأته السست فتموت ، ولكن هرقل ينتزعها من إله الموت ويردها إلى زوجها مكافأة له على حسن ضيافته . فاذا وازنا بين الصفحات المنشورة فى « الكايبه دى سود » وبين القصة التى أنشأها الشاعر اليونانى الخالد ، راعنا ما فى الحديثة من تعقد فلسفى ، وما فى القصة القديمة من روعة الفن المسرحى . فالكاتبة الحديثة تحاول أن تعرض وتفسر موضوعا فلسفيا هو الصراع بين هرقل والموت ، تتخذ لذلك شروحاً وتفسيرات مختلفة ، على حين نرى فى قصة أوريبيد هرقل وقد عاد إلى المسرح ومعه السست قد ردت الى الحياة ، لا نشهد الصراع وإنما يقص علينا نبأه فى أبيات قليلة جدا .

يقول أدمت متحدثاً إلى هرقل :

— كيف صعدت بها من دار الموتى ، إلى حيث ترى النور ؟

— صارعت الاله الذى استأثر بها .

— أين صارعت الموت ؟

— استخفيت قريباً من القبر ، ثم وثبت فقهرته .

هذا هو كل النبأ .

أما فى القصة الحديثة فنشهد الموقعة فى منظرين ، نشهد صراعا عقليا وخلقيا . وهى صفحات قيمة تظهر لنا هرقل وقد منحه الآلهة إلى قوة العضل نفاذ العقل ورقة القلب . فالبطل لايجاهد الموت وحده ، وإنما يجاهد الميتة التى استسلمت لسلطان القضاء . وانظر إلى قول هرقل وهو يحاول أن يوقظ السست فى هذه الكلمات التى يجرى فيها جمال مؤثر : « قومى معتمدة على مرفقيك أى السست ! انفضى شعرك هذا الثقيل الذى انغمس فى الموت . ثوبى إلى نفسك أى السست ! أى السست ! »

وبعد حين .

السست — من أنت ؟

هرقل — رجل هائم . رجل عامل . إنما أنا العابر الذى لقيك فى الطريق وحلة فى الموت ، ويحاول أن يستنقذك وأن يردك إلى زوجك أدمت .

فأنت ترى أن الذى أهم الكاتبة الحديثة من القصة اليونانية ليس هو الحركة ونظامها ، وليس هو المظهر الواضح لمجرى القضاء ، وإنما هو الصراع الأليم الملح بين عقل الانسان وما يكتنفه من الظلام . أيهما أجمل : قلق المحدثين أو روعة المأساة عند القدماء ؟ أما نحن فنجد عظمة رائعة عند أوريبيد فننحنى أمام الشاعر اليونانى ، وندرس فى حب للاستطلاع أثر الكاتبة المعاصرة .

الحياة العقلية *La Vie Intellectuelle* (عدد مارس ١٩٤٨)

يفتتح هذا العدد من هذه المجلة الكاثوليكية بملاحظات عن غاندى[1] أهمها

---

(١) Christianus, *Mystère de Ghandi*

أن غاندى قبل كل شئ أخ للمسيحية توشك عقيدته أن تكون كلها مستقاة من كتبنا المقدسة . وليس لنا أن ندخل فى دقائق هذه المقارنة . وفى شهريات هذا العدد يجد القارى نقداً للقصة التمثيلية الأخيرة التى كتبها مونترلان (١) «سيد سانتياجو» ، وفى هذا النقد يذكر الكاتب هذه الكلمة المأثورة من كلمات جان ماريتان Jean Maritain : يجب أن يكون الانسان قاسى العقل رقيق القلب ، وهى حقيقة يحسن تأملها .

أمينة طه حسين

(١) Montherlant, *Les maitres de Santiago*

فهرس المجلد الثامن

فبراير — مايو ١٩٤٨

دراسات أدبية

---

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين او امريكيين .

(١) *William Faulkner,* by Owen. E. Holloway

دراسات اجتماعية واقتصادية

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

---

(١) Bernard Guyon, *Voyage en Grèce* 1947

(٢) *The Spirit of Denmark During the Occupation and the years of Recovery*, by Henry Baerlein.

دراسات فنية

قصص

شعر

---

(١) Jean-Paul Sartre, *La recherche de l'absolu*

(٢) Hilde Zaloscer, *La structure sociale et l'expression artistique*

(٣) Hilde Zaloscer, *L'art de l'écriture*

(٤) Claude Aveline, *Monsieur Sommeil*

من هنا وهناك

شهرية الفن

شهرية العلم

شهرية السياسة الدولية

شهرية الفلسفة

شهرية المسرح

شهرية السينما

من كتب الشرق والغرب

من وراء البحار

ظهر حديثاً

---

(١) Etiemble, *Il faut de tout pour faire un monde*

(٢) Etiemble, *Machine et Humanisme*

(٣) Bernard Guyon, *Stendhal presenté par Maurice Bardèche*

فى مجلات الشرق

فى مجلات الغرب

قائمة الكتب التى أصدرتها دار الكاتب المصرى بإشراف الدكتور طه حسين بك

الأدب والقصص الحديث

قلوب الناس ، قصص تحليلية ، تأليف ابراهيم المصرى .

قصص جديدة للكاتب المعروف ابراهيم المصرى يصور فيها بيئتنا المصرية الحديثة فى أسلوبه السهل الجذاب : ساميه وإنعام، المقامر ، قصة امرأة ، أطوار النساء ، مأساة ضمير ، بعد سبع سنوات ، نداء البحر ، روايح الجنة ، الحياة الثانية ، هو القدر ، سلطان المثل الأعلى .

٨ + ١٣٦ صفحة ، الثمن ١٥ قرشا .

*

لقيطة ، تأليف محمد عبد الحليم عبد الله ، جائزة فاروق الأول للقصة .

القصة التى نالت جائزة فاروق الأول من مجمع فؤاد الأول للغة العربية لما فيها من وصف دقيق لنفس معذبة فى أسلوب عربى متين رصين .

٨ + ٢٥٢ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

*

من حولنا ، قصص مصرية ، تأليف محمد سعيد العريان .

جيل من الناس فى أفراحه وآلامه ، يرى كل قارىء فى مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه .

١٠ + ٢٦٢ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

على باب زويلة ، قصة تاريخية ، تأليف محمد سعيد العريان ، الجائزة الأولى للقصة من مجمع فؤاد الأول للغة العربية لسنة ١٩٤٧ .

كتاب رائع بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد ، كتاب من هذه الكتب النادرة التى تظهر بين حين وحين .



طبعة مزينة بالصور ، ١٢ + ٣٥٢ صفحة ، الثمن ٣٠ قرشا .

*

حكايات فارسية ، بقلم يحيى الخشاب .

كتاب يحمل إلى قراء العربية عبيراً رقيقاً حسن الوقع فى النفس من هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من رقة وفطنة وفكاهة .

١٠ + ١٩٨ صفحة ، الثمن ٢٠ قرشا .

من الأدب الفرنسى

Maurice Barrès, UN JARDIN SUR L'ORONTE.

جنة على نهر العاصى ، تأليف موريس بارس عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، تعريب محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين .

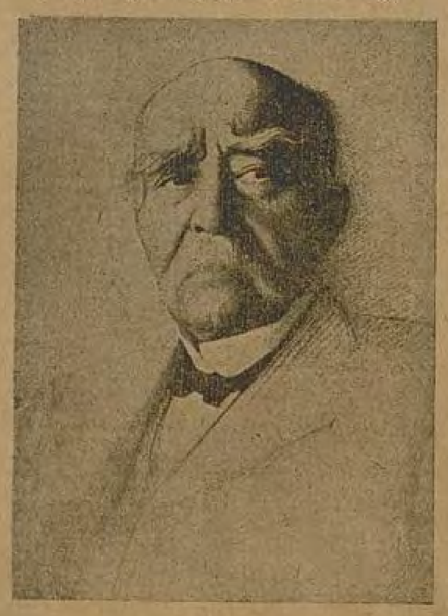
غرام أقرب إلى العبادة ومغامرات أقرب إلى الأحلام على ضفاف نهر العاصى حيث تملأ السواقى بأنينها أجواز الفضاء .

١٦٨ صفحة ، الثمن ١٨ قرشا .

*

Léon Daudet, LA VIE ORAGEUSE DE CLÉMENCEAU.

كليمنصو وحياته العاصفة ، تأليف ليون دوديه ، تعريب حسن محمود .



كليمنصو ... مسقط الوزارات ... النمر ... الرجل الذى عاش حراً فأصبح مغلولا ... الرجل الذى طلب أن يدفن واقفاً فى القبر ... زعيم فى السياسة بقلم زعيم فى الأدب . طبعة مزينة بالصور وصفحة ملونة تبين كيف كان هذا الزعيم يعد خطبه ، ١٦ + ٢٧٢ صفحة ، الثمن ٣٥ قرشا .

*

André Gide, LA PORTE ÉTROITE.

الباب الضيق ، تأليف أندريه جيد ، تعريب نزيه الحكيم ، مع رسالة من أندريه جيد إلى المترجم ورد طه حسين على أندريه جيد .

« ... ترجمة كتبى إلى لغتكم ؟ ... إلى أى قارئ يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن أن تلبى ؟ ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم فيما بدا لى ، أنه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة . أمخطىء أنا ؟ » أندريه جيد

« لم تخطئ أنت ، وإنما دفعت إلى الخطأ لقد خالطت كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخالط الاسلام ... فلو قد تعمقوا الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروك على ما يثير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب . » طه حسين

[من مقدمة كتاب « الباب الضيق »]

١٦ + ١٤٨ صفحة ، الثمن ١٨ قرشا .

*

André Gide, ŒDIPE — THÉSÉE.

أوديب — ثيسيوس ، تأليف أندريه جيد ، ترجمة طه حسين .

« صديقى أندريه جيد ، سمعتك تقرأ لنا قصتى « أوديب » و « ثيسيوس » فعرفت الحنان

الخاص الذى تؤثرهما به . ومن أجل هذا علمتهما العربيـة ليبلغـا إلى قراء الشرق رسالتك التى هى ثقة وشجاعة واستبشار . وسيشهدان كذلك بما أضمر من أعجاب بك قد أصبح منذ التقينا وداً كريماً . »

طه حسين

٨ + ٣١٢ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

*

André Gide, L'ÉCOLE DES FEMMES — ROBERT — GENEVIÈVE.

مدرسة الزوجات يليها روبير وچنڤييف تأليف أندريه جيد، تعريب صبرى فهمى.

فتـاة فى نشوة الحب ، ثم زوج فى يقظـة العقـل تتهم زوجهـا ، دفاع الزوج عن نفسه ، رأى الابنة فى والديها .

٣١٢ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

*

François Mauriac, GÉNITRIX.

والدة ، تأليف فرنسوا مورياك عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، تعريب محمد عبد الحميد عنبر وعبد الحميد عابدين .

وصف دقيق لنفسية الأم حين تشعر أن امرأة غيرها قد استأثرت بابنها وصرفته عنها.

٨ + ١٧٦ صفحة ، الثمن ٢٠ قرشا .

*

André Maurois, LE PESEUR D'ÂMES.

وازن الأرواح ، تأليـف أندريه موروا عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، تعريب عبد الحليم محمود .

هل توجد الروح ؟ وكم تزن ؟ هل يمكن الاحتفاظ بها ؟ وهل يمكن أن تمتزج بعـد الموت روحان كانتا مؤتلفتين أثناء الحياة ؟

٢٠٤ صفحة ، الثمن ٢٠ قرشا .

*

Prosper Mérimée, COLOMBA.

كولومبا ، تأليف پروسبير ميريميه ، تعريب محمد غلاب .

قصة فتـاة من أهل جزيرة كورسيكا تلك الجزيرة التى لا زالت تعـترف بالعـواطف الفطـرية الأولى وتدين بقـانون الحب والانتقام .

٨ + ٢٢٠ صفحة ، الثمن ٢٠ قرشـا .

*

A. de Saint-Exupéry, TERRE DES HOMMES.

أرض البشر ، للكاتب الطيـار أنطوان دى سانت أكسوپرى ، تعريب مصطفى كامل فوده .

« أرض البشر ، تلك الهباءة من الثرى التائهة بين الأجرام السماوية ، تلك الأرض الجديرة باعجابنا لأنها وحدها تكوّن الرجال . »

طبعة مزينة بالصور ، ٢٤٤ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

*

Stendhal, LA CHARTREUSE DE PARME.

دير پارم ، تأليف ستندال ، تعـريب عبـد الحميد الدواخلى .

قصة من عيون الأدب الفرنسى يصف كاتبها الكبير دولة إيطاليـة صغيرة ومغـامرات بطل القصة ودسائس وزيرها العجيب .

طبعة فى جزأين ، الجزء الأول ٨ + ٢٧٦ صفحة ، الجزء الثـانى ٨ + ٣٢٠ صفحة ، ثمن الجزء ٣٠ قرشا .

*

Voltaire, ZADIG ou la Destinée.

زديج أو القضاء ، قصة شرقية ، تأليف فولتير ، ترجمة طه حسين .

مشكلة القضاء والقدر يعرضها الفيلسوف الفرنسى فولتير فى أطار قصصى جذاب . عدد خاص من مجلة الكاتب المصرى ، الثمن ١٠ قروش .

من الأدب الانجليزى

Aldous Huxley, BRAVE NEW WORLD.

العالم الطريف ، تأليف أولدس هكسلى ، تعريب محمود محمود .

العالم فى المستقبل ... بعد أن يتحكم العلم ... وتتولد الأطفال فى المعامل !
١٦ + ٢٧٦ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

*

H. G. Wells, THE FOOD OF THE GODS.

طعام الآلهة وكيف جاء إلى الأرض ، تأليف هـ . ج . ولز ، تعريب محمد بدران .

قصة طريفة لذلك الكاتب الانجليزى الخصب الخيال الذى عرف بنبوآته الغريبة عن الحروب ومخترعات العقل البشرية وتحققت أكثر هذه النبوآت فى حياته .
١٦ + ٣٢٠ صفحة ، الثمن ٣٠ قرشا .

*

Oscar Wilde, THE PICTURE OF DORIAN GRAY.

صورة دوريان جراى ، تأليف أوسكار وايلد ، تعريب لويس عوض .

قصة شاب جميل الطلعة يحتفظ بشبابه بينما تهرم صورة له وتظهر عليها كل العلائم التى تنتاب المقبلين على اللهو والملذات .



طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم م . ج . م .
٨ + ٣٠٤ صفحة ، الثمن ٣٠ قرشا .

*

Oscar Wilde, THE CANTERVILLE GHOST.

شبح كانترفيل ، تأليف أوسكار وايلد ، تعريب لويس عوض .

وهى سجل طريف للمحن التى ألمت بشبح قصر آل كانترفيل حين انتقل هذا القصر التاريخى إلى وزير أمريكا المفوض فى بلاط سان جيمس . فيها فكاهة متصلة مع براعة فى الوصف وفى الخيال .
طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم م . ج . م .
١٢٨ صفحة ، الثمن ١٨ قرشا .

من الأدب الأمريكى

John Hersey, HIROSHIMA.

هيروشيما ، تأليف چون هرسى ، تعريب حسن محمود .

قصة تدمير مدينة هيروشيما بفعل قنبلة ذرية واحدة وما حدث لسكان هذه المدينة ، مشاهدات ستة أشخاص كانوا فى المدينة حين قذفت القنبلة ونجوا بأعجوبة من هذه الكارثة . وهى قصة جذابة قرأها ملايين فى أمريكا وأوربا .

عدد خاص من مجلة الكاتب المصرى ، طبعة مزينة بصور مهداة من مكتب الولايات المتحدة للاستعلامات بالسفارة الأمريكية بمصر ، الثمن ١٠ قروش.

من الأدب الروسى

Fédor Dostoievski, THE GAMBLER.

المقامر ، تأليف فيدور دستويفسكى ، تعريب شكرى محمد عياد .

قصة شاب مصاب بداء القمار لقى من هذا الداء فى حياته شراً عظيما . وهى قصة عنيفة تستأثر بقلب القارئ وعقله .

٨ + ١٧٢ صفحة ، الثمن ١٨ قرشا .

*

Ivan Tourguéniev, FIRST LOVE.

الحب الأول ، تأليف ايفان ترجنيف ، تعريب محمود عبد المنعم مراد .

قصة ساذجة تصور قلب شاب ناشئ يندفع إلى الحب فى غير احتياط ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه .

٨ + ١٠٨ صفحة ، الثمن ١٥ قرشا .

من الأدب الألمانى

Emil Ludwig, NAPOLÉON.

نابليون ، تأليف إميل لودفيج ، ترجمه عن الألمانية محمود ابراهيم الدسوقى .

البطل الذى اكتشف لودفيج وراء قناع بطولته محيا الانسان ، فتجلت بطولته فى إنسانيته ، وفاقت كل ما عرف إلى الآن .



طبعة مزينة بالصور فى جزأين ، الجزء الأول ٢٠ + ٣٥٦ صفحة ، الجزء الثانى ١٢ + ٣٥٦ صفحة ، ثمن الجزء ٤٥ قرشا .

فى القانون والفلسفة

INSTITUTES DE JUSTINIEN

مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى ، ألفه فقيه القياصرة فى قسطنطينية الأمبراطور جوستنيان ونقله إلى العربية إمام القضاة فى مصر معالى عبد العزيز فهمى باشا ، أخرجته دار الكاتب المصرى فى طبعة ممتازة وتجليد أنيق .

٢٨ + ٤٠٩ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ١٥٠ قرشا .

*

Ignaz Goldziher, LE DOGME ET LA LOI DE L'ISLAM.

العقيدة والشريعة فى الاسلام ، للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر ، نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر ، عبد العزيز عبد الحق المدرس بكلية الشريعة بالجامع الأزهر ، على حسن عبد القادر دكتور فى العلوم الاسلامية ومدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن .

أبواب الكتاب : محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام — تطور الفقه — نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف — الفرق — الحركات الدينية الأخيرة .

١٦ + ٣٨٨ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ٨٥ قرشا .

*

تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ، تأليف الأستاذ يوسف كرم مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول .

وهو كتاب قيم فيه تفصيل واف عن المذاهب الفلسفية فى تلك القرون فى دقة تعبير مع طلاوة فى الأسلوب .

٨ + ٢٦٦ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ٥٠ قرشا .

*

عقلى وعقلك ، تأليف سلامه موسى .

أوفى كتاب فى علم النفس الحديث يبسط آخر المعارف عن هذا العلم بلغة واضحة ليس فيه جملة معقدة أو فكرة مبهمة تقرأه فتقف منه على أسرار النفس البشرية وحركة التفكير .

٨ + ١٩٢ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ٤٠ قرشا .

الكتب التى صدرت أخيراً

قطوف ، بقلم عبد العزيز البشرى ، مقدمة لطه حسين .

آخر آثار الأديب العظيم عبد العزيز البشرى جمعت فى مجلدين يحتويان أكثر من ٤٠٠ صفحة . اقرأ « قطوفه » هذه فسترى فى كل فصل من فصولها مرآة مصقولة صافية صادقة أدق الصدق للحياة المصرية فى عصر الانتقال .

طبعة فى جزأين ، الجزء الأول ٢٠ + ١٩٦ صفحة ، الجزء الثانى ٨ + ١٩٦ صفحة ، ثمن الجزء ٢٠ قرشا .

كتاب البخلاء للجاحظ ، حقق نصه وعلق عليه طه الحاجرى مدرس الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول.

أثر من أعظم آثار الأدب العربى يبعث من جديد فى طبعة منقحة بالدقة التى يتبعها علماء هذا العصر. قام بنشره طه الحاجرى الذى تخصص فى أدب الجاحظ وعلق عليه وشرح غامضه فأصبحت هذه الطبعة أكبر أداة للباحثين .

٥٢ + ٤٦٨ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ١٠٠ قرش .

*

تأريخ قضاة الأندلس ، ألفه الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الأندلسى وسماه كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره إ. ليفى بروفنسال أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون ومدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس .

وثيقة عظيمة الخطر عن تاريخ القضاء بالغرب الاسلامى فى العصر الوسيط .

٢٤ + ٢٤٨ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ٧٥ قرشا .

*

البيت السبكى ، بيت علم فى دولتى المماليك ، تأليف محمد الصادق حسين .

تاريخ عصر يتمثل فى تاريخ أسرة بقلم عالم من أكبر العلماء .

٩٦ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ٢٥ قرشا.

*

تربية سلامه موسى ، بقلم سلامه موسى .

تاريخ حياة المؤلف باعتبار أن الحياة تربية وتاريخ مصر فى تطورها وانتقالها من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين .

٢٩٢ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا.

*

ساڤو نارولا ، الراهب الثائر ، بقلم حسن عثمان .

صفحة من أروع صفحات عصر النهضة الأوربية كتبها مؤرخ توفر على دراسة ذلك العصر ، وهى حياة شخصية غريبة قلما يجود بمثلها الزمان .

طبعة مزينة بالصور ، ٢٦٠ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

*

Henri Bergson, LE RIRE.

الضحك ، بحث فى دلالة المضحك ، تأليف هنرى برجسون ، تعريب سامى الدروبى وعبد الله عبد الدايم .

الكتاب الشهير الذى وضعه الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون ليدرس فيه الضحك كظاهرة نفسية والمضحك وأنواعه المتعددة .

١٣٦ صفحة ، الثمن ١٥ قرشا .

*

Anton Tchékov, HISTOIRE D'UN INCONNU.

قصة رجل مجهول ، تأليف أنطون تشيكوف ، تعريب محمود الشنيطى .

من أبدع قصص أمير القصة القصيرة وهى مثال كامل لفنه فى بناء القصة وفى معالجتها .

٤ + ١٢٢ صفحة ، الثمن ١٠ قروش .

*

Pierre Benoît, L'ATLANTIDE.

غانية أطلنطا ، تأليف بيير بنوا عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، تعريب رشدى كامل .

لم تكن تبحث عن نشوة الحب فحسب بل كانت ترمى كذلك إلى أن تنتقم من الرجال ، فتقتلهم بحبها.

٢٩٦ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

François Mauriac, LE NŒUD DE VIPÈRES.

عقدة الأفاعى ، تأليف فرنسوا مورياك عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، تعريب نزيه الحكيم .

«لا لم يكن المال ما يحبه هذا البخيل ولا الثأر ما يطلبه هذا المجنون . أما هواه الحق فستعرفه إذا ملكت القوة والجرأة على أن تصغى إلى هذا الرجل حتى اعترافه الأخير الذى يقطعه الموت .»

٨+٢٢٠ صفحة ، الثمن ٢٠ قرشا .

*



دار الكاتب المصرى قسم النشر باشراف الدكتور طه حسين بك
٥ شارع قنطرة الدكة — القاهرة



اناقة
سوبرستيل
Superstyle
بايار
القلم الذى لا يبارى
يباع فى المحلات الكبرى
الوكلاء : الكاتب المصرى ش.م.م